

ميليسا را كوستا

الأيام التي ستأتي

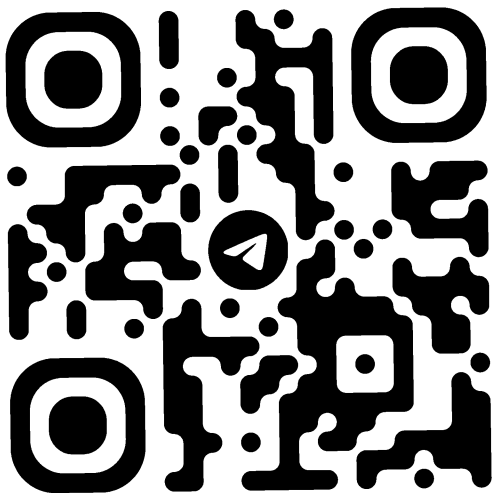
رواية



مكتبة

ترجمة روز مخلوف

مبارك الأيام التي خلّت ..
والأيام التي ستأتي .. نور
ومزيدا من الطهوح والأعنيات



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

الأيام التي ستأتي

مكتبة
t.me/soramnqraa

الترقيم الدولي 8-35-961628-1-978 (ISBN):

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى: 2025



منشورات وسم

الكويت - العاصمة - القبلة - شارع فهد السالم

عمارة أسامة - الدور الأول س- مكتب رقم 26

إيميل wasm_publishing@hotmail.com

تصميم الغلاف: محمد إسلام Medislamm@

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

© Éditions Albin Michel - Paris 2020

الأيام التي ستأتي LES LENDEMAINS

رواية

ميليسا دا كوستا

MÉLISSA DA COSTA

مكتبة

t.me/soramnqraa

ترجمة

روز مخلوف

إلى فلورانس، و مهدي، وشجرة الزيتون المقدسة
التي ربطت بينهما إلى الأبد.

مكتبة 1

t.me/soramnqraa

يصعب القفل الصدي فتح الباب. اضطر الرجل أن يسحب المفتاح عنوةً ويعيد المحاولة. الجو حار هنا أيضاً إلى حد بغض. ليس كما في المدينة أو السهل، ولكنه حار. الحرارة قريبة من الثلاثين درجة. نفخ الرجل وبدأ أنه يفكر للحظة، وبالتزامن مع دوران المفتاح، دفع الباب الخشبي بكتفه دفعةً خفيفة. طقطق اللوح الخشبي الثقيل ذو الطلاء المتقشر وانفتح فجأةً نحو الداخل، نحو العتمة والبرودة.

لا بد أن المنزل مغلق منذ شهور، إذ تنتشر فيه رائحة عفونة خفيفة. لكن هذا الانطباع غير السار تكتسه البرودة المنعشة السائدة فيه. وجدت الوقت لتقدير درجة الحرارة داخل المنزل، لا تزيد عن اثنتين وعشرين درجة. حرارة مثالية. سمعت الرجل بجواري يضع على الأرض حقيبة أدواته ذات الجلد الصناعي. علت جلبةً مفاتيح، يضعها في جيب بنطاله بينما يقول: «أبحث عن مفتاح قطع التيار الكهربائي»

لبثت أنتظرُ بهدوء، واقفةً في الردهة المعتمة. لم يكن لدي شيء أفضل أفعله. بات الانتظار طبيعتي الثانية في مساء الحادي والعشرين من يونيو ذاك. بات شغلي الوحيد.

كان ينفخ. هل بسبب الحر؟ أم بسبب صعوبة البحث بالتمس؟ لم أساعده ولم أفكر بذلك، فقط أنتظر.

مر الوقت مموهاً بين جدران المنزل القديم، السمكة. لاحظت عدم وجود جيران، والسكون.. هذا أيضاً أمر جيد.

«ها نحن ذا، اعذرني»

فجأةً أضاء المدخل. مسح الوكيل العقاري جبينه مبتسماً لي ابتسامة اعتذار، مقتنعاً بأنني سأسرع بالهرب. الإضاءة الشحيحة للمصباح، رائحة العفونة، الباب الذي يصعب فتحه - لا بد أن الخشب قد انتفش إلا أنني لم أسارع إلى الهرب. رحت أراقب الردهة التي أقف فيها. ردهة معتمة بدون نوافذ، ببلاط بني نحاسي، وجدران بيضاء ذات إزار خشبي داكن، ولوحة تمثل كنيسة من الحجر.

سمعت خشخشة وثائق يستلها من محفظة، لكي يقرأ لي ما سُجل حول مواصفات المنزل. مسح جبينه المبلل مرة أخرى. لم أتحرك من مكاني ولم أستفسر عن شيء. سوف يأتي على ذلك، أو لن يفعل، الأمر سيان:

«منزل يعود لعام 1940. جرى تجديد الواجهة قبل عشر سنين، وتم عزل السطح في الشتاء الماضي.»

أظن أنني لمحت بصيص رضئ في نظرتي، معتبراً أن هذه التفاصيل ستنتهي حتماً إلى إقناعي. أخذت أجدق إلى اللوحة التي تمثل كنيسة، دون أن أراها حقاً.

«المساحة ستين متراً مربعاً. الباب الموجود إلى يمينك يؤدي إلى غرفة النوم، والموجود إلى يسارك يقود إلى الحمام.»

مدّ يداً، ونظر إلي متفحصاً. استغرق مني الأمر عدة ثوان لكي أفهم بأنه يدعوني لكي أتقدم بضع خطوات، وأدفع الباب المتواجد إلى اليمين. ذهني يعمل ببطء. انتهى الأمر بالرجل بأن تقدّمني مع ابتسامة أسفٍ أخرى.

كان هذا الباب يفتح بسهولة أكبر، ولا شيء يستحق الذكر عدا صرير طفيف أثناء فتحه. تلاشى وقع خطوات الرجل، أصبح صوتها مكتوماً. استنتجتُ بأن هناك موكيت فوق الأرضية.

«سأفتح النوافذ.»

انتظرتُ وأنا أسمع صوت تحريك مقبض نافذة. علا صرير أجش وتسلل شعاع خافت من الضوء. تلاه صوتٌ دفع مباشر نتج عنه صرير قوي هذه المرة. في اللحظة التالية، دخل الضوء إلى الحجرة. شعاع شمس مع ذرات غبار تتطاير داخله متراخية. ميزتُ بالفعل بساط موكيت من لون بلاط الردهة، البني النحاسي، وكذلك لمحت سريراً كبيراً، رأسه من خشب مصمت وثقيل، بلون داكن، وخزانة من طراز قديم. لا شيء أكثر. الأساسيات فقط. يناسبني هذا. لا أطلب شيئاً سوى الصمت والبرودة وقدرًا أقل من الشمس.

«النافذة تواجه الشرق. تستطيعين مشاهدة شروق الشمس فوق الغابة إذا كنتِ ممن يستيقظون باكراً»

لا يعلم بأنني لا أنوي فتح مصاريع النوافذ، وأنني أنوي البقاء في العتمة.

«هل لديكِ أسئلة؟»

«لا»

هل فوجئ، أم لم يفاجأ؟ لم أتفرس ملامح وجهه للتأكد. كنت فقط أنتظر. كنت أنتظر انتهاء الزيارة، وأنتظر استلام مفاتيح المنزل، كي أغلق على نفسي.

عدنا مجدداً إلى الردهة، باتجاه الباب في الجانب الأيسر هذه المرة. تكررت المناورة. تُفتح مصاريع النوافذ فتصدر صريراً، ويدخل الضوء. يوجد هنا حوض استحمام على الطراز القديم، بلون قبيح، قريب إلى لون السلمون البرتقالي، وكروسي مرحاض. مَنْ لا يزال يستخدم هذا؟ كما يوجد مغسلة، وبعض أمكنة التخزين.

«سيتعين ترك الماء يسيل للحظات... لقد قُطع منذ حين. أتخيل بأنه سيكون أصفر قليلاً في اللحظات الأولى.»
ماء أصفر، ماء شفاف. ماء والسلام.

أثناء اجتيازنا للردهة من جديد ارتعشت الإنارة. سيتعين تغيير المصباح. دَفَعَ الرجل الباب الأخير، وسَعَلَ بخفة. الحجرة مغبرة بالتأكيد. بين تفعيل زر الكهرباء وظهور إضاءة شاحبة، احتاج الأمر لبضع ثوان. بدت الحجرة ذات طابع مشابه لطابع سابقتيها: بلاط داكن، ومطبخ مجهز بخشب غامق وورق جدران بلون السلمون البرتقالي بأنماط أغصان خيزران بيضاء. تنفتح نافذة ثم مصراعان، للسماح بدخول هواء أكثر نقاء. جعلني الضوء الساطع أضيّق عيني. لا أحتمل هذه الشمس. هذه الشمس الزرقاء إساءة. راح الرجل يتكلم وأنا أشيح بوجهي عن النافذة، أبحث مجدداً عن البرودة والعمّة.

«كما ترين، كان لدى المالكة السابقة حديقة تُركت بلا عناية، لكن بضع ضربات بالمعول ستعيد تأهيلها إذا رغبت بذلك.»
توقف عن الكلام وأظن بأنه نظر إليّ محدقاً.

«ألا تريدان مشاهدتها؟ هل أنت على ما يرام يا سيدتي؟ هل تخشين الضوء؟»

«فقط ألم في الرأس»

«أستميحك العذر. سأعيد إغلاق النوافذ.»

شعرت بالامتنان له. واصلَ كلامه مقتنعاً بأن هذا كله ضروري اليوم من أجل إبرام عقد إيجار:

«المالكة السابقة كانت سيدة عجوز. توفيت منذ ثلاث سنين، ومنذ ذلك الوقت بقي المنزل غير مسكون... هذا لا يعني بأنه ليس في حالة جيدة، بالعكس، لقد حافظت عليه تماماً ابنةُ تلك السيدة العجوز، التي تعيش في الطرف الآخر من فرنسا وتعود إلى هنا مرة في السنة، لإجراء بعض أعمال الصيانة، لا سيما عزل السطح في العام الماضي...»

لم أعد في الحقيقة أسمع ما يقول، وهو لم ينتبه لذلك مستكملاً:
«لا، المشكلة هي أن الناس يهربون من المناطق الريفية. الأمر مشابه في كل مكان. لم تعد أوفيرن تستقطب الكثيرين»
«هل ستبقى قطع الأثاث؟»

أوماً بالإيجاب، دون أن يتزعج من مقاطعتي له.
«طبعاً. سيبقى كل شيء. لقد أرادت ابنةُ المالكة السابقة، إبقاء المنزل من الداخل على حاله، وكذلك الأشياء الشخصية. ربما تخطط للاستقرار فيه يوماً... عند التقاعد مثلاً. الأشياء الشخصية موجودة في العلبة، في الطابق العلوي، مُرتبةً في صناديق كرتون، وإذا كانت ستزعجك، يمكنني إخبارها إذا لزم الأمر...»

«لا، لن تزعجني.»

فركَ يديه راضياً.

«هل أدعك تتجولين مرة ثانية في المنزل على هواك؟»

«لا، لا لزوم لذلك»

«جولة في الحديقة ربما...!»

«المسألة هي أنني مستعجلة»

«أه...»

سألته: «هل بالإمكان توقيع الأوراق الآن؟»

بدا كأنه لا يصدق. لم يكن يتوقع الفوز بهذه السهولة. بقي المنزل في عهده منذ ثلاث سنين، وفي زيارة واحدة نجح في تأجيله.
«هل أنت متأكدة؟»

لقد فوجئ هو بالذات، بسؤاله ذاك، لمست ذلك في وجهه.
«نعم»

«حسناً إذن... نعم، لدي الأوراق في سيارتي، ولكنني أحتاج إلى مستندات.»

لم أنتظر إنهاء جملته لكي أباشر البحث في حقيبة يدي. لقد أعددت كل شيء، ورتبتُ بعناية كل الوثائق المطلوبة في مغلف بلاستيكي. إشعار الضريبة، آخر كشف لروايتي، وثيقة كاتب العدل بخصوص الوصية والمبلغ العائد لي منها، وبطاقة هويتي.

«أوه... كل شيء هنا؟ عظيم!»

جلسنا إلى طاولة المطبخ لملء أوراق العقد وإتمام الإجراءات الرسمية.

«إنك تشيرين فضولي.»

احتجّت إلى ثوان قبل أن أدرك بأنه كان يخاطبني، وأرى بأنه أنهى ترتيب المستندات وراح يراقبني بيدين ممدودتين على الطاولة.
«عفواً؟»

«هل أنت من المنطقة؟»

«لا. كنت أعيش في ضواحي ليون»

«ولا أقرء لك هنا؟»

هزئت رأسي فأصدر مهمةً تعبر عن اندهاشه.

«إنها فكرة غريبة أن تأتي امرأة لتعيش بمفردها في مكان معزول بهذا الشكل»

لن يحصل على أي جواب مني، ما وضع نهايةً لمحادثتنا. أعدتُ له العقد موقعاً بنسختين، وقلم الحبر الأزرق الجاف.

«حسناً، يمكننا الانتقال إذن إلى الحالة الراهنة للمكان.»

تركت الباب مفتوحاً إلى أن اختفت سيارة الوكيل العقاري في آخر الطريق الضيق المؤدي إلى البيت، ثم في الغابة الكثيفة التي تغطي التلال المحيطة، وأغلقتُ البوابة الثقيلة. العتمة، الصمت، البرودة. بقيتُ لحظات طويلة أسند ظهري إلى الباب الخشبي، لأؤكد من أنه لن يعود، وأنني أصبحت أخيراً بمفردي.

لم أحضر الكثير من الأشياء معي. حقيبة واحدة في صندوق سيارتي، ولا ضرورة للإسراع في إحضارها. تركتُ كل ما تبقى، وخاصةً الصور. لا أريد شيئاً يذكرني بحياتي السابقة، حياتي ما قبل 21 يونيو والأمسية التي تلت.

كيف يتصرف الناس؟ كيف يمكنهم رؤية عوالمهم تنهار ثم يستأنفون حياتهم كما كانت تماماً؟ كيف يعودون إلى العمل بعد بضعة أيام، يتابعون العيش في الشقة نفسها، ويرتادون الحي نفسه... هذا يفوق قدرتي. لقد غادر كلاهما عالمي، بقسوة، في تلك الليلة نفسها. ومنذ تلك اللحظة، كفَّ ذلك العالم الذي كنت أحيأ وأتنفس وأستيقظ فيه منذ تسع وعشرين عاماً، عن الوجود.

تركْتُ مفاتيح الشقة لـ آنا، وهي ستتصرف بالطريقة التي تراها الأنسب. لم أعمد إلى إخلائها. لم يسعفني الوقت ولا الشجاعة للقيام بذلك. أردتُ الهرب بأسرع ما يمكن. بقي كل شيء فيها على حاله. لا شك أن فنجان نقيع الأعشاب الذي كنت أشربه عندما رن الأنترفون، لا يزال على منضدة العمل في المطبخ. لا شك أن الكاتالوغ الذي كنت أتصفحه لا يزال مفتوحاً بجانب الفنجان، وأن خِفي بنجامان ينتظران في المدخل.

كل ما كنت أتمناه عند خروجي من المستشفى، هو الهرب بعيداً عن الصيف، عن أشعته الحارقة وحشوده المبتهجة على ضفاف الرون. كنتُ أفضل لو أنهما توفيا شتاءً، في مساءٍ غزير الأمطار، تحت سماء رمادية قاتمة، لا مع أصوات الفرق الموسيقية والمفرقات والضحكات، لا في أول أيام الصيف.

فتحتُ الباب حين غابت الشمس. تأكدت من غيابها بعد أن ألقيت نظرة إلى الخارج عدة مرات، عبر المصاريح المغلقة. أصبح النهار أطول وتأخر الوقت. ربما كانت العاشرة ليلاً. تلاشت آخر الخيوط الحمراء للشمس الغاربة، وذابت في الليل الوليد الأزرق-الرمادي. أنزلتُ أمتعتي من صندوق السيارة. كانت حقيبتني ذات العجلات تصدر جلبةً مكتومة فوق حصى الممر. بدا لي أن كل خطوة من خطواتي كان لها صدى مضخّم. تلك كانت أول مرة أسمع فيها صمتاً كثيفاً وثقيلاً بهذا الشكل. شعرت بأن الغابة امتصّنتني بالكامل.

وضعتُ الحقيبة أمام باب غرفتي، وعدت إلى السيارة. بقي فيها كيس بلاستيكي كبير، أثقل من الحقيبة. كيس من الضروريات. نحو خمسين علبة من الأطعمة المحفوظة، بعض الأرز والمعكرونة والحبوب من كافة الأنواع. لن أغادر هذا المكان عما قريب.

أود لو أنام. يبدو لي بأنني متعبة، لكن هذا أمر يصعب تأكيده نظراً لأن الأرق قلبَ ساعتَي البيولوجية رأساً على عقب. شعرتُ بشيء من البرد وانتابتنِي رعشة. وضعتُ بطانية فوق كتفي وقررت إخراج هاتفي النقال من حقيبة يدي. هناك رسالتان من أمي، إيميل من كاتب العدل بشأن الإجراءات الشكلية المتعلقة بالوصية، واتصال من آنا. تحققتُ من جودة الاستقبال - ليست رديئة - وقررت الاتصال بـ آنا. إنها الوحيدة التي لا أزال أتحمل صوتها، لأنها أمه. لأنها تشاركني ألمي أكثر من أي شخص آخر.

كنت أخشى ألا تجيب، فلا بد أن الوقت متأخر بالنسبة لها، لكنها فتحت الخط بعد رُنتين.

«أماندا، كنت بانتظار اتصالك»

«انشغلتُ بترتيب أغراضي.»

كذبتُ واستشفّت ذلك، لكنها لم تعلّق.

«هل وصلتِ بعد الظهر؟»

«نعم»

«كيف هو المنزل؟»

«سأبقى فيه. لقد وقعتُ على الأوراق.»

هذه المرة أيضاً لم تعلّق بشيء على قرار جنوني اتخذته خلال بضعة أيام لا أكثر. ما كانت أمي بالذات لتوفّر عليّ تعليقاتها.

«هل تشعرين بالارتياح فيه؟» سألت ببساطة.

لا، لا أشعر بالارتياح فيه. لا أشعر بالارتياح في أي مكان. كل ما في الأمر أن هذا المكان قد يكون أقل سوءاً من غيره، لذلك قبلتُ به.

«هل ذهبتِ إلى الشقة؟» سألتها بعد ذلك.

«ليس بعد»

كانت تخشى مثلي من دخولها، هذا ما لمستُه منها، وكنت أفهمها، لأن القصة حديثة العهد.

«سأذهب مع ريشار»

«هذا أفضل»

ساد صمت ولم أعد أعرف ماذا أقول، وهي كذلك. في النهاية كانت هي التي استأنفت الكلام:

«هل تريدني أن أنظفها وأرتبها بانتظار عودتك؟»

«لا جدوى من ذلك»

«حقاً؟»

«لا أظن بأنني سأعود إليها.»

سمعتها تنتهد.

«هل تريدني عرضها للإيجار ... بانتظار ذلك؟»

بقيت مقتنعة بأنني سأعود عاجلاً أو آجلاً إلى المكان الذي كان بيتنا. لكنني كنت أعلم بأنني لن أستطيع العيش فيه ثانية أبداً.

«هذا سيجبُك خسارة المال كل شهر... بما أنك تدفعين الآن أجرة المنزل في أوفيرن أيضاً»

«نعم، معك حق... يمكن القيام بهذا.»

أثق بـ آنا. إنها تعرف كيف تحافظ على عقلانيتها وعلى وضوح ذهنها رغم الألم.

«أستطيع تولي الأمر هذا الأسبوع»

«اتفقنا»

«سيذهب ريشار إلى كاتب العدل يوم الأربعاء. لن يكون هناك

حاجة لحضورك»

«شكراً»

كنت أكبح ذلك النسيج الخافت الذي يهدد بالانفلات من جوفي. كانا هي وريشار شديدي المראהة والتفهم. لا أريد أن أبكي الآن.

«إذا شعرتِ بوطأة الوقت... بوطأة الوحدة...»

«أعرف، يا آنا»

«اتصلي بنا...»

«لن أتردد»

«لا تجعللي الحزن يطفئ عليك.»

لم أعرف بماذا أجيب. كانت كلماتها تشبه تحذيراً قليلاً. ابتلعتُ لعابي وأجبتُ بالشيء الوحيد الذي استطعته:

«أظن بأنني سأحاول النوم قليلاً»

«معك حق، ارتاحي. سنعود إلى التواصل قريباً، اتفقنا؟»

«حسناً»

نمتُ بعض الوقت بين منتصف الليل والثانية صباحاً، ثم عادت تلك اليقظة المفردة من جديد. كان ذهني يأبى أن يتوقف عن النشاط، أن يقطع الاتصال لبضع ساعات، أن يمنحني تلك الراحة التي أحتاج إليها. هذا هو حالي منذ ثمانية عشر يوماً.

رحت أتجول في المنزل، أرتب علب الأطعمة المحفوظة في خزائن الحائط، ما منعني من التفكير كثيراً. لاحظتُ على جدار غرفة المعيشة تقويماناً قديماً، لم يُزلْه أحد - ولا حتى ابنة السيدة هيوغ - عن الجدار منذ وفاة الأم. فيه شروحات على مر الأيام. نزعتُ عن الجدار. لا أحتاج هنا إلى ما يشير إلى الزمن الذي يمر. لم أعد الآن بحاجة إلى ذلك. لذلك دفعْتُ بكرسي قرب الجدار المقابل الذي علقتُ عليه ساعة حائط تمثل باقة وردية من الزهور، وتشير إلى الثانية والنصف صباحاً. ماتت صاحبة المكان ولم تمت بطارية الساعة، ولا تزال عقاربها تدور ببطء وتخبرني على نحو يكاد يستفزني، بأن الزمن لا زال يمضي، وأن الحياة لم تتوقف. هذا غير صحيح، الحياة قد توقفت. لذا نزعتُ الساعة وألقيت بها أرضاً. لم أشأ أن أحطمها أو أن أظهر أي عنف خاص، لكن ميناءها انفجر والتوت عقاربها. استقر أحد العقارب أسفل منصدة العمل، في مكان لن يستطيع أحد إخراجه منه. لم يعد هناك مواقيت ولا تواريخ. من الآن وصاعداً لم يبقَ سوى: عما قريب، أو في وقت لاحق. لا نهارات، ولا ليالٍ كذلك الأمر. هناك فقط أنا في هذا البيت الصامت، وحزني. توالى ثلاث شمس منذ أن أغلقتُ باب المنزل على أمتعتي المتمثلة في حقيبة وكيس فقط. رحى أراقب تلك الشمس التي تنير الحياة في الخارج، عبر مصاريع النوافذ المغلقة. بين شفرات المصراع الخشبية، هناك فراغ طفيف يمكنني بالكاد من مراقبة الصيف. لم أخطر بالخروج، ولا حتى في الليل. لم أشعر بالحاجة إلى ذلك. نمْتُ بضع ساعات، مرة أو اثنتين كما أظن. لم أرَ كوابيس، وهو أمر جيد. أظن بأن دماغي بات أشد إنهاكاً من أن يعيد إنتاج الصور الفظيعة لجسد بنجامان، المشوّه.

عندما دوت طرقات في المنزل، مع الشمس الرابعة، اعتراني الخوف أول الأمر. شيء أحمق. أنا هنا في حصن آمن. مع ذلك خفتُ. هل خفتُ من فتح الباب؟ أم من ملاقة الضوء لوجهي؟ أم من أن أجد نفسي أمام شخصٍ ما؟ لا أدري. دوت الطرقات مجدداً، ولم يكن هناك مفر من النهوض والتقدم ببطء في هذه الردهة الطويلة التي تبدو لي بلا نهاية.

«من هناك؟»

لم أفتح. بقيتُ ملتصقة بلوح الباب الخشبي، بانتظار جواب.

«نهارك سعيد، هنا شركة فيرنت. قيل لنا بأن المنزل أصبح مسكوناً.

«ألا تريدان أن تفتحي لنا؟»

لستُ أدري. شعرتُ فجأةً بغصةٍ في حلقي، تشبه القلق.

«سيدتي؟» كررَ.

عندها فتحتُ، ولا أعلم لماذا. كانت مواجهة الضوء عنيفة، واحتاج الأمر مني أن أغمض عيني لثوانٍ لكي تعتادا على إضاءة مماثلة.

«عذراً على إزعاجك، أنا فني مبيعات لصالح شركة فيرنت. نقدم عرضاً يقوم على ربط منازل المنطقة بالإنترنت بباقة حجمها 10 ميغابايت. أخبرني السيد الذي يعمل في الوكالة العقارية، في القرية المجاورة، بأنك انتقلتِ لتوكِ إلى هنا.»

تلاشى الوميض ولمحتُ قامة الرجل. إنه أول زائر لي منذ أن تحصّنتُ بهذا المكان. كان رجلاً قصيراً ممتلئ الجسم.

«هل أستطيع الدخول بضع لحظات لمناقشة العرض؟»

كانت سيارته في الفناء، وهي شاحنة صغيرة بيضاء عليها حروف حمراء تشير إلى اسم شركته. تابع نظرتي وأضاف وقد رسم على شفتيه نصف ابتسامة:

«ليس في الأمر غشٌّ يا سيدتي، هذه شاحنة الشركة. لقد أوصلتُ الأنترنت إلى جيرانك، على بعد ثمانمائة متر إلى الأسفل. سوف يؤكدون لك ذلك. بل سيقولون لك بأنهم مسرورون بذلك، وأن الشبكة تعمل بشكل جيد... أعني قياساً إلى المكان»

أثناء كلامه، وضع قدماً فوق العتبة. ظنَّ بأنني لم ألاحظ ذلك. حطت يده فوق إطار الباب، بات مستعداً لوضع يده على المكان. عندها هزرت رأسي.

«لا، لستُ مهتمة»

نظر إليّ لحظة بتمعن، وهو يقطب حاجبيه. أجهل ما الذي كان يراه. لكنه كان بلا شك يرى قامة شابة شديدة الشحوب، شعرها أشقر، متسخ ودهني، وجسدها يطفو في ملابس باتت واسعة جداً عليها. لم أتخيل بأننا قد نخسر كل هذه الكيلوغرامات في اثنين وعشرين يوماً.

«ربما لديك أنترنت على جوالك، قال في محاولة أخرى «نحن نعرض حزمًا تشمل بيانات الموبايل والمودم»

«لا، هذا لا يثير اهتمامي»

وجّه نظره إلى سطح المنزل.

«أليس لديك لاقط للتلفزيون؟»

بدا متفاجئاً.

«لا»

«إذا لم تقومي بتثبيت الأنترنت، لن تتمكني أبداً من مشاهدة التلفزيون يا سيدتي»

لقد بدأ يستفز أعصابي، هو - والشمس التي جعلها تدخل إلى منزلي.

«هذا لا يثير اهتمامي»

تراجعت قدمه نحو حصى الفناء. فهم بأنه خسر.
«يجب على الأقل أن تبقي على اطلاع على أخبار العالم!»
رحت أحرق إليه دون أن يرف لي جفن.
«أي عالم؟»

هذه المرة أصيب بالارتباك. وجه لي إشارة بذقنه وعاد إلى شاحنته قبل أن ينصرف دون أن يطلب المزيد.

في وقت لاحق، بينما راحت هذه الشمس الرابعة تغيب، ويحتاج البرد المنزل في موجة بطيئة، التقطت أذني اليوم للمرة الثانية، صوتاً ولكنه مختلف. صوت بعيد أكثر ومكتوم أكثر. صوت مفرقة تنفجر. سرعان ما تلتها انفجارات أخرى واضحة، تفصل بينها ثوان معدودة. خفت أن أحزر. بقيت متسمة أمام زبديتي التي تطفو فيها نودلز مرطبة. كان بمقدوري أن أذهب إلى النافذة، وأسترق النظر من بين شفرات المصراع، لأتحقق بنفسي من صدق إحساسي. إلا أن جسدي بقي بلا حراك. آثرت أن أعد الأيام. أربع شمس، اثنان وعشرون يوماً منذ الـ 21 يونيو. نحن في يوم 13 يوليو. في القرية، إلى الأسفل أكثر، أو ربما أبعد من ذلك، في القرى المجاورة، ثمة أشخاص يحتفلون بالعيد الوطني. تجمعت عائلاتهم في الحدائق، على جوانب الطرقات، وأمام البلدية، يرفعون رؤوسهم للتمتع بمشاهدة الألعاب النارية متعددة الألوان. نحن في 13 يوليو، واليوم أتممت الثلاثين عاماً من عمري. قبل وقت قصير، قصير جداً، كان عمري لا يزال تسعة وعشرين. كنت أتشارك العيش مع بنجامان. كنا نخطط لترك الشقة المكونة من حجرتين في ضواحي ليون، والسكن في منزل في الريف. ولكن الشيء الأهم هو أنني كنت قد دخلت في الشهر الثامن من الحمل، وكنت أستعد لأصبح أما. كان يفترض أن نسميها مانون.

في غضون أيام معدودة، قررت الانتقال إلى لا مكان. كنت بحاجة للفرار من الصيف، بحاجة للهدوء كي أفكر، كي أفكر بهما. فقد كان ذلك مستحيلاً هناك، لم يتركوا لي دقيقة واحدة في المستشفى، وأنا خَمَنْتُ السبب دون أن يفصحوا عنه أبداً. كانوا يخشون أن أقوم بفتح شراييني. وهناك ذلك الطبيب النفسي الذي كان يصر على دفعي للكلام، دون نجاح كبير. كنت في حالة صدمة، عاجزة عن إدراك حقيقة تحوُّل عالمي في الواقع إلى شظايا. بعد خروجي من المستشفى، أخذتني آنا إلى بيتهم، وسكنتُ في غرفة الأصدقاء، الغرفة التي كان يشغلها بنجامان عندما كان حياً. لم أعترض، فلم تكن لي قدرة على ذلك. كان يان شقيق بنجامان، يمضي ليلاليه هناك بانتظام، أحياناً بصحبة كاسندرا وأحياناً بدونها. كانت آنا تصر أن نتناول الطعام جميعنا معاً، حتى لو لم يكن لدى أي منا رغبة بالكلام. يجب أن يساند بعضنا بعضاً، كما كانت تقول. أربعة في حين كنت أراه ضيقاً للغاية... كما أن البيت كان شديد الإضاءة. وفي حديقة الجيران كان هناك أطفال يصرخون ويخوضون معارك مائية. وفي بعض الأحيان كانت تتسلل إلى حجرة الطعام روائح شواء تليها ضحكات وقرقرة شوك وسكاكين، وكؤوس يُقرع أحدها بالآخر، وتظاهر آنا بأنها لا تسمع شيئاً، ولا تشم شيئاً. أما أنا فلم أكن أستطيع تحمل ذلك.

ثم إن والدتي من جزيرة ريونيون، المكان الذي قررت الاستقرار فيه عندما بلغت السن الذي يؤهلني للاستقلال بنفسي والعيش بمفردي. كان ذلك على ما يبدو هو حلمها الذي لطالما راودها. وصلت إذن إلى البر الفرنسي، إلى بيت آنا وريشار، بعد عشرة أيام من الدفن. «آسفة. إنها أول رحلة أتيح لي مقعد فيها.»

لم أفهم لماذا دعته آنا للانضمام إلينا في بيتها. لا شك أنها تصورت بأنني أحتاج إلى دعم أمي في تلك الفترة الصعبة. لكنها كانت مخطئة. فأننا لم أسامح أمي أبداً على انتقاداتها لـ بنجامان. «ليس أكثر من صعلوك كسول»

لم أغفر لها أنها بقيت بعيدة جداً طوال فترة حملي. أعتقد بأن هناك أشياء كثيرة لم أغفرها لها أبداً، وقد جاء غيابها عن الدفن لتأكيد نقمتي بشكل نهائي.

«سأساعدك يا عزيزتي لكي تقفي على قدميك مجدداً.»

لا أعلم كيف احتملتُ اليومين الأولين. لا بد أنني كنتُ شاردة الذهن أكثر مما يجب. في اليوم الثالث عندما نصحتني بالعودة إلى العمل دون إبطاء، لكي «أسعيد زمام حياتي ولا أستسلم للغرق»، طلبتُ منها المغادرة. ثم تولت آنا المهمة بدلاً مني عندما عبرت أمي عن استنكارها. سألني ممتنةً لها على الدوام لأنها جنبتني تلك الشدة الإضافية. في اليوم التالي، عادت أمي إلى جزيرتها وبدأتُ أبحث في الإعلانات المبوبة على الأنترنت. كلماتي المفتاحية كانت /استئجار بيت في الريف. كانت أوفيرن من بين نتائج بحثي الأولى. لم أفكر كثيراً. كان عليّ أن أمضي بشكل عاجل. وفي أول عرض زيارة للبيت الذي وجدته، وضبتُ حقيبة كيفما اتفق، وانطلقت.

لم يكن لدى بنجامان شيء من الصعلكة والكسل الذي تصورتُه أُمي. لا شك أن جدائل أيام شبابه تركت أثرها في شعره البني ومنحته طابعاً مميزاً كنتُ أحبه. حين عرفته كان يعمل في بيت للشباب والثقافة في قلب ليون. كان يرتدي بنطلونات جينز واسعة، ويضع في أذنه قرطاً، وكان من الأشخاص المنفتحين الذين يتواصلون بسهولة مع الناس، الأمر الذي جعله مرتاحاً دوماً بين الجمهور، أياً كان الأشخاص الذين يتواجد معهم. لم يكن مدّعياً أو كثير الكلام، وكان من شأن ذلك أن ينفّرني. كان حراً، يتصرف بارتياح، ومنسجماً مع نفسه، فقط. كما أنه كان عطوفاً مُراعياً. في بيت الشباب والثقافة كان يعمل مربياً متخصصاً، أسماء الأولاد بنجي. كان نقيضي بالضبط وبقي كذلك دوماً. كان أسمر البشرة طويل القامة وأنا شقراء وضئيلة القامة. كان ودوداً ومنفتحاً وأنا متحفظة وحذرة. كنتُ أعمل لصالح بلدية ليون الثامنة وكان لدينا مشروع تنظيم وجبة شعبية مجانية في مكان ضخم، بالتعاون مع منظمات مختلفة: تجمع السكان المحليين، نادي المتقاعدين، شبيبة بيت الشباب والثقافة. أخذتُ إذن موعداً مع مدير بيت الشباب والثقافة في المنطقة الإدارية الثامنة لعرض مشروعي، ووقع الاختيار على بنجامان من أجل تمثيله. في ذلك اليوم فعل كل شيء لكي يُشعّرني بالراحة، أنا التي لم أدخل أبداً إلى بيت الشباب من قبل. بدا مبتسماً، وقدم لي قهوة رفضتها ثلاث مرات أول الأمر، وبعد انتهاء اجتماعنا عرض علي حضور تدريبات موسيقية لطلابه في الغرفة المجاورة. لم يكن يحاول إغوائي، بل يحاول فقط أن يشعّرني بالارتياح، أنا الفتاة الشقراء الضئيلة الحجم، العصبية، التي ترتدي فستاناً. بقيتُ حذرة، مقتصرةً على مشروع الحساء الشعبي، مستجيبةً لابتساماته بابتسامة

محرجة. كنتُ من النوع الحذر البعيد عن التعامل مع أشخاص مثل بنجامان. لم يكن ببساطة ينتمي إلى عالمي.

احتاج الأمر إلى شهر كامل من الاجتماعات حول هذا المشروع لكي يتمكن بنجامان من تجاوز الحواجز وترسيخ علاقة رفاقية بيننا. وفي موعد تقديم العشاء الشعبي مساءً، بين روائح الخضروات المسلوقة، وأثناء بث أغنية روك أند رول تعود لفترة الستينيات، من مكبرات الصوت، لا أدري بأية معجزة تمكن من سحبي إلى خلف العمود الرئيسي. كنا قد شربنا بضع كؤوس من البيرة، وكان الجواحتفالياً. لم أقاوم عندما حاول أن يقبّلني. لقد عثرتُ في ذلك المساء على نصفي المفقود. قرأت منذ بضع سنين، في حياتي السابقة، مقالاً يقول بأن الحداد قد اختفى بمرور الزمن، وتبيّن بأن العواقب كانت سيئة على الأفراد. كان الناس في السابق يعلنون الحداد أسابيع، وحتى شهور. وللتعبير عن الألم كانت النساء يرتدين الملابس السوداء، ويغطين وجوههن بوشاح طويل من الكريب الأسود، ويمنع عليهن ارتداء أية حلية سوى تلك المصنوعة من الخشب المسود. كان الرجال يشبّون شريطاً من الكريب حول قبعاتهم أو عصبة سوداء حول أذرعهم. كان الناس يوقفون كل أنشطتهم ويجتمع أفراد العائلات. كان هناك وقت لعلاج الألم، لاستعادة الذكريات، للقيام بالوداع بصورة صحيحة. أما اليوم، فما أن ينتهي الدفن حتى يتعين استئناف الحياة اليومية: العمل، الفواتير التي يجب دفعها... لم يعد لدى المجتمع وقت للحداد.

أنا غير قادرة على ذلك، لهذا السبب ابتعدتُ إلى أوفيرن. احتاج إلى وقت.

حاولت أُمي الاتصال بي مجدداً عدة مرات. تركتُ المجيب الآلي يتلقى المكالمات مدركةً بأنني لن أعود إليها. لا بد أنها تريد أن تعرف إذا ما عدتُ إلى العمل. ليس لديها سبب آخر للاتصال بي. عرض عليّ مجلس البلدية إجازة غير مدفوعة، قبل أن يتاح لي وقت للتفكير بذلك. لا شك أن العرض قُدم لي خوفاً من الانقطاعات المتكررة الناجمة عن الإجازات المرضية التي يبدو أنها تنتشر بكثرة في المجتمع. قبلتُ بالإجازة بلا راتب، فلستُ بحاجة للنقود حالياً.

من شدة الأرق، بالكاد كنت قادرة على الوقوف، وكنت أمضي معظم نهاري مستلقية في غرفة النوم، ملتفةً بالأغطية، أحرق إلى السقف بعينين مُحَرِّقَتَيْن. أحتاج أن أنام وأن تدعني كوابيسي وشأني. لاحظت في السقف بقعة رطوية، ناجمة حتماً عن تسرب في العليّة. تركتُ البقعة تكبر لتشغل كل مساحة الرؤية أمامي، وتصبح ضبابية. غفوتُ دون أن أنتبه لنفسي.

كان الإحساس لطيفاً عند استيقاظي. شعرت بأنني نمت بعمق، أكثر من ثلاث ساعات. ربما أربع. ليست لدي أدنى فكرة، فساعة الحائط محطمة، وهاتفِي المحمول يبقى في قعر حقيبة يدي باستمرار. نزعتُ عني أغطية السرير وعبرتُ الردهة إلى نهايتها حيث توجد حجرة الطعام. هناك انحنيت لكي أدقق من خلال الفسحة الضيقة المتاحة من بين شفرتي الأباجور. الظلام مخيم، إنه الليل. لاحظتُ فوق ذلك بأنها تمطر، وأن هناك غيوماً داكنة كبيرة تحجب السماء، وليس هناك نجمة واحدة في الأفق. ترددتُ متسمة أمام هذين المصراعين المغلقين. خطرت لي فكرة جنونية... دقيقة أو اثنتان لا أكثر، وخرجتُ تحت المطر ببيجامة النوم، التي لم أخلعها منذ عدة شمس. ربما سبع، ليس لدي أية فكرة.

كان المطر خفيفاً بالكاد بلَّل شعري ولم يتمكن من تبليل قماش بيجامتي القطني. تشبّع الهواء برائحة التراب كما يحدث دوماً عندما تمطر. رائحة دبال عضوي قوية. كانت قدماي تدوسان العشب الزلق بخجل. لم أستطع منع نفسي من التفكير بـ بنجامان الراقِد تحت التراب في تابوته الخشبي الفاتح. هل هو في مأمن بداخله؟ أنا من اختارت التابوت. كنت في المستشفى. في ليلة 21 يونيو تلك، فتحو لي بطني على عجل، ولم تكن الندبة جميلة. خاف الأطباء من أن ألتقط عدوى، ولم أتمكن من الخروج إلا لفترة وجيزة لحضور الدفن، مع عدم السماح بأن أبقى واقفة. كان التابوت جميلاً. لقد اختارت أنا خشباً فاتح اللون، أنيقاً ومطلياً.

بخصوص المولودة، لم يُترك لي الخيار. يبدو أنها لم تكن مكتملة التكوين بعد. لكنها بالنسبة لي، بدت طفلة حقيقية، حية تماماً، ومن شأنها أن تبكي وترضع. لكنها لم تكن تتنفس. كان قلبها متوقفاً منذ وقت أطول مما يجب. أوضحوا لي أنه في حالة الجنين الذي يولد ميتاً، كان حرق الجثمان هو المتبع دوماً. تم إحراقها في اليوم نفسه، لكن رمادها لم يوضع في حديقة الذكريات إلا بعد ثلاثة أيام، في الوقت نفسه الذي دُفن فيه جسد بنجامان في تابوت. فيما يخصها، ليس عليّ أن أقلق عليها من المطر على الأقل.

لم أكن أعلم حقاً إلى أين أذهب، لكنني رحت أتقدم. كان الليل الملبد بالغيوم بلا نجوم وبلا قمر، لا يسمح لي بتمييز حدود البيت. كان كل شيء مظلماً، وكنت على الأكثر أُميز غابات التوب المحيطة به. لذا ركزتُ على الروائح. رائحة التراب، المطر، الراتنج وإبر الصنوبر. لم يسبق أن اعتدتُ على روائح الطبيعة. بعكس بنجامان الذي نشأ في

منطقة جورا، وانتقل أبواه إلى ضواحي ليون وهو في الثامنة عشرة من عمره. لقد حافظ دوماً على حبه للطبيعة والهواء الطلق. عندما اكتشف أنني حامل، لم يكن هناك بالنسبة له أي مجال للبقاء في المدينة. أراد أن نعطي أنفسنا مهلة سنة بعد الولادة، على أقصى تقدير، لترك وظيفتي والانتقال إلى الريف، أين؟ لم نكن قد قررنا بعد. كان يراجع الإعلانات المبوبة، ويريني بعض الصور. لم أشاركه حماسه أبداً ولم أحسن التظاهر، لكن ذلك لم يشبط عزيمته. «سوف ترين عندما نصبح هناك...» خطر لي بأنه ربما يكون على حق. كان أمامي كل شيء لأكتشفه، أنا التي نشأت في قلب ليون، واعتبرتُ حديقة قيت دور بمثابة حديقة وطنية تقريباً. كانت أمي تحب المدينة حتى بلوغها الخمسين على أية حال. ورغم أنها لم يكن لديها زوج ولا أسرة حقيقية، نجحت في تكوين صداقات جديدة بانتظام، وكانت تذهب مساءً لتناول كأس، وأنشأت حياة اجتماعية خارج العمل. ثم دخلتُ إلى الجامعة، وبدأتُ أمضي أغلب وقتي في الحرم الجامعي، وبما أنها اعتبرت أن باستطاعتي من الآن وصاعداً، تدبر أموري بنفسي، قررتُ أن تطلق العنان لحلمها الذي طالما راودها، وتذهب للعيش في الجزر. كنت أستطيع تدبر أموري بنفسني دون أن أرغب بذلك بالضرورة، ليس على الفور.

لطالما أحببتُ المدينة مع أمي أو بدونها، أحببت صخبها المتواصل، الإحساس بأنك لست وحيداً أبداً، وأنت محاط دوماً بالناس، وفي حالة حركة.

رغم ذلك، ها أنا هذا المساء أمشي تحت المطر في هذه القرية النائية في أوفيرن، وسط غابات الصنوبر. ما كان بنجامان ليختار منزلاً كهذا،

لكنني متأكدة بأنه كان سيعشق الإطار الذي يتواجد فيه، وسط روائح الراتنج والتراب الندي، ولدي إحساس بأنني أحيي مشروعه.

كنت أقوم بتنظيف المنزل في الليل والنهار. لم يكن المنزل وسخاً ولا تعم فيه الفوضى، لكنني كنت بحاجة لإشغال نفسي على الدوام. فالأرق الذي أعاني منه يجعل الوقت طويلاً إلى ما لا نهاية، وأحتاج إلى ملته، وإلا فإن أفكاري ستعيدني دوماً إلى مساء يوم 21 يونيو، وإلى جسد بنجامان الذي فارق الحياة، والمولودة المغطاة بالدم. أخشى من هذه الصور إلى درجة تخدير نفسي بالتعب فلا أعود أفكر فيها. قمت بفرك منضدة العمل حتى تأكلت الإسفنجة، رتبْتُ المأكولات المعلبة حسب الحروف الأبجدية. هليون، لحم بقر بالبندورة، بروكولي، كرفس، لحم بالفلفل الحار، كوسا بالكريما، سبانخ، مأكولات بحرية، راتاتوي⁽¹⁾. أخذت تتناقص كل يوم، لكنني لم أكن مستعدة بعد لمواجهة الخارج. رحت أتنبع الغبار على المصابيح ذات العواكس الداكنة، وأجري تفتيشاً حقيقياً لكل خزانة حائط. هنا توجد جريدة محلية قديمة. هناك دليل مصفّر مثبت بمغناطيس، لأرقام الطوارئ. في خزانة الصالون هناك كتابان لـ إميل زولا وخارطة للطرق السريعة. نسيت ابنة السيدة هيوغ بعض التفاصيل أثناء ترتيبها. كدستُ كل هذه الأشياء التي ليست لي، في كيس قمامة كبير وقررتُ حمله يوماً ما إلى العلية، عندما أشعر بأنني أقل ضعفاً.

(1) أسماء هذه الأطعمة باللغة العربية لا تتوافق طبعاً مع ترتيب الحروف الأبجدية كما تتوافق بالفرنسية، الباهيا هي طبق إسباني من الأرز مع أنواع من ثمار البحر واللحوم. الراتاتوي هي طبق فرنسي من خضار مطهوة بالزيت.

في اللحظة الأخيرة تذكرت التقويم الذي عمره ثلاث سنين، والذي انتزعته عن الجدار في ذلك اليوم. كان مرمياً على الطاولة. كنت أستعد لإلقائه داخل الكيس البلاستيكي الكبير مع الأشياء الأخرى الشاهدة على حياة السيدة هيوغ، عندما تمكنتُ من قراءة الحواشي التي تركتها السيدة العجوز هيوغ. سقاية نباتات الفاصولياء. تغطية نباتات الخيار. كنس منصة الدرج. غسل زجاج النوافذ. معظمها مبتذلة لكن بعضها أكثر ابتكاراً: شرب المزيد أو هذه الحاشية الاستفهامية: لُفافات الشعر؟ لم ألحق التقويم بكيس القمامة، بل بقي معي في المطبخ. ولا سبب لذلك سوى هذه الكتابة الرشيقة التي راق لي فك رموزها.

قبل مغادرة منزل ريشار وآنا، وعدتُهما بالألا أرتكب أية حماقة وأن أتصل بهما بانتظام. لم أفِ بوعدي الثاني. لم ألاحظ أن هاتفي المحمول ضامت منذ بضعة شمس، وقد فرغت بطاريته من الشحن.

«آنا، هذه أنا.»

أمر غريب كم نشعر أحياناً بدقي من المشاعر ونحن أمام صمت. صمتُ آنا في الطرف الآخر، بدا لي معبراً عن الارتياح. ارتياح هائل. استأنفت:

«أماندا، كنتُ في حالة من القلق»

«بطارية هاتفي كانت فارغة.»

صمتٌ جديد. أظن بأن آنا كانت تبحث عن كلماتها، ولا تعرف من أين تبدأ.

«أنهينا تسوية الأوراق الأخيرة مع كاتب العدل. سوف تصلك إلى هناك. لقد أعطيتُ عنوانك، لأنني لم أكن... لم أعلم إذا كنت أستطيع أن...»

«نعم. هذا حل ممتاز، سيكون الأمر أسهل على هذا النحو»
«ستحتاجين إلى تفقد صندوق بريدك»
«حسناً.»

انتظرت أنا بضع ثوان، وأحسستُ بأنها تتوقع مني أن أقول شيئاً، لكنني لم أفكر حتى بأن أسأل عما حل بالشقة. هي التي أتت على الموضوع.

«ذهب ريشار بصحبة يان لإفراغ الشقة»
«أه»

«ذهبا إلى هناك في نهاية الأسبوع الفائت. أردت مرافقتهما ثم...»
تنهدتُ. لم يكن عليها مواصلة الكلام لكي أفهم.
«لقد وجد زوجين يريدان استئجارها منك، تابعتُ على عجل. اعتباراً من شهر سبتمبر. هل يبدو لك الأمر مناسباً؟»
«طبعاً»

«وضعا أغراض الشقة في قبو البيت. طلبتُ منهما أن يحزماها داخل مشمعات. لا أريد أن تتعرض للرطوبة. يمكنك استعادتها لاحقاً.»
لم أجب بشيء، ولم أعرف ما الذي يمكنني قوله.
«أماندا، أريد استشارتك بخصوص أغراض الغرفة الصفراء...»
هذه المرة توقفتُ عن التنفس. بالكاد كنت أسمع صوت أنا مستمرّاً في السماع:

«اعتقد ريشار بأنك ربما تودين بيعها أو التخلص منها، لكنني فضلت أن أكلّمك أولاً بهذا الشأن. لدينا متسع في القبو... يمكننا تخزينها فيه، لا مشكلة في ذلك.»

لبثتُ غير قادرة على حسم أمري وأنا واقفة في المطبخ ببيجامتي القديمة التي بدأت تفوح منها رائحة عفنة. فتحت فمي ثم أغلقتُه دون أن أقول شيئاً.

«أماندا؟»

«نعم»

«هل تريدین مهلة للتفكير في الأمر؟»

«نعم»

حدقت باتجاه إحدى النوافذ دون أن أراها، بانتظار أن تتلاشى دقائق القلب الفجائية التي تسبب لي الصداغ.

«أماندا؟»

«نعم.»

لم أكن أستمع حقاً، كانت كلمات «نعم» تخرج من فمي دون وعي، مثل نفس، مثل استجابة تلقائية.

«مضت الآن ثلاثة أسابيع...»

«ثلاثة أسابيع؟»

«منذ بدء إقامتك هناك. هل أنت واثقة من أنك...»

ترددتُ. لم تشأ أن تسبب لي الضيق، وليس لديها أية فكرة عن حالتي المعنوية الحالية، وعن الطريقة التي أتعامل بها مع الأشياء.

«ألا تريدین العودة قليلاً؟»

نبرة جوابي لم تترك أي مجال للشك:

«ليس الآن»

«حسناً. إذا فكرت يوماً...»

«أعرف يا آنا. شكراً...»

شعرتُ بالارتياح أنها لم تسأل إذا ما كنت أنام أو أكل، لأنني كنت سأضطر للكذب عليها حتماً.

الغرفة الصفراء، كانت فكرتي، طريقة للخروج عن النمط التقليدي الزهري أو الأزرق البعيد عن الابتكار. كان بنجامان يحلم بأن تنجب فتاة، وأنا أحلم بصبي. لكن فرحتي عند الإعلان عن جنس الجنين، كانت تعادل فرحته. أراد أن يغادر المدينة لكي يجعلها تكبر في بيئة ريفية. أردتُ أن نتزوج لكي أحمل اسم عائلته، لكي نكون أسرة حقيقية. تزوجنا في البلدية على وجه السرعة. تواجداً هناك أنا، وقد بدأ بطني بالتكوير، وهو، مع شاهدينا يان وكاستندرا، فقط.

كنت قد طليتُ الغرفة باللون الأصفر، وبدأ بنجامان بتركيب السرير الصغير وطاولة تغيير الحفاضات. كان أثاث الغرفة من خشب أبيض جميل. ألصقتُ على الجدار أعلى السرير صورة تمثل صوصاً يخرج من بيضته. كنا قد اشترينا الأغطية مع مجموعة من ثياب داخلية وبيجامات ملونة.

كان يفترض أن نسميها مانون. مانون لوزان. راهناً بأنها ستكون شقراء الشعر بعينين عسليتين مثل عيني بنجامان. كان يفترض أن تولد في 20 أغسطس. توفيت في 22 يونيو الساعة الخامسة وثمان وخمسين دقيقة.

سيكون هناك دوماً أحد ما يتذكر بنجامان، ويشهد بكرمه وإثاره
وحبه لمهنته، للشباب، لبيت الشباب والثقافة ولعائلته. سيكون هناك
من يتذكر ابتسامته وشعره البني الفوضوي أيضاً، وقِرْطَ أذنه الذي سخر
الجميع منه.

أما هي، فالأمر مختلف معـها. فهي لم توجد بالنسبة لهم أبداً.
لم يروها، لم يشعروا بها، لم يلمسوها. كان يجب أن تكون ولكنها
لم تكن. الأمر بهذه البساطة. أنا الوحيدة التي تعلم بأنهم مخطئون.
أنا الوحيدة التي تعلم بأنها كانت موجودة، موجودة حقاً، خارج تلك
الثواني المعدودة التي جرى خلالها انتزاع جسدها الميت من جسدي
في المستشفى. كان من شأن بنجامان أن يعلم ذلك أيضاً. كانت موجودة
في رأسينا، في قلبينا، قبل ظهورها كجسد. لكن بنجامان لم يعد هنا، ولم
يعد هناك من يتذكرها غيري.

لا أعتقد بأنني أريد التخلص من أشياء الغرفة الصفراء. ليس في
الحال.

سوف يتعين عليّ الخروج من مخبأي، فقد نفدت كل المعلبات الغذائية. آخر كيس أرز لدي بالكاد يحتوي على مقدار يكفيني نصف نهار. صحيح أنني لا أكل كثيراً، ولكنني أكل، وإلا لما وجدتُ القوة للنهوض من سريري. كان الأرق يدمر كل شيء. ظننت بأن شدة الإنهاك ستجعلني في النهاية أنهارُ وأناام. لكنني كنت على خطأ. هناك شيء عالق في دماغي، شيء يمنعني من النوم لفترة طويلة. حالة قصوى من الصحو. هل هي غريزة الحياة؟

مع ذلك لا بد لي هذا الصباح أن أستفيد من البقية الباقية من قواي لكي أغتسل وأرتدي ثيابي وأمشي وصولاً إلى السيارة.

لقد خططت لأدنى التفاصيل. أعلم أن أول سوبر ماركت يبعد اثني عشرة كيلومتراً. قمت بإعداد لائحة دقيقة لكي أحصر الوقت الذي سأمضيه تحت الأضواء القاسية بين كل هؤلاء الأشخاص، في حدّه الأدنى. وقت الخروج أيضاً لم أحده بصورة عشوائية: فهو وقت الازدحام الأقل في المحلات التجارية وحركة المرور الأقل على الطرقات. ما أريده هو العودة إلى ظلامي في أسرع وقت ممكن.

ساعة ودقيقتان، هو الوقت الذي لزممني للخلاص من هذا العبء. لم يكن هناك شيء يذكر في خروجي الأول هذا منذ شمس عديدة. فقط دراجة نارية على الطريق، لكن شرودي كان أقوى من أن أشعر بالاضطراب. في المطبخ، وبعيداً عن بقية العالم، قمتُ بترتيب

مشترياتي وفق تاريخ انتهاء صلاحيتها، وهو أفضل من ترتيبها وفق الحروف الأبجدية، كما أنه خصوصاً يأخذ مني مزيداً من الوقت ومن التركيز. لم أكن أستطيع التفكير.

رتبت آخر كيس خبز من النوع الطري، وتهاويت في سريري. أحسست بأنني سأنام أخيراً. أغمضت عيني ومددت يدي إلى جانبي جسدي، وتركت الخدر يسري في مؤخرة عنقي. كنتُ هادئة وعلى قناعة بأنني هذه المرة سوف أنام. في تلك اللحظة استعدتُ صورة الدراجة النارية التي صادفتُها قبل قليل. دراجة رياضية مثل دراجة بنجامان، لكنها سوداء وخضراء. أما دراجته فقد كانت سوداء بالكامل.

على عكس زوجات الدراجين من أصدقاء بنجامان، لم أكن أتوتر أبداً من فكرة ركوبه دراجة نارية. ليس هذا لأنني من طبيعة واثقة ومتفائلة، بل ببساطة لأن بنجامان كان شخصاً حذراً. بالطبع كان يحب السرعة، ويحب الإحساس بهتزاز المحرك تحته، وميلان جسده في المنعطفات، لكنه كان يدرك الخطر الكامن في كل مكان. كنت أعرف بأنه عقلاني، ولم أشعر أبداً بخوف من الركوب خلفه رغم أنني شخص يخاف بلا قيد أو شرط.

لم أشعر أبداً بقلق فوق الحد من عودته متأخراً. لم أتخيل أبداً أنه سيموت أثناء قيادة الدراجة.

نمت بضع ساعات. ذهبْتُ عند حلول الليل باتجاه صندوق البريد. خيل لي بأنني لمحتُ ظلاً يتزلق بين نباتات الغابة في الجانب الآخر من الشارع. كنت شبه متأكدة من أن الأمر يتعلق بقطعة شاردة.

فتحتُ بلا استعجال وأنا جالسة إلى طاولة المطبخ، رسالة كاتب العدل البريدية، بخصوص تقرير الاجتماع. بوصفي زوجة بنجامان، ينصّ العرف أن أرث رأسمال التأمين على حياته، ومقداراً معيناً من الأصول. لم نكن أنا وبنجامان ميسوري الحال، لكن كلاً منا وضع جانباً بعض المال. سوف تمكّني التركة التي يشير إليها كاتب العدل دون أي لبس، من أن أعيش في عزلة لفترة من الوقت. أزحتُ الرسالة التي لم تطلعني على أي شيء غير متوقع، وسحبتُ نحوي تقويم السيدة هيوغ، القديم، الذي لم أتخلص منه.

بدأتُ بتصفح أوراق شهر أبريل، الذي جرى تقديمه بصورة باقة ورود صفراء فوق طاولة حديقة، من الخشب الخام. بعض أوراق التقويم تحتوي على ملاحظات. 2 أبريل: إعادة غرس نباتات الخس. 6 أبريل: توزيع نباتات الثوم المعمر. 10 أبريل: أعمال بستانة. 13 أبريل: نشر بذار البقدونس. 18 أبريل: فطيرة مربى فراولة؟ 20 أبريل: زراعة الأضاليا. 22 أبريل: إقامة صالون الحديقة تحت شجرة بول. 30 أبريل: تغيير حوض الدفلى.

أعدتُ قراءة عبارة: إقامة صالون الحديقة تحت شجرة بول. تساءلتُ عمن يكون بول، وأي شجرة هي شجرته. حتى اللحظة لم أستطع رؤية خارج المنزل إلا في الليل. لم أتمكن حقاً من رؤية أشجار. تلاشى فضولي عند ذلك الحد، ولم يكن لدي شعلة تكفي للحفاظ على جذوته، لقد عاد الإنهاك ليطفو على السطح.

من بين شفرات مصراع النافذة، رحت أراقب الشمس التي ترتفع ببطء فوق قمم الأشجار في التلال المحيطة. لم أنم منذ شمس عديدة. تركت تقويم السيدة هيوغ وتجولت في المنزل ملتفةً بعددٍ أخذ يتزايد من الأغطية نظراً لشعوري المتزايد بالبرد. كنت أزداد هزلاً وكأنني أتلاشى رويداً رويداً.

بحشت في ماضي عن لحظات سعيدة. لكن كل ما تمكنت من فعله هو إبعاد صور ليلة 21 يونيو، بقدر متزايد من الصعوبة، ويقدر متناقص من الطاقة. وماذا لو توقفت عن المقاومة... ماذا لو تركت الصور تتدفق؟ في وقت لاحق - هل كان شمساً أخرى؟ لم أعد أعرف - اتصلت أنا. استجبت بصورة آلية.

«أماندا، هل تريدان المجيء يوم الأحد إلى البيت؟»

لم أكن أعلم في أي يوم نحن. أجبت بـ لا، وبأنني يجب أن أرتاح لأن نومي قليل جداً. أخبرتني أنها تستطيع، مع ريشار أو بدونه، أن تُحضر لي حبوباً منومة، إذا كنت بحاجة إليها أو لأي شيء آخر. لا أدري. هذا ما أجبته به.

«أستطيع أن آتي إليك يوم الأحد...» كررت.

عندها سمعت نفسي أجيبها بأنني موافقة على يوم الأحد، على أن يكون ذلك في المساء وليس أثناء النهار. لا أريد إدخال الشمس إلى منزلي.

سمحت لي فرصة إعداد عشاء لـ آنا وريشار، بأن يكون أمامي هدف جديد. لم أكن قادرة على الخروج لشراء أطعمة طازجة، لكنني استطعت الاستعانة بما لدي من معلبات غذائية ومنتجات ألبان غير منتهية الصلاحية لطهو ما يشبه طبق طعام. وبواسطة علبة الخضار المحفوظة

مطهيةً بالزيت، وكيس اللحوم المحفوظة بآلية التفريغ من الهواء، وعلبة معكرونة، تمكنتُ من إعداد طبق غراتان محسَّن قليلاً. زينتُه ببقية من جبن غرويير مبروش، بعد إزالة ما اخضرَّ منه بسبب العفن.

أرغمتُ نفسي على أخذ قسط من الراحة. وحتى لو لم يأتي النوم، بقيت مستلقية ساعات طويلة، خاصةً بين شمسين، مقتنعةً بأنني سأستعيد على هذا النحو بعض الطاقة.

كان يجب أن أنظر في هاتفي المحمول لأعرف تاريخ اليوم ومتى يأتي يوم الأحد. سيوافق 17 أغسطس، أي خلال ثلاث شمس. اقتربت نهاية الصيف.

في ذلك اليوم اضطررتُ أن أفتح النوافذ. لا أريدهما أن يعرفا بأنني أعيش في عتمة دائمة. انتظرتُ اللحظة الأخيرة لكي أقوم بذلك. بدت لي غرفة المعيشة مختلفة في الإضاءة الطبيعية لآخر النهار. بدت أكثر ترحيباً، وأقل برودة.

وضعتُ على الطاولة أدوات الطعام وإبريق ماء، وأطفأت الفرن، لا بد أن الغراتان قد نضج. غمرت رائحته المكان. في وعاء خاص أفرغتُ سلطة فواكه معلبة، نثرتُ فوقها بعض السكر الأبيض. لم أكن واثقة من النتيجة. وضعتها في الثلاجة، لأجل التحلية.

أخفيتُ بعيداً عن أنظارهما أغطيتي المصفرة، التي أمضي النهار ملتفةً فيها. رششتُ دفقةً من مزبل الروائح في الردهة والحمام، وغرفة المعيشة. حاولت أن أرتدي ملابس لائقة. بنطال أسود، وبلوزة وردية خفيفة. عقصتُ شعري الأشقر الذي فقد ألقه، إلى الأعلى، ثم جلست أرقب صوت محرك سيارة تقترب.

في وقت لاحق سمعت صوت المحرك، ثم صوت صرير الحصى تحت العجلات. ثم صوت اصطفاق بايين.

فتحت الباب شاعرةً بالارتياح لأن الليل قد حل. لقد بدأ النهار يقصر.

بدت عليهما السعادة لرؤيتي عند العتبة ببلوزتي الوردية. لا بد أن هيثتي لم تكن سيئة جداً. هما أيضاً بذلا جهداً لكي يظهرأ بهيئة حيوية. ارتدت أنا فستاناً رمادياً داكناً، وكان ريشار يرتدي برمودا أزرق غامق. «الطقس بارد هنا» هتفت وهي تعانقني.

«سأعير ستره لكل منكما»

عانقني ريشار بدوره. إنه طويل وأسمر وعيناه عسلتان مثل بنجامان. تبين لي أن الطقس بارد حقاً، فأنا لم أخرج منذ رسالة كاتب العدل، وكان لا بد لي أن ألاحظ بأن درجات الحرارة قد انخفضت.

«ما كان يجب أن تُحضِرا شيئاً. تفضلاً بالدخول...»

قدما لي باقة من الورد الشامي، وردية فاتحة، وبنفسجية، وحمراء قانية. فكرتُ بأن هذا بالنسبة لمنزلي، قدرٌ أكبر مما يجب من الألوان، لم أصبح بعد جاهزة لوجودها أمام عيني. سوف أضطر لإلقائها بعيداً غداً. لكنني في الوقت الحالي، سعيدة برؤية آنا وريشار في منزلي، بالقرب مني. لم يعلّقا على الديكور الداخلي العتيق ذي الطراز البائد. اكتفيا عند دخولهما غرفة المعيشة، بأن أعلننا:

«تفوح رائحة زكية للغاية»

لم يطلب أي منهما القيام بجولة في المنزل أو في الحديقة. ربما لم تصبح شعلة الحياة لديهما أيضاً، بالقوة الكافية لإثارة أي شكل من

أشكال الفضول بداخلهما. وضعت آنا باقة الورد على الطاولة بجانب الإبريق، وسألت عن التواليت.

بقي ريشار بجانبني في المطبخ، وتنحنح وهو يمد لي يده بمظروف بلاستيكي مزين بصليب أخضر.

«ما هذا...»

فهمتُ بأنها حبوب منومة.

«آنا تتناول منها»، أوضح ريشار.

شكرته، ووضعتُ المظروف في خزانة الحائط أعلى الحوض. لم أسأله عن شيء، لكنه أوضح:

«إنها تخضع للعلاج على يد طبيب نفسي.»

هزرت رأسي متخيلةً بأنني أبتسم له، دون ثقةً بأنني نجحتُ في ذلك. أشار إلى بطني. تحت البلوزة الوردية الفاتحة، لم يعد هناك أثر لذلك الوجود السابق. لقد ذاب بطني ولم يبق إلا الجلد المجعد المترهل، الذي يكافح لكي ينكمش. الجلد والندبة البشعة.

«لم يعد هناك التهابات؟»

«لا، لا شيء.»

كنت أتجنب النظر إلى الندبة، إلا أنني أراها كل يوم. اختفى الاحمرار المثير للقلق الذي ينزّ صديداً أصفر. أصبح لونها زهرياً وأقل بروزاً. سوف تتلاشى يوماً لكنها ستبقى مرئية دوماً وأنا حريصة على ذلك.

عادت آنا إلى المطبخ لتتوقف تلك المحادثة الهامسة.

«لديكِ متسع جيد...»

هذا كل ما أوحى لها به المنظرُ البائس لمنزلي، وتفهمتها.

عند جلوسنا إلى المائدة كنا عاجزين عن الكلام عن شيء آخر. قبرُ بنجامان، رسائل العزاء ومظاهر التعاطف الأخرى التي تلقتها آنا وريشار. نبتة الدبلادينيا التي ذهبا لوضعها فوق شاهدة القبر. أظن أنه كان مفيداً لهما أن يتواجدا معي، فقط معي، وألا يضطرا للتظاهر، وأن يستطيعا الكلام فقط عن موته، ولا شيء سوى ذلك.

«حضر إلينا رجال الشرطة منذ أسبوعين، لكي يعرفوا إذا كنا سنقدم شكوى ضد مجهول بسبب المفرقات»

نظرا إليّ يتحريان ردة فعلي. أرادا رأيي. هزرت كتفي.

«لا أدري... ما الفائدة...»

أومأت آنا برأسها.

«هذا ما قلته لرجال الشرطة، ولكننا أردنا معرفة رأيك.»

شرحا لي بأن خبراً نُشر في الصحيفة، حول منع استخدام المفرقات على أطراف الطرقات، ما لم يتم مسبقاً إيقاف حركة المرور.

عاد الصمت ليخيم، واغتنمت الفرصة لإخلاء الطاولة وتقديم سلطة الفواكه في آنية صغيرة من الفخار.

«لدينا يا أماندا، خبر آخر نعلنه لك.»

توقفتُ ويدي المغرقة معلقة فوق وعاء السلطة. تكلمت آنا وقد اغرورقت عيناها بالدمع. لم تعرف كيف تواصل، فتولى ريشار المهمة بصوته الهادئ:

«كان يفترض أن نخبرنا يان بالأمر في حفل الشواء العائلي ليوم الرابع عشر من يوليو... لكنه، بسبب الحادث وكل ما جرى، أجل الإعلان عن ذلك.»

احتاج هو أيضاً للحظة لكي يتابع الكلام. ورحتُ أنتظر.

«لم نشأ أن نخفي الأمر عنك، لكننا كنا نعلم بأن إخبارك بذلك سيكون صعباً. لم نرغب بالقيام بذلك عبر الهاتف...»
وضعت آنا يداً فوق ذراعه لإيقافه، تريد الإعلان بنفسها عن التهمة.
«كان يفترض أن تولدا بفارق شهور معدودة. هذا ما أرادته كاسندرا ويان...»

أخذت يداي ترتجفان. لم أكن واثقة من أنني أفهم. توقفتُ عن التنفس.
«إنهما ينتظران مولوداً. بنت. ستولد في يناير.»

كانت سلطة الفواكه بالفعل شديدة الحلاوة، وتكاد تكون غير قابلة للأكل. لكن أحداً لم يهتم للأمر. رغبتُ هذا المساء بالموت. إنها المرة الأولى التي يكون فيها الأمر بهذا الوضوح في ذهني. أنا أحب يان، النسخة المطابقة لـ بنجامان، ولكن أصغر منه، وأحب كاسندرا، صراحتها وتلقائيتها. ولطالما اعتبرتهما أكثر من مجرد نسيب وزوجته. كان يمكن أن يكونا عرابي مانون. لكنني، هذا المساء، كنت أرغب فقط بالموت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

اطمأنت أنا وريشار قبل مغادرتهما لي في ساعة متأخرة بعد منتصف الليل، والعودة باتجاه ليون، من أنني لن أنهار. تهاويت في سريري أخيراً، تاركةً سيل الصور يتدفق على هواه، دون أن أقاوم، أو أحاول إيقافه.

كان أول يوم من صيف هذه السنة، هو يوم جمعة. وفي يوم الجمعة ينتهي عملي في البلدية دائماً في الثالثة بعد الظهر. كنت قد عدت إلى الشقة بوسائل النقل العامة، ثم قررت القيام ببعض أعمال التنظيف بانتظار عودة بنجامان. كان الطقس حاراً، لكن الحمل لم يؤثر على حيويتي. كان حملي مثالياً، كما علّق طبيبي النسائي. كنت أعمل بدوام كامل، وأذهب إلى المسبح مرتين في الأسبوع، وإلى السوق كل أحد، وننام أيضاً بانتظام. كان لدي أمل كبير بتأجيل إجازة أمومي قدر ما أستطيع، فأتتمكن بهذا من الاستمتاع بمزيد من الوقت مع طفلي عند ولادتها.

عاد بنجامان بعد الخامسة بقليل. كانت الموسيقى قد بدأت تدوي في الشوارع المحيطة، لفرق موسيقية تختبر آلاتها، وترتجل مقطوعات تدريبية.

«هل ترغبين بالقيام بجولة؟» سألني.

كان هناك فرق تؤدي عروضها: عرض للروك في الساحة، والجاز في مقهى، جوقة قرب المحطة، والعديد من الغيتارات والأكورديونات في كل مكان تقريباً. كنت قد وافقت. نعم، أردت أن أقوم بجولة مع

بنجامان، أن أشعر بيده فوق خصري، أن أجلس في مقهى، وأشرب عصير ليمون، وأهز قدمي على وقع الموسيقى، وأرى بطني ممتداً تحت ثوبي، وأتخيل طفلي تغفو على ههددة كل تلك الأصوات.

«يمكننا حتى أن نتناول الطعام في الخارج»، أضاف.

كان المشهد جميلاً، مع عيد الموسيقى الذي يعلن بداية الصيف. لم يبق لي سوى شهر أخير من العمل. بعد ذلك كان يفترض أن نذهب بضعة أيام إلى إقليم لاند، لفترة ليست طويلة، لأننا نريد أن نبقي قريبين لأجل مولد مانون. كانت التهمة تبشر بأن تكون بالسهولة نفسها، لأن غرفة نومها جاهزة، وكذلك ثيابها. تابعنا بانتظام دروس التحضير ليوم الولادة. لم يتغيب بنجامان عن أي درس. لم يكن هناك ما يثير قلقي، ولا حتى الألم.

«سأخذ حماماً، ثم نذهب في جولة. اتفقنا؟»

نزع قميصه استعداداً لدخول الحمام عندما رن هاتفه المحمول. كان المتصل أحد فتية بيت الشباب والثقافة. فهمت ذلك حين سمعت عبارة «هذا أنا يا بنجي...». كان الأمر يتعلق بخزانة آلات موسيقية، ومفتاح يجري البحث عنه في درج مكتب الاستقبال، والتحقق من أن كل شيء في مكانه. استمرت المحادثة وقتاً قصيراً، وكان بنجامان قد سكب لنفسه كأس ماء بانتظار أن يتحقق الشبان في طرف الخط، من شيء ما. انتهى الأمر بأن تنهّد وأعلن بأنه ذاهب إليهم.

«ما الذي يحدث؟» سألته وأنا أراه يعيد ارتداء قميصه.

«فتية نادي الموسيقى»

«ماذا بهم؟»

«قام ميكاً بوضع النوتات والآلات في قاعة الموسيقى داخل الخزانة الضخمة التي تغلق بالمفتاح. لكنهم لا يعثرون على المفتاح»
«أنت ذاهب إليهم إذن؟»

«لدي نسخة من المفتاح. سأفتح لهم وأعود..»
تبعته إلى المدخل، ثم استندتُ بظهري إلى إطار الباب. سألته:
«هل ستأخذ السيارة؟»

«لا. مع عيد الموسيقى الذي يجري الإعداد له، والطرق المغلقة، من الأفضل أن آخذ الدراجة النارية. هكذا أسرع»
«حسناً»

قبلني بسرعة وكرر لي بأنه سيعود في أقل من ساعة.
كنت قد أخذت حماماً بارداً وارتديت فستاناً صيفياً أبيض، وضفرتُ شعري، ثم أعددت لنفسي شاي التوت البري، المفضل لدي، وتركته يبرد أثناء تصفُّح كتالوغ المولود وشركاه. على صفحات ورقه اللامع صور لألعاب خاصة بالأطفال حديثي الولادة حتى عمر ثلاثة شهور. خشخيشات متنوعة، حلقات تسنين... جميعها ملونة، صفراء، حمراء، زرقاء... مصابيح سرير تُصدر أصواتاً، ألعاب ضوئية. تحققتُ من الوقت، ليتبين لي بأن بنجامان كان متفائلاً جداً، فقد مضى على مغادرته ساعة وعشر دقائق. شربتُ بضعة جرعات من شاي التوت وانتقلتُ إلى فصل الأحذية في الكتالوغ. رأيتُ صنادل وردية وجوارب رائعة على شكل رأس زرافة. في وقت لاحق، بعد الذهاب إلى المرحاض ومراقبة الشارع الذي أخذ يمتلئ بالناس والموسيقى، باشرتُ بتصفُّح قسم «ملابس السباحة الخاصة بالصغار جداً» وأنا أتساءل إذا كنت سأستطيع أخذ مانون إلى المسبح ضمن مجموعة السباحين الرضع. أصبح شاي الأعشاب

الآن بارداً، وبدأت معدتي تستيقظ. ما الذي يفعله بنجامان؟ دوى رنين الأنترفون وجعلني أنتفض. سارعت للضغط على الزر دون أن أرفع السماعه، لقناعتي بأنه بنجامان. فهو كثيراً ما ينسى شارة الدخول. فتحت الباب على وسعه مصغيةً إلى صوت الخطوات. لاحظتُ، دون أن أتوقف عند الأمر، صوت خطوات لشخصين على السلالم، لا لشخص واحد. ثم ظهرا لي. شرطيان باللباس الرسمي. وقف أحدهما بنظرته الهاربة، إلى الوراء قليلاً، وتكلم الآخر بصوت دمث.

«السيدة لوزان؟»

«نعم.»

فكرتُ هل فعلتُ شيئاً خاطئاً؟ هل نسيتُ تسديد إحدى الغرامات؟ «نهارك سعيد، نحن المفتشان دومون وفلوريل، من قيادة شرطة الحي. نحن هنا بخصوص زوجك بنجامان لوزان. هل يمكننا الدخول لبضع لحظات؟»

فكرتُ بفتية بيت الشباب والثقافة. وقد تكون مسألة تتعلق بالمخدرات. أو ربما شجار؟ هل تم توقيف بنجامان؟ هل هو محتجز لدى الشرطة؟ ابتعدتُ عن الباب، وسألاني أين الصالون. كنت أشعر بالحرَج بفستاني الصيفي الأبيض أمام رجلين بلباس رسمي.

«هل يمكننا الجلوس؟»

كان الشرطي ذو الصوت الدمث يشير إلى الكنبه، وأجبت:

«بالطبع.»

كان قد قال لي:

«أنت أيضاً سيدة لوزان، اجلسي أرجوك.»

لم أكن أشعر بالارتياح، لكنني جلست مقابلهما وأنا أشد فستاني لكي يغطي ركبتي. كان الشرطي ذو النظرة الهاربة يحدق إلى بطني ويهرب من عيني، أكثر من هروبه منهما في المدخل. لم يدورا كثيراً حول الموضوع.

«حسناً يا سيدة لوزان، نحن هنا لننقل لك خبراً سيئاً»

تريثاً قليلاً. علمتُ لاحقاً بأن هذا يعد جزءاً من الإجراءات، لأنه يجعل المقربين يتهيئون نفسياً، فيتوقعون الأسوأ. أنا كنت لا أزال عند حكاية الشجار في بيت الشباب والثقافة، أو الحبس الاحتياطي. لم تخطر لي البقية إطلاقاً.

«وقع زوجك ضحية حادث مرور، عند الساعة السادسة وعشر دقائق هذا المساء، في شارع جان مرموز. جرى التحقق من وفاته عند وصول النجدة في الساعة السادسة وثمانية عشرة دقيقة. لم يتمكن المسعفون على الأرض من فعل شيء لإنعاشه. إننا آسفون حقاً.»

لا أتذكر بوضوح اللحظات التي تلت. أظن بأنني لبثت في حالة صدمة وأنني أخذت أرتجف. أتذكر الشرطي ذا النظرة الهاربة يحمل إلي كأس ماء، ويضع وسادة خلف ظهري. أتذكر بأنني رحت أكرر تلك الجملة، وأنا في حالة ذهول شديد إلى درجة أنني لم أدرك بأنهما يقولان الحقيقة:

«كان ذاهباً إلى بيت الشباب كان ذاهباً مسافة الطريق فقط...»

ثم سيعود.

حاولا الكلام فوق جُملي المتقطعة، دون جلافة، دون قسر. أرادا أن يفهماني بأنه مات، بأنه لن يعود. شيء لا يُعقل، لقد كان هنا منذ أقل من ساعتين، وبأحسن حال. كان يفترض أن نتناول العشاء في المدينة، أن نستمع إلى الموسيقى. قالوا:

«أفهم صدمتك، يا سيدتي»

وأشياء أخرى... مثل أن بنجامان كان يقود دراجته في شارع جان مرموز، الشارع العريض المؤدي إلى الطريق السريع وإلى المتحلق، والذي لا يقتصر على خمسين بل ثمانين كيلومتراً في الساعة. قالاً بأن مجموعات من الشباب كانوا يتهيئون للتوجه إلى وسط ليون لأجل عيد الموسيقى، وأنهم كانوا يتجادلون ويتسلون بإطلاق مفرقات بين أرجل بعضهم بعضاً، على جانبي الطريق. على الأرجح أن بنجامان لم يَرهم بسبب خوذة الرأس، ثم إنه كان يحدق إلى الإشارة الضوئية التي تحولت إلى اللون الأخضر، وبما أن الطريق انفتح أمامه، فقد زاد من سرعته، استعداداً لاندفاع صغيرة ومنطقية تماماً في هذا الجزء من الطريق.

«على الأرجح أنهم لم يتعمدوا استهداف عجلته الأمامية يا

سيدتي...»

إلا أن المفرقة انفجرت هناك، عند العجلة الأمامية لدراجته، دون سابق إنذار.

«يروى الشهود بأنه انحرف إلى اليمين بشدة تحت وقع المباغة. كان يقود بسرعة تزيد عن سبعين كيلومتراً في الساعة، فقدت الدراجة استقرارها وانقلبت. لم تتمكن شاحنة تسليم البضائع القادمة من الاتجاه المعاكس، من التوقف.»

في ذلك اليوم، في صالوني حيث جلس شرطيان يحاولان إبلاغي بتلك القصة غير القابلة للتصديق، لم أستفهم عن شيء، إلا أنهما قالاً لي مع ذلك:

«سُحقت الدراجة تحت العجلات. لم يتألم. مات على الفور»

أتذكر الصمت الذي تلا كلماته. رجلاً شرطة يحدقان إلى وجهي.
ربما كنت شديدة الشحوب، لكنني واصلتُ هزّ رأسي.
«مسافة الطريق فقط...»

كانت الكلمات نفسها تخرج من فمي. مسافة الطريق فقط لم
تحدث الأمور بهذه السرعة... لا يموت الإنسان بهذه السرعة. الأمور لا
تجري على هذا النحو. لقد كان هنا قبل قليل، كان سيعود خلال ساعة،
لا أكثر. كان يفترض أن يعود للعشاء. لم يُتَح لي وقت إلا لأخذ حمام
سريع، وتناول شاي أعشاب، وتصفح مجلة، ويريدون أن أصدق بأنه
مات في تلك اللحظات القليلة؟ يريدون أن أصدق بأن مفرقة انفجرت
أمام دراجته، وأن بنجامان انحرف إلى اليسار، وأن الدراجة انقلبت به،
وأن شاحنة هرسته، وأن المسعفين وصلوا وفحصوا بنجامان وأعلنوا
وفاته، وأبلغوا رجلي الشرطة المتواجدين الآن في صالوني؟ هل أرادوا
مني أن أصدق بأن عالمي قد انهار لتوه خلال أقل من ساعتين، بينما لا
يزال النهار مشرقاً في الخارج، والفرق الموسيقية أخذت تعزف وشاي
أعشاب بالكاد برد؟

ساعدني الشرطيان على النهوض. لم أكن أعلم إلى أين نذهب. طلبا
مني أن آخذ سترة، وأوراق هويتي. في الخارج كانت الشمس تغيب مع
انعكاسات نحاسية جميلة، وزوجان يعبران الطريق وقد أمسك كل منهما
بيد الآخر. أجلساني في المقعد الخلفي للسيارة. لم أطرح هذا السؤال،
وقد ملأني الذهول، إلا عندما انطلقنا:

«إلى أين نذهب؟»

كان الشرطي ذو النظرة التائهة في المقعد الأمامي، هو من أجابني
وقد ثبت نظره على الطريق:

«نأخذك لكي تتعرفي على الجثة». سمعتُ نفسي أجيب بصوتٍ ضعيف:
«نعم، أريد رؤيته». لا زلتُ غير مصدّقة.

في المستشفى، أنزلوني إلى القبو. طابقان تحت الأرض. بدأت اللافئات التي كتب عليها «مشرحة» تترسخ في ذهني الذي يرفض القبول. عاد الارتعاش ليجتاح جسدي كله. شعرت برغبة بالتقيؤ، وبألم في البطن. وكدت أتعثّر مراراً. طلب إلينا الانتظار في حجرة بيضاء. وصلت سيدة. لا أتذكر وجهها ولا صوتها على الإطلاق. أتذكر فقط بعضاً من كلماتها، من نظراتها القاتمة. آثار جانبية شديدة. جسد مشوه. مشهد شاق.

«لا داع لأن تذهبي وتتعرفي على جثته، سيدة لوزان. لقد تم إبلاغ عائلة زوجك. سيصلون بين دقيقة وأخرى. يمكنهم التكفل بذلك.» وجّهت لي تحذيراً، لكنني كررتُ بأنني أريد رؤيته، ويجب أن أراه. بدأ ذهني يستوعب. لقد مات. وكنت أرفض ذلك. يكفي أن أراه، أن أكلمه لكي أبدو سوء التفاهم الهائل هذا.
«سيدة لوزان، سيكون أكثر حكمةً في حالتك، أن تتركي هذه المهمة لأهل زوجك...»

لم أسمعها. كررتُ طلبي بقدر أكبر من العنف:
«أريد أن أراه!»
إذا لم أراه، لن أصدّقهم أبداً.

لا أتذكر الديكور إطلاقاً، ولا تخطيط المشرحة، أو وجود جثث أخرى. لم أر سوى خوذة القيادة ملقاة على الأرض، وسترة راكبي الدراجات، معلقة. قدمان تبرزان من تحت ملءة. أدركتُ بأنه هو. لقد كان له إصبع قدم أطول بكثير من الأصابع الأخرى.

«سيدة لوزان، إذا كنت تشعرين بضعف...»

لم ألاحظ بأنني أتشبث بالطاولة التي يرقد فوقها بنجامان. كل ما لاحظته هو سلة بجانب الطاولة، سلة بيضاء فيها ملابس مقطعة كيفما اتفق. قميصه الأبيض وينطاله الجينز، الملطخان بالدم. فردة واحدة من حذائه الرياضي. سواره البني، الذي أحضره من البرازيل، وخاتم الزواج.

«سيدة لوزان؟ هل تريدان الجلوس؟»

راحت ثلاثة أزواج من العيون تحديق إلي. هزرت رأسي بعناد. رفضتُ رؤية الدم على الملابس، فقمْتُ بحذف ذلك المنظر من ذهني، وركزت على السوار. لدي سوار مماثل، حول كاحلي. السوار، السوار البرازيلي، نفسه... قامت يدٌ برفع الملءة البيضاء، ثم توقفتُ، نظرت العيون إلي متفحصةً. ابتسمتُ. إنه أمر غير متوقع أبداً، لكنني ابتسمت لتشجيعهم على الاستمرار، وكشف جثة بنيامين أمامي، كي يتوقفوا عن إخفائها عني، وكيلا يعيدوني إلى غرفة الانتظار الصغيرة دون رؤيتها بأم عيني. ابتسمت في النهاية لأنني فقدتُ صوابي تماماً.

فهمتُ متأخرة جداً بأنني لن أستطيع الرجوع إلى الورا من جديد أبداً، وأن هذه الصورة ما أن تترسخ في ذهني، حتى تكون هي الصورة التي سوف تطاردني ليلاً ونهاراً، وليس صورة بنجامان لحظة أعلنتُ له أنني حامل، أو صورته في لحظات الإقبال علي. لا، بل صورة بنجامان بجسدٍ مشوه مغطى بالدم، وعينين جاحظتين.

حمداً لله أن وجهه كان سليماً وقد حمته الخوذة. هناك تهتكات بنفسجية على عنقه، ربما بسبب رباط الخوذة وهي تنخلع بعنف عن رأسه على أثر الاصطدام. كان أحد ذراعيه يستقر في وضعية غريبة، وغير طبيعية من الناحية التشريحية، كما لو أن زاوية الانثناء قد انعكست. القليل الذي أستطيع رؤيته من الجذع، كان محطماً، والأضلاع غائرة، ملتوية. لا أعلم ما إذا بقي فيه عضو واحد سليم. قامت سيدة، الطبيبة الشرعية، بإعداد لائحة. لم تفتح جسده بعد، ستفعل ذلك الليلة، لكن الإصابات الخارجية ولون الجلد في بعض الأماكن، جعلها تُكوّن فكرة عما حدث. الطحال منفجر. الكبد مسحوق. الرئة اليمنى ربما تعرضت لثقب بسبب أحد الأضلاع.

تقيأت فوق الطاولة البيضاء، فوق جثة بنجامان. تلتفتني أيدٍ قبل أن أسقط مغشياً علي.

ما أيقظني بعد دقائق كان ألم الانقباض، وليس المحلول السكري الذي حُقن في عروقي أو القفايزات الباردة التي وضعت على جبهتي. ألم شديد خرج من أعماق أعماق أحشائي، ليقطع أنفاسي. كنت في الطابق الثالث من المستشفى، في قسم الطب النسائي، وتفصلني خمسة طوابق عن بنجامان.

بدا أن كل شيء يسير بشكل جيد، وأنهم يعتنون بي وبطفلي، وأن تلك الانقباضات التي أشعر بها ناجمة عن الضغط الكبير الذي تعرضت له، وسوف تخفّ حتماً، ولا يوجد ما أخشاه. الطفلة ليست جاهزة للخروج وأنا سأستريح وأحاول الاسترخاء.

«بنجامان...»

حطت يدي فوق جيني.

«سيصل أهل زوجك يا سيدة لوزان. حافظي على هدوئك، فكري بطفلتك.»

عاودني الألم. ألم مُمَضّ. لأنني أكافح لكي أصدق. بنجامان هنا، وفي الثانية التي تلت لم يعد هنا. عيد الموسيقى. العشاء في المدينة. عصير ليمون. المفرقة التي انفجرت. انحراف الدراجة عن مسارها. الشاحنة. الجسد الذي تشوّه. العينان الجاحظتان. رحت أتنفس بصعوبة. لا بد أن القريبين مني لاحظوا ذلك، لأن ثلاثة منهم تحلّقوا حولي طالبين مني أن أهدأ. رجل وامرأتان. قالوا لي بأنني لا يمكن أن ألد الآن، لأن رأس الطفل لا زال إلى الأعلى، لم يحن الوقت بعد.

«هل فهمتِ يا سيدة لوزان؟ لم يحن الوقت بعد. حاولي الاسترخاء، تنفسي بهدوء. سينقضي الألم وتعودين إلى بيتك، اتفقنا؟»

إلا أنهم تبادلوا نظرات قلق وهم يراجعون شاشة المراقبة. طالبتُ ببنجامان، أو آنا، أو ريشار، أو أي كان، فقد كنت أشعر بأن هناك شيئاً غير سويّ، وكنت بحاجة لوجودهم هنا.

كان المعالجون عاجزين عن تهدئتي. أصبح تنفسي متقطعاً. رفع الرجل صوته لكي أسمع:

«سأذهب لكي آتيك بهم، اتفقنا؟»

لكنه لم يعد. مضت الدقائق. حل الليل في الخارج. رحت أعدّ. ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة. ستة انقباضات. قيل لي بأنها ستتلاشى... لكن العكس هو الذي يحدث. انصرفت إحدى المرأتين لتعود بصحبة طبيب أكثر خبرة. حذق بدوره باستغراب إلى شاشة المراقبة، وعبس.

«كأن قلب الجنين يتباطأ...»

أحسست بهذه الكلمات الرهيبة تنغرز في جوفي مثل نصلٍ حاد.
حاولت الكلام ولم أستطع.

«الانقباضات؟»

«فجائية، عشوائية تماماً، لكنها متقاربة بشكل متزايد. الجسد غير
مستعد. رأس الطفل في الأعلى»

«وعنق الرحم؟»

«بالكاد إصبعان.»

أحسستُ من نبرة أصواتهم بأن الأمور لا تبشّر بالخير. ما كان يجب
أن أنخدع بذلك اليوم الأول من الصيف، بشمس، بخفته، بما يحمله
من وعودٍ بسعادة قادمة. لقد احتاج الأمر إلى أقل من ساعتين لكي ينهار
عالمي.

لم أعلم بأن أنا كانت في تلك اللحظة نفسها تتعرض في الطابق
الثاني تحت الأرض، لنوبة زعر، وأن ريشار والطبيبة الشرعية، يحاولان
تهديتها، وأن هذا هو سبب عدم تواجدهما هنا. رحت أنظر إلى باب
غرفتي، بعينين مضطربتين من الرعب، وأنتظر رؤيتهما قادمين.

أطلقت شاشة المراقبة رنيناً، حُجِبْتُ عن ناظري، بالوقوف بيني
وبينها. دخلوا في حالة تشاور عاجل. وكنت أراقبهم من قاع أعماق
حالات اليأس، عاجزةً عن الكلام. عندها أعلنوا لي بصوتهم الواثق
للغاية، بابتسامتهم المطمئنة، بأنهم سيحققوني بمحلول هرموني يحرض
على الولادة، وأني سألد هذه الليلة، ربما قبل طلوع الضوء، وأن طفلي
الصغيرة ستكون هنا قريباً.

بعد الحقنة، أصبح الألم أقوى من أن أستطيع العودة إلى وعيي. في هذه الدوامة المنفلتة من الزمن، ظهر لي فجأة وجه ريشار. عيان عسلتان تمسكتُ بهما. أعرفهما. لـ بنجامان نفس العينين. أخذت أبكي وأرتجف. أمسكَ بيدي. طلب مني أن أكون شجاعة، أن آخذ نفساً، وأستمع إلى إرشادات القابلة.

مثلثات حمراء ملتهبة تتراقص أمام عيني. هكذا يتبدى لي الألم الذي يهاجمني. ومن منتهى يأسِي، وأنا على حافة الإغماء، ناديتُ بنجامان، وأجابني ريشار مكرراً طلبه مني بأن أكون شجاعة. لكن هذا لم يهيئني له أيُّ من دروس الولادة التي تابعتها دوماً إلى جانبي. كان يُفترض أن يكون متواجداً هنا معي. كان يُفترض أن يمسكَ يدي ويمسح العرق عن جبيني. هذا المساء، هو ميت، وأنا لا أستطيع القيام بذلك، لا أستطيع أن ألد. أدركت ذلك متأخرة، متأخرة جداً، في وقت انضمت فيه ثلاث ممرضات إلى الدائرة حول سريري، والقلق على وجوههن.

«سيدتي، الطفل ليس في حالة جيدة. يجب أن تبذلي مجهوداً، أن تُسهلي نزوله. استرخي أولاً، خذي نفساً، اتفقنا؟ إذا لم تتمكني من ذلك سنضطر أن نلجأ للجراحة.»

كانت كلماتهن جوفاء لا تصل إلى وعيي الذي اهتزّ، ولا أستطيع مساعدتهن. لا أستطيع أن ألد. لا أستطيع بدون بنجامان.

أظن بأن ريشار همس بشيء ما في أذني. كان يبكي. دموعه غمرت خديه. اتسعت دائرة المتحلقين حولي، وفي الخارج بزغت خيوط الفجر الأولى، ما بدا لي بكل سذاجة غير مرجح أبداً. لقد فقدت إدراكي للزمن الذي يمر.

استقام ريشار، وضع أحد الأطباء يداً فوق كتفه وقاده بهدوء نحو باب الخروج. لا أعلم لماذا أخرجوه. رأيت الباب ينغلق وراءه بظهره المنحني، ثم جاءت حقنة التخدير الموضعي. لقد توقف قلب مانون.

تصرّفوا بأسرع ما يمكن لإخراجها من بطني. هذا ما أكدوه لي. لقد شقوا بطني كيفما اتفق، ولا ألومهم على ذلك. كان الأمر عاجلاً. لم أستطع أن أرى شيئاً عندما أخرجوها. فقد أحاطوا بها على عجل. كان هناك اضطراب حول سريري، حول جسدي المفتوح على الاحتضار. أعتقد بأنهم لبثوا دقائق طويلة يحاولون إنعاشها. هذا ما فهمته لاحقاً علي أية حال. كانت محاولات عديمة الفائدة، لأن جسدها لم يكن قد تشكل تماماً بعد. كانت بحاجة لشهرين إضافيين لكي تصبح قادرة على النضال، قادرة على مواجهة الخارج. ثم توقف قلبها لمدة دقيقة واثنين وخمسين ثانية، وهي مدة قاتلة بالنسبة لجنين خديج. وضعوها فوق صدري. سألوني إذا كنت أريد تسميتها. غطوها كما لو أنها ستشعر بالبرد. كان جسدها الضئيل مغطى بالدم ويسائل غريب أبيض اللون. لم يكن على رأسها شعر. بالنسبة للعينين، لم أستطع الحكم إذا كنت أنا وبنجامان قد فرنا بالرهان. كانتا مغمضتين.

في وقت لاحق، انضم إليّ ريشار وبقي بجانبني إلى أن أخذوا مني طفلي، صغیرتي مانون، التي ولدت ميتة يوم 22 يونيو في الخامسة صباحاً وثمان وخمسين دقيقة.

أيقظتني في ذلك اليوم ثلاث طرقات على الباب. منذ أن بدأت أتناول المنومات التي تركتها لي أنا، أصبحت أنام نوماً متواصلًا. نوم ثقيل، كيميائي، بلا أحلام. أستيقظ لوقت قصير يكفي لأخذ حمام، وطبق مسخن بفرن الميكروويف، ثم أعود لأغرق في ما يشبه الغيبوبة الاصطناعية.

لكن أحداً ما، هذا الصباح - هل هو الصباح؟ ليست لدي أدنى فكرة- يدق بابي، ووجدت صعوبة حقاً في طرد آثار المنوم ومغادرة سريري. توازني الهش جعلني أترنح في الردهة. وقبل أن أفتح باب المنزل، مررت بيدي في شعري لأسرحه، وفوق بيجامتي لتسويتها. صفعت وجهي شمسَ ألطف من المعتاد، وأغشت بصري للحظات. رأيت أمامي امرأة أربعينية بوجه لا يزال فتياً، سمراء، ينسدل شعرها فوق كتفها، وترتدي سترة طويلة وأنيقة.

«نهارك سعيد، أنا جوليا هيوغ، ابنة المالكة السابقة. السيد فاران، الوكيل العقاري، أعطاني رقم هاتفك لكن محاولات الاتصال بك لم تنجح.»

لا بد أن الارتباك كان واضحاً على وجهي، وكذلك الجهد الذي أبذله لفهم معنى كلماتها، فالمنومات تخيلني.

«كان هاتفي مقفلاً هذه الأيام الأخيرة...»

«لم أشأ أن أزعجك» قالت معذرةً وهي تتراجع خطوة إلى الوراء.

«لا، لا، لا بأس»

«المسألة هي أنني... محرّجة لأنني تركتُ لك كل هذه الفوضى في العلية... حتى الآن لم يكن هناك مستأجرون، لذلك كان الوضع مختلفاً ولم أسارع إلى إخلاء المكان من المتعلقات الشخصية الخاصة بوالدتي... لكنني أرى بأنك بالكاد استيقظت. أستطيع أن أترك لك ساعة أو اثنتين. سأكون في المقهى، في القرية إلى الأسفل، وأعود ظهراً، هل هذا يناسبك؟»

لم أجب بشيء، اكتفيت بإيماءة رأس ونظرتُ إليها وهي تعود إلى سيارتها الزرقاء، موديل توينغو.

جوليا هيوغ، ابنة السيدة هيوغ المالكة السابقة صاحبة التقويم. التي تعيش في الطرف الثاني من فرنسا. لكي أستيقظ، حاولت ترتيب الأمور في خانات دماغي، وتبسيطها. ساعتان، ستعود خلال ساعتين. يجب أن آخذ حماماً. يجب أن أصحو. أعاد لي الماء البارد بعض الطاقة. غسلت شعري بالشامبو. لم يحدث هذا منذ وقت طويل. ثم لففتُه بمنشفة، وجسدي برداء الحمام. في المطبخ، هاتفي المحمول ملقى على منضدة العمل. ربما تكون البطارية فارغة منذ أيام. وصلته بالشاحن ببطء، لكنني لم أشغله. لكل شيء وقته. يجب أولاً استعادة قليل من وضوح الذهن. صنعت لنفسني قهوة، واضعة الفيلتر فوق الحوض. كانت أطرافي ثقيلة. منذ كم شمس لم أصحو صحوّاً حقيقياً؟ تبخر السؤال، فقد اتجه ذهني إلى مكان آخر. أحتاج إلى فنجان. جميع الفناجين متسخة في قاع الحوض. نظفتُ أحدها بحركاتي الثقيلة والخرقاء.

بدأت القهوة تسيل الآن وأنا أهدق إلى النوافذ بمصاريعها المغلقة. الأمر غير وارد. سأزعم بأنني أعاني من نوبات شقيقة، وأنني أحتاج إلى العتمة. لم أكن مستعدة لفتحها.

كانت علبة المنوم فوق الطاولة، وقد استهلكتُ بعض حبوبها. عددتُ، كان هناك ثلاث شرائط في كل منها خمسة عشرة حبة. كان بمقدوري بسهولة أن أقتل نفسي بها. كان شريط واحدة منها يكفي لذلك. بدلاً من ذلك أنهكت نفسي ونمتُ أياماً وأياماً. لماذا لم أقتل نفسي؟

بقي السؤال بلا جواب عندما جلستُ في الركن شبة المعتم، أمام تقويم السيدة هيوغ. رحت أقرأ وأقرأ ما كتبه بحروفها الرشيقة.

شهر مايو. صورة غصن زنبق. 3 مايو: مشاهدة خسوف القمر. 10 مايو: إصلاح فساتيني الصيفية. 12 مايو: إصلاح مجثم الطيور. 18 مايو: عيد ميلاد جوليا. الاتصال وإرسال بطاقة. 20 مايو: نشر بنّار الجزر. 21 مايو: أصص جيرانيوم. 25 مايو: تجهيز العِقل.

أخذت لمبة المطبخ تومض ثم انطفأت. توقفت عن القراءة ولبثتُ أهدق إلى الغبار العالق بشعاع الضوء الشحيح المتسلل عبر شفرتين من مصراع النافذة.

سمعت لاحقاً طرقات خجولة على الباب.

قبل أن أذهب لكي أفتح، دفعتني فكرة قوية لإخفاء التقويم في درج السكاكين. لا أدري السبب. التقطتُ كيس القمامة الأسود الذي يضم المتعلقات الأخرى الخاصة بالسيدة هيوغ، والمتروك في زاوية من غرفة المعيشة. تستطيع جوليا أن تحمله وتمضي.

ها قد عادت، بثيابها الأنيقة نفسها، بهيئتها المحرّجة نفسها، لكن منظر ثيابي النظيفة - بنطال من قماش بيج وبلوزة بيضاء - وشعري المغسول، غير قليلاً على ما يبدو من نظرتها إلي.

«سامحيني على إيقاظك قبل قليل» كررت على سبيل التقديم.

«لا عليك»

«المسألة هي أنني لن أبقى في المنطقة سوى أيام معدودة ولا

أستطيع التأجيل»

«لا مشكلة، أؤكد لك.»

ابتسمت لي بلطف.

«ستستطيعين استخدام العلية على هواك.»

لم أجب بشيء. ليس لدي ما أخزنه في الأعلى. بالكاد تملأ أغراضي الشخصية الخزائن الموجودة تحت تصرفي. بحركة من يدي دعوتها للدخول. مشت في الردهة مثل غريبة، كأنها ليست في بيتها.

«أحتاج إلى ساعة لا أكثر» أضافت أيضاً.

«هل أستطيع مساعدتك؟»

سألتُ بتهذيب لكي تكف عن الاعتذار لتواجدها هنا، ولكي أظهر الحد الأدنى من اللطف، أنا أيضاً.

«لا، لا، لا تزعجي نفسك. تصرفي كأنني لستُ هنا»

عند ذلك، ابتسمت لي مرة أخرى وتوجهت نحو غرفة المعيشة.

«أعتقد أنني تركته خلف الباب» تمتمت موجهة الكلام لنفسها

وليس لي.

وبالفعل، ظهرت ويدها عصا طويلة تنتهي بخطاف.

«هذا لفتح الكوة...»، شرحت لي.

لا أدري لماذا بقيت متسمةً في مكاني ورحت أراقبها وهي تُدخل
الخطاف في حلقة في السقف وتجرها، فتفتح كوة بصيرير كثيب.
تطايرت كتل من الغبار. عطستُ، وأنا كذلك.

«المسألة هي أنني لم أصعد إلى هناك منذ زمن طويل...»

نظرت إليها وهي تُنزل غطاء الكوة إلى أقصى حد، حتى أصبح
بمستوى رأسينا. لاحظتُ عندها سلماً خشبياً مثبتاً هناك قامت جوليا
بفتحه وهي تحمي أنفها من الغبار.

«هل أنت متأكدة من عدم حاجتك لمساعدة؟» سألتها ثانية، وأنا
أراها تضع قدمها فوق الدرجة الأولى.

«متأكدة»

نظرت إليها وهي تتوارى تحت السقف، ثم عدت إلى غرفة المعيشة
بخطاي البطيئة التي لا تدري إلى أين تذهب. جلست وأصغيتُ إلى
صرير أرضية العلية تحت خطوات جوليا هيوغ ذهاباً وإياباً.

نزلت لاحقاً إلى المطبخ، على رؤوس أصابعها، وهي تسألني بتهذيب
إذا كان باستطاعتها أن تسكب لنفسها كأس ماء.

«أنزلتُ نصف صناديق الكرتون» أضافت.

«أتريدين قهوة؟»

«إذا كان لديك...»

قدمت لها فنجان قهوة كبير، فيما راحت تجول بنظرها في الحجرة
الفارغة والمعمّنة على نحو حزين. خمنتُ أنها ستسأل بشأن المصاريع
المغلقة، ففضلتُ أن أستبق الأمر وأعاجلها بسؤال:

«هل جئتُ فقط من أجل صناديق الكرتون؟ لم تكن تزعجني...»

هزت رأسها فيما غطست شفتاها في المشروب الساخن.

«لا. ليس من أجلها فقط. لنقل بأنني أعيش فترة تغيير في حياتي الشخصية...»

شرعت بابتسامة نصف حزينة، نصف مدعنة.
«حسناً، لنسمّ الأمور بمسمياتها. أنا وشريك حياتي افترقنا»
«أوه... آسفة لسماع ذلك»

«هذا جزء من الحياة. أظن بأنني كنت أشعر بالأمر مسبقاً. في جميع الأحوال، سيتعين علي من الآن وصاعداً الانتقال إلى بيت خاص بي، و... كنت أرغب باستعادة الأشياء الخاصة بالعائلة. ألبومات الصور، قبعات أبي، مفارش مائدة أمي، كل هذه الأشياء في العلبة.»
غطست شفيتها ثانية في فنجان القهوة، قبل أن تضيف:
«لا أعلم بعد ما الذي سأفعله بها. على الأرجح أنني لن أحتفظ بكل ذلك، لكنها على الأقل لن ترعجك وهي في الأعلى، وأنا سأكون مسرورة لوجودها معي.»

أومات برأسي. حدثت إلى وجهي باهتمام مهذب.
«هل أنت من المنطقة؟»

«لا. أتيت من ليون»

«أعرف ليون قليلاً. أنا أقيم في ليل. أو بالأصح كنت أقيم هناك»
«هل تنوين الانتقال إلى مدينة أخرى؟»

«لا تزال أشيائي في ليل، عند تريستان. لكنني أظن بأنني سأقيم في مكان قريب من أوفيرن. المنطقة في النهاية هي مسقط رأسي. لدي فيها روابط. لحسن الحظ أن مهنتي لا تلزمني بالبقاء في مكان واحد. أنا مندوبة سفر لرحلات سياحية. أظن أنني قادرة على تكوين موطن قدم لي في مدينة كليرمون-فيران التي لا تبعد كثيراً من هنا.»

أومات برأسي وأنا أراها تنهي قهوتها برشقات صغيرة وسريعة.
«وأنت؟ سألت وهي تضع الفنجان فوق منضدة العمل. في أي مجال
تعملين؟»

«أنا في فترة استراحة من العمل، نوعاً ما. كنت أعمل في مجال
الأنشطة ضمن مجتمع محلي»

«جئت طلباً للعزلة في الريف؟» سألت بابتسامة مأكرة.

«نوعاً ما»

كنت أعني جيداً بأن نظرتي تبدو مراوغة، لكن جوليا لم تصرّ لحسن
الحظ.

«لم أحظى بمزيد من الوقت للعودة إلى هنا للأسف. لا بد أنني
تركتُ المنزل في حالة من الفوضى، رغمًا عني. كان لأمي في ذلك
الوقت حديقة رائعة، لا تقتصر على الخضروات فقط، بل كان هناك
شجرة التفاح في الجهة الخلفية من المنزل. لا أعلم إذا كانت لا تزال
تثمر. وكان هناك أزهار. كانت تعشق زراعة الأزهار في كل مكان»
تذكرتُ التقويم، والكتابة الرشيقية، وابتسمت لها رغمًا عني.

«كان هذا بيت السعادة بالنسبة لي. لقد فطرت قلبي رؤيته فارغاً كل
هذه السنين. خاصةً الحديقة، الحديقة المهجورة. ولكن ها أنتِ الآن
هنا.»

ابتسمت لي بلطافة. ولم أكن على يقين من أنني استطعتُ أن أبتسم
لها ابتسامة مقنعة.

«لن أزعجك لوقت أطول. لا يزال لدي عمل.»

كانت تستعد لغسل فنجانها في الحوض لكنني أشرت لها أن تتركه،
وأنتي سأتولى الأمر بنفسي. ثم اختفت وبقيت هناك أستمع إلى وقع
خطاها فوق رأسي.

لا بد أنها استغرقت ساعة، لا أكثر. صفت صناديق الكرتون في
الممر. ساعدتها في حملها إلى عتبة الباب خارج المنزل. وتكفلت هي
بوضعها في صندوق سيارتها وعلى المقاعد الخلفية والإضافية.

«كنتُ سأنسى» قلتُ «لقد وضعتُ جانباً بعض أشياءها التي وجدتُها
في غرفة المعيشة...»

سلمتُ جوليا كيس القمامة الأسود. ألقت نظرةً بداخله قبل أن تشهق
ضاحكةً.

«هذا لطف منك، لكن باستطاعتك الاحتفاظ بكتابتي زولا. أنا لا
أقرأ كثيراً. وتستطيعين التخلص من كل ما تبقى»
«حسناً...»

أساساً، باستثناء الكتابين، ليس ما تبقى سوى مجلات قديمة،
وخرائط طرق، وأشياء أخرى عديمة الفائدة.

«كان لدى أُمي عادة الاحتفاظ بكل شيء» أضافت «انظري، وجدتُ
صندوقاً كاملاً من تقويمات ومفكرات موزعة من قبل الكنيسة!»

أشارت إلى الصندوق المذكور، نصف المفتوح. ميزتُ على سطحه
نسخاً من التقويم الجداري نفسه الذي أخفيته منذ قليل في درج
السكاكين. أنا متأكدة بأن هذه النسخ أيضاً تضم ملاحظات السيدة
هيوغ بخطها الرشيق.

«هل ستتخلصين منها؟ سألتها بصوتٍ أصبح أجش فجأةً وعلى نحو
يدعو للاستغراب.»

لم يبدُ بأن جوليا لاحظت تغيرُ نبرتي، واكتفت بأن ابتسمت مجدداً - إنها كثيرة الابتسام - ، وأومات بالإيجاب:

«سأذهب إلى مكب النفايات في آخر النهار»

ترددتُ، ورحت أحرق مرة أخرى إلى الصندوق نصف المفتوح والذي يظهر على سطحه تقويم مفتوح على شهر يناير. تمثل الصورة منظر سهلٍ مغطى بالثلج. ثم سمعتُ نفسي أقول بعزم:

«دعني لي، سأذهب أنا»

بدت جوليا محرّجة.

«هل أنت واثقة؟ هل ستذهبن خصيصاً لهذا الغرض؟»

«لا، لدي أيضاً الكثير من الفوضى التي يجب أن أتخلص منها.»

كذبتُ دون أدنى وازع. ترددتُ لحظةً أخرى، وحين أضفتُ:

«لديك أساساً ما فيه الكفاية من الأحمال»، قبلتُ مع ابتسامةٍ امتنان.

«شكراً.»

انتهت من نقل صناديق الكرتون إلى سيارتها، بينما لبثت أراقب الصندوق الذي يضم التقاويم، بهوسٍ قريب من الجنون. جعلتني أجفل تقريباً حين ظهرت بالهيئة الراضية لشخصٍ أنجز مهمة يومه.

«شكراً لمساعدتك»

«لا موجب للشكر»

«ربما سنلتقي يوماً... إذا تعطلت آلية التسخين، أو شيء من هذا

القبيل... هذا لا يعني أنني أتمنى أن يحدث ذلك»

ارتسمت على وجهها مرة أخرى واحدة من تلك الابتسامات المرحّة،

الابتسامات التي لا تكلف شيئاً لأنها تنبع تلقائياً.

«أتمنى لك نهاية يوم سعيدة»

«لك أنت أيضاً»

وجهت لي تحية بإشارة صغيرة من يدها ثم اتجهت إلى سيارتها. انتظرتُ أن تختفي المركبة الزرقاء الصغيرة قبل أن أغلق الباب.

حل الليل. عرفت ذلك من خلال اختفاء شعاع الضوء الذي يتخلل شفرات الأباجور. بما أن لمبة غرفة المعيشة قد أسلمت الروح هذا الصباح، اضطررت لإشعال شموع. وجدتُ مخزوناً كاملاً منها تحت حوض المطبخ. ليست جميلة معطرة، لا، بل شموع بسيطة، من النوع الذي يستخدم في حالات الطوارئ. انتشرت على طاولة المطبخ عشر سنوات من الحياة اليومية للسيدة هيوغ. عشرة تقاويم، تحمل، كما توقعتُ، حواشي بخط يد المتوفاة، الرشيقة والأنيق. كتابات متنوعة ولكنها متشابهة. بشأن الحديقة. صناعة المربيات أو الفطائر. أشياء بسيطة بدا لي أنها تنطوي على شيء من الغرابة وهي مكتوبة على هذا النحو المائل: شروق الشمس. الذهاب للمشى. تلوين الشمسية باللون الوردي. لماذا باللون الوردي؟ أو أيضاً تناول العشاء في الخارج في شهر يونيو، قبل ست سنين.

تركْتُ التقاويم جانباً لكي أفتح المفكرات الموزعة من قبل الكنيسة. موديلات قديمة بأغلفة سوداء كثيبة وخشنة، تحمل نقوش «رعية سان جورج». كانت صفحاتها مليئة بالكتابة، ولم تبق فيها صفحة واحدة بيضاء. قرأت على هذه الصفحة:

وصفة مربى فراولة

اختيار ثمار ناضجة تماماً.
غسلها ثم فرزها لاستبعاد الثمار غير الصالحة منها. نزع
سيقانها وتقطيعها (الفراولة البرية تُترك بدون تقطيع).
عصر الليمون.
في قدر المربى نضع الفراولة والسكر وعصير الليمون
خلط المواد وتركها لمدة ساعات.
رفعها على النار وتركها تغلي 15 إلى 20 دقيقة على نار
قوية، مع التحريك من وقت لآخر.
التحقق بانتظام من عملية النضج. نصيحة: وضع بضع
قطرات فوق طبق بارد ثم إمالة الطبق سيلاحظ مربى
الفراولة يكون بطيئاً.
إزالة الرغوة ثم تعبئة المربى في برطمانات اغلّاها ووضعها
رأساً على عقب لمدة دقيقة، ثم تركها تبرد.
عدم نسيان وضع لصاقة مربى فوق كل برطمان!

على الصفحة التالية شرح عن طريقة غرس خس النعجة:

غرس شتلات خس الناردين.

تحديد هوض ترابي بالعرض الذي تريد، ويفضل أن يتراوح بين خمسين وستين سنتيمتراً.

تمشيط التربة لإزالة الحصى والكتل الترابية.

تلكم التربة على كامل العرض، وكبشها بواسطة لوح خشبي. تزرع الشتلات من المشتل بعد رطتها مباشرة، دون ترشيم الجذر.

صنع أداة لحفر التشتيل باستخدام عصا يبلغ قطرها حوالي سنتيمتر واحد، ثم غرس شتلات الخس بحيث تبعد إحداهما عن الأخرى مسافة عشرة إلى اثني عشر سنتيمتراً في صفوف متباعدة بالقدر نفسه.

ري كل شتلة عند الجذور، دون إغراق الأوراق في الأيام التالية، يتم الري بهذا ناعماً، ويفضل أن يكون ذلك في وقت متأخر من المساء وعند اشتداد الحر فقط.

ثم صفحة مخصصة لطقس اليوم:

9 درجات مئوية عند الصباح. القصوى 19 بعد
الظهر. طقس غائم مع بعض السحب الخفيفة في
نهاية اليوم.

لماذا؟ رحت أسأل نفسي وأنا أقلب الصفحات بسرعة أكبر، حتى لم أعد قادرة على تمييز الحروف. ولمَ لا؟ لم يعد هناك معنى لشيء في ذهني. يبدو لي أن ملء صفحات مفكرة وتقويم، لا يخلو من الحس السليم، مثله مثل استخدام وسائل النقل العام، أو الذهاب إلى العمل، أو التسوق، أو مقابلة الأصدقاء، أو التظاهر بأن الحياة ليست ضرباً من العبث اللفظ.

نهضتُ وبيدي شمعة صغيرة واقتربتُ من هاتفي المحمول الموصول بالشاحن منذ عدة ساعات، ولكنه لا يزال مطفأً. شغلته. ظهرت لي على الفور المكالمات التي بقيت بلا رد، ورسالة من آنا تعبر عن القلق وتريد معرفة أخباري. كتبتُ لها على عجل للخلاص من المهمة: طاب يومك، بدأت أنام بصورة أفضل، وأستعيد شيئاً من الطاقة. كيف حالك أنت؟ قبلاتي. ثم استعرضتُ مكالمات هذين الأسبوعين الأخيرين. لاحظتُ بينها أرقام آنا وريشار ويان، ورقماً آخر لا أعرفه. ربما يكون هو الرقم الذي يهمني. لم أفكر حتى بالتحقق من الوقت، أو بعشية الموقف، أو بالكلمات التي يتعين استخدامها. ضغطت فوق زر إعادة الاتصال وألصقت الهاتف بأذني، وقلبي يدق. رحت أحرق إلى لهب الشمعة، فتيلها الذي تبتلعه النار فيتلاشى رويداً رويداً. توالى الرنات واحدة تلو الأخرى، معدنية ومتنافرة. ثم خرج الصوت عذباً ولو أنه متفاجئ بعض الشيء. «نعم، مساء الخير؟»

لم أعد من النوع الذي يميل إلى المغالاة، ولم يخطر ببالي إطلاقاً أن الوقت هو منتصف الليل، كما لم يخطر ببالي أن سؤالي غير لائق:

«مساء الخير، آسفة على الإزعاج... سمحت لنفسي أن أبحث في الصندوق الذي سيذهب إلى مكب النفايات. الصندوق الذي يضم تقاويم ومفكرات من الكنيسة، هل تذكرين؟...»
أجابني صمتٌ منذهل. نفذ صبري تقريباً.
«جوليا؟»

بدا أن مخاطبتي لها باسمها، ساعدها على الخروج من ذهولها الصامت.

«نعم، اعذريني، أنا معك»
«التقاويم، وكذلك المفكرات، جميعها مليئة بالكتابات، تضم لوائح مهام، وإشارات تذكير، ونصائح. حتى أن هناك توقعات طقس اليوم. هل كنت تعلمين ذلك؟»

كان كلامي يتدفق بسرعة شديدة، وشعرتُ بأنني سببتُ لها الخوف. لبثتُ صامتة للحظة، ثم قالت:

«نعم... نعم. كان لدى أُمي هذا الشغف بتسجيل آلاف الأشياء الصغيرة»

«هذا شيء مفاجئ أليس كذلك؟»

لم تجب. خطر لي أنها ربما تكون في السرير، أو فوق الكنب في الصالون، بينما يشغل شريكها السابق غرفة النوم، وربما يكونان في أوج جدال عميق حول تقاسم ممتلكاتهما. ولكن أياً من هذه الأفكار لم تجعلني أحيـد عن هدفي النهائي، عما يملأ تفكيري.

سألتها: «هل تعلمين لماذا كانت تفعل ذلك؟ هل تعلمين لماذا كانت تكتب كل هذه الأشياء؟»

كان فتيل الشمعة يكافح بما تبقى لديه من قوة كيلا يبتلع الشمع الذائب. تعلقَت بالسماعة بأمل غير مفهوم. لن أستطيع تحمل جواب مثل «لا أدري». أحتاج أن أرى في الأمر معنى ما، شيئاً ما. تنحنحَت جوليا، وخرج صوتها الصافي مرحاً، وكنت شبه متأكدة من أنها تبتسم: «لقد بدأت تفعل ذلك بعد وفاة بول»

أخذ قلبي يدق بشدة داخل صدري، وكررت وقد جف حلقي: «بول؟»

«أبي. زوجها.»

بقيت مشدودة إلى السماعة، أنتظر التئمة بأعصاب محمومة. «لقد توفي قبلها بعشر سنين. كانت صحته هشة على الدوام، وأصابه التهاب رئوي شديد.»

حاولت أن أستجمع نفسي لأقول الكلمات الصحيحة: «أنا آسفة.»

لكن جوليا لم تهتم، ولا أعتقد حتى بأنها سمعت ما قلت. «بدأت تسجل اللوائح كيلا تُسلم نفسها للحزن. أنت تعرفين كيف يكون الأمر عندما يكبر شخص ويفقد رفيق حياته يعجز كثير من الناس عن تجاوز الأمر» أيدتُ بصوت مخنوق.

«بدأتُ عند ذلك تعدّ لوائحها، وفي تلك المرحلة أخذت تعمل في الحديقة التي كانت، في أيام بول، قطعة مربعة فيها أعشاب عطرية. آسفة، لقد أخذني الحماس، هذا أمر خارج اهتمامك بالتأكيد لماذا تتصلين؟»

هذه المرة، أنا التي لم أعد أعرف كيف أجيب. لزمّت الصمت لبضع ثوان بينما كانت الشمعة تذوي.

«لهذا السبب... أتصل لهذا السبب...»
دوت ضحكة جوليا المتفاجئة في السماع. قلدها دون أن أعلم السبب.

«حسناً... أتمنى لك ليلة سعيدة، أضافت جوليا وفي صوتها شيء من الاستغراب»

– طابت ليلتك أنت أيضاً.
أغلقت الخط وفي صدري غصة ما. أعتقد بأنني لن أستطيع النوم هذه الليلة... لكن الأرق سيكون أخف من المعتاد.

«أماندا، معكِ ريشار»

كنت جالسة خلف الطاولة وأمامي تقاويم السيدة هيوغ. وبينها
فنجان قهوتي التي بردت.

«أهلاً ريشار»

ترددتُ لحظة ثم قلت له:

«أنت تتصل من هاتف أنا...»

شعرتُ بأنني سببتُ له نوعاً من الإرباك.

«لقد ذهبتُ إلى دار الرعاية لبعض الوقت»

«ما الذي حدث؟ هل هناك شيء خطير؟»

«آثار الصدمة. لستُ أدري حقاً. اكتاب بسيط.»

كان صوته أجش وأصابني بالرعب. تذكرت المرة الوحيدة التي
شاهدتُ فيها دموع ريشار، اللحظة التي انهار فيها بعد أن وقف معي
في غرفة الولادة ثماني ساعات وأنا أسبح في العرق وأعاني الاختناق.

«أماندا؟»

– نعم، أنا هنا.

كنتُ أمل ألا يطلب مني الذهاب لزيارتها، فليس لدي بعد القوة
لمغادرة عزلتي. لكنه لم يفعل.

«جاء يان وكاسندرا للإقامة في البيت لبعض الوقت. إنهما يرسلان

لك تحياتهما»

ابتلعتُ غصة حلقي.

«بلّغهما تحياتي أيضاً»

مرت بضع ثوان. حركتُ القهوة الباردة في فنجانِي.

«كيف حال كاسندرا؟»

تجاهلُ صوتي المخنوق.

«إنها متعبة لكنها صامدة. الجنين بحالة جيدة»

«هذا جيد.»

لم أرغب بمواصلة الحديث في الموضوع، ولا بد أن ريشار شعر بذلك.

«هل ما يزال لديك حبوب للنوم؟»

«نعم»

«هل تحتاجين شيء؟ أن يقوم أحد بالتسوق لك؟»

— لا، أشكر لطفك. سأذهب بنفسِي غداً.»

ساد صمت جديد. فكرتُ بـآنا، التي باتت هي أيضاً وحيدة ومعزولة، في دار الرعاية.

«هل يمكن الاتصال بها؟»

«من تقصدين؟»

«آنا. هل يمكن الاتصال بها؟»

«ولكن، كما تعلمين... إنها تنام كثيراً. من الصعب استدراكها»

«حسناً. أخبرني إذن عندما يحين موعد عودتها إلى المنزل»

«بالطبع»

تنحنح ريشار. كان حتماً يتهاى لإغلاق الخط.

«لا بد أنك استلمت رسالة في منزلك الجديد»

«رسالة؟»

«وصلت رسالة باسمك منذ أربعة أيام. حوّلتها إلى منزلك الجديد. لا

بد أنها في صندوق البريد...»

«رسالة من كاتب العدل؟»

«لا، لا أظن ذلك. عليها كتابة غير بارعة بخط اليد. إنها من رجل.»

صمتي القصير وشي بمفاجأتي.

«سأذهب لأرى»

«حسناً»

«أماندا، إذا أردت قضاء بضعة أيام هنا، لا يزال العرض قائماً. يان

وكاسندرا سيتواجدان هنا إلى أن تعود آنا. وسنسعد جميعاً برؤيتك»

«هذا لطف منك، ريشار»

«لا تترددي»

«موافقة.»

من بين شفرات الخشب راقبت مغيب الكوكب اللعين. حان وقت خروجي حاملة مفتاح علبة البريد الصدي. لم أفعل اليوم شيئاً سوى قراءة وإعادة قراءة تقاويم السيدة هيوغ، متسائلة عما يمكن أن أكتبه بدوري: تغيير لمبة الصالون. مشوار تسوق عاجل. غسل الثياب المتسخة المتراكمة في سلة الحمام. هل أحدد مواعيد نهائية لتلك المهام أم لا؟ هل أشتري بدوري تقويماً؟ بقيت الأسئلة معلقة.

فتحت باب المنزل وانطلقت مباشرة نحو الطريق المحيط بالمنزل. هناك تتواجد العلبة المصنوعة من الخردة المعدنية المفصّضة، والمثبتة على دعامة عمودية. غمر الليل المكان كله بغلالة معتمة، مع ذلك بدا

لي أنني لمحت أشكالاً. أحدها الشكل الثقيل لشجرة صفصاف باكي وأخرى لأشجار فاكهة، على الجانب الآخر من قطعة الأرض. أتكون تلك هي حديقة السيدة هيوغ؟

مرة أخرى، بينما كنت أدخل المفتاح الصغير في القفل، خيل لي بأنني لمحت شكلاً صغيراً ينتقل بين الأشجار. هل هو قطة؟ ثعلب؟ هل يوجد ثعلب هنا؟ لم يحملني فضولي على المضي في التفكير أبعد من ذلك. انفتحت علبة البريد بصرير مخيف واكتشفت مغلفاً أبيض عادي جداً، تغطيه كتابة خرقاء، مثلما وصفها ريشار. التقطته ومضيت نحو المنزل بخطى حثيثة، خائفة من فكرة تشييع بشرتي تماماً بروائح الصنوبر والراتنج. لم يحن الوقت لذلك بعد.

أقفلتُ باب المنزل ورائي قفلاً مضاعفاً، وفتحت المغلف دون أن أنتظر الوصول إلى المطبخ. سقطت منه ورقة طويت أربع طيات. ورقة من دفتر مدرسي مربع التخطيط، مليئة بالأخطاء الإملائية والتشطيب. قطبت حاجبي دون أن أفهم، وضعت الرسالة على الطاولة فوق التقاويم، ثم أشعلت شموعاً إضافية لأتمكن من قراءة الكتابة الخرقاء.

السيدة لوزان،

أردنا أن نخبرك بأننا أسفين لما جرى لزواجك بنجامان، وطفلك لم
نحظى بمربي لطيف مثله. ومن الحزن أن يموت وهو في عز شبابه. كما
يقولون، الناس الجيدون هم الذين يرملون أولاد.

نحن ندرك بأن ما كان لأحمد أن يعلم بما سيحدث، ومع ذلك، نحن
نحمل المسؤولية قليلاً، لو أننا لم نطلب منه المجه، لفتح الخزانة الكبيرة
لاحث ذلك إضافة إلى أن عصام عثر بعد ذلك على المفتاح. كان في
حقيقة ظهريه كاترين إذن، الذنب ذنبنا قليلاً، بل كثيراً. عصام يلوم
نفسه كثيراً يا سيدة لوزان، وأنا كذلك لأنني أنا الذي اتصلت به في
ذلك المساء. لو أنني لم اتصل به لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه بالتأكيد.

بعد بنجامان، لم يعد بيت الشباب والثقافة كما كان. كنا قد جردنا هدية
لطفلك هل تعتقدون أنه لا زال بإمكاننا أن نعطيك إياها، لأننا لا
ندري ماذا سنفعل بها الآن، ورؤيتها كل يوم ضمن غلافها في قاعة
الموسيقى، تسبب لنا الإحباط.

نرسل لك الكثير من الأمنيات بأن تكوني شجاعة يا سيدة لوزان
نعلم أننا مررنا فعلنا لا يمكننا التكفير عن ذنبنا أبداً، لكننا صنعنا فيديو
مونتاج عن بنجامان، وسنمضيه في ليلة رأس السنة في بيت الشباب
والثقافة. كما أننا سنسقي صالة الموسيقى بإسمه. لن نرى شخص ننظم
الأنشطة مثل كفائه. لن نرى مثله أبداً.

ميكا والآخرين⁽¹⁾.

(1) رسالة ميكا في الأصل، مليئة بالأخطاء المتعمدة من قبل الكاتبة، والأخطاء في ترجمة الرسالة، هي بالتالي متعمدة أيضاً

تركت الورقة تسقط على الطاولة. لا أعلم ما الذي يفترض أن أشعر به. هل أضحك، أم أبكي أم أغضب؟ وضد من؟ ضد ميكا، ضد عصام، أم ضد الأولاد الذين فجروا مفرعاتهم؟ أم ضد سائق الشاحنة الذي لم يكن له رد فعل في الوقت المناسب؟ أم ضد بنجامان الذي لم يتمكن من تدارك الموقف وإعادة إيقاف الدراجة على عجلتيها؟ أم ضد نفسي؟ أنا التي لم أسهل نزول طفلي، وشدّدت عضلاتي أمام التقلصات؟ أنا التي رفضت الولادة في غياب بنجامان؟ أنا التي قتلت مانون؟

سأصّب حقدي على ماذا؟ على الحياة؟

أتذكر جيداً المرة التي قابلت فيها ميكا الصبي صاحب الشعر البني النحاسي والعينين الخضراوين الثابنتين، والطول الأقصر من المتوسط، والنحيل ولكن المليء بالحيوية. لقد حدثني بنجامان عنه كثيراً. كان عازف الطبول في الفرقة الموسيقية وقائدها. كان ذلك في شهر مايو، بعد مضي أكثر من عام على علاقتنا أنا وبنجامان. كنت أذهب بانتظام للانضمام إليه في بيت الشباب بعد العمل، لأن عملي لا يتطلب تشدداً في وقت الحضور. بالنسبة لفتية بيت الشباب بقيت أوصف بأنني «السيدة المشرفة على الوجبة الشعبية». كانوا يلقون علي التحية باحترام وانحناءات خرقاء تثير ضحك بنجامان. كان يشعر بأن الأولاد لا يرتاحون معي مثلما يرتاحون معه. أنا أيضاً كنت أشعر بذلك، لعدم امتلاكي تلك القدرة على التواصل التي يمتلكها بنجامان. كانوا يعاملونني بلباقة وتهذيب، بينما ينادون بنجامان باسم «بنجي» ويخاطبونه بأريحية شديدة.

كنا في شهر مايو، وكنت قد وصلت في آخر النهار إلى بيت الشباب، والأنشطة في أوجها. عند مكتب الاستقبال، صادفت صبيّاً صغيراً نحيفاً، يضع قلماً خلف أذنه، وينقر على هاتفه المحمول. «مرحباً» قال لي عند وصولي.

كان قد رفع رأسه نحوي على الفور، واتخذ وضعية جدية، آخذاً دوره كمسؤول عن المكالمات الهاتفية، على محمل الجد إلى حد بعيد. «هل أنت هنا لتسجيل طلب اشتراك؟ أم من أجل نشاط ما؟» كنت قد كتمت ابتسامة في طرف فمي حين لاحظت بأن الصبي قد ظن بأنني واحدة منهم. حتماً بسبب قصر قامتي وشُقرة شعري الطبيعية، لا أدري.

«إيليا ليست هنا؟»

إيليا هي مسؤولة المقسم الهاتفي عادةً. «لا، اضطرتُ إيليا للمغادرة باكراً. عندها زيارة إلى الـ gynécologue⁽¹⁾».

لم أستطع هذه المرة كبح ابتسامتي بأي شكل.

«gynécologue؟»

«نعم» أكد بنبرته الجدية تماماً.

«حسناً... جئت في الحقيقة فقط لرؤية بنجامان.»

كان قد التقط القلم من خلف أذنه باحترافية ستصيب زملائي في البلدية، بالغيرة.

(1) المقصود هو الطبيب النسائي. والمصطلح الخاطئ على لسان ميكا هو ما أثار الضحك. gynécologue

«يجب أخذ موعد، فهو يقود الأنشطة هناك. طلب مني أن أهتم بطلبات الاشتراك، أما إذا لم يكن الأمر يتعلق باشتراك...»
كان قد أخرج مفكرة ضخمة بدأ يقلب صفحاتها، في القاعة كان يعلو صوت مراوغة بالكرة، وضحكات فتيات، ولحن يُعزَف في غرفة مجاورة.

«ما اسمك؟»

في تلك اللحظة ظهر رأس بنجامان من فتحة الباب. لا بد أنه ميز صوتي.

«ميكَا، السيدة لا تحتاج لموعد»

«أه...» استدرك ميكَا بهيئة خائبة، وقد انتابه بعض الارتباك.

«هذه صديقتي»

«صديقتك؟»

«صديقتي الحميمة»

احمرّ وجه ميكَا عندما أشار لي بنجامان بالانضمام إليه.

«اعذريني يا سيدتي» قال وهو يختفي وراء المكتب.

«لا عليك»

«إذا أَسَمَيْتَهَا بِاسْمِهَا، أماندا، سيكون ذلك كافياً» أضاف بنجامان، ساخراً.

في الأسبوع التالي استقبلني ميكَا بتهذيب بعبارة «مرحبا يا سيدتي»، وقد انطبعت الجدية على هيئته. سألتُه إذا ما كانت إيليا لا تزال عند الـ gynécologue، لكنه لم يلتقط النكته. أجبني باحترافية بالنفي، مضيفاً بأنها ذهبت فقط لأجل بعض التسوق من أجل حفلة نهاية الأسبوع الموسيقية.

«هناك حفلة موسيقية؟»

«نعم. فرقة بيت الشباب الموسيقية. ألا تعلمين أنني قارع الطبل فيها؟ سنعزف مساء السبت»

«لم أكن أعلم»

«آه، إذا كان كذلك...، أضاف وقد ظهر عليه الارتباك. ربما لا يستطيع بنجي أن يخبرك بذلك حفاظاً على السرية المهنية، أو السرية الخصوصية، ما أدراني...»

كان من المستحيل ألا أضحك.

أما عصام فقد التقيت به لاحقاً. وصل إلى بيت الشباب والثقافة في العام التالي. وهو جزائري بعينين لوزيتين ضاحكتين، أراد أن يتعلم العزف على الغيتار لكن الأمر انتهى به الأمر دوماً بالعزف على الطبول مع ميكاً. كان قارع طبل مصاب بالغيبظ. «لا يملك والدادي مكاناً لمجموعة الطبول، يا سيدتي.»

كانوا جميعاً يخاطبونني بصيغة رسمية. وكان بنجامان يسخر منهم.

«هل تتهيبون أمام زوجتي؟»

كانوا ينفون ذلك ويُقسمون بأنهم لا يخافون من امرأة. إلا أنهم لم يتمكنوا أبداً مع التباسط معي.

اليوم هو أول أيام سبتمبر. لم يعد الخريف بعيداً، ولا تزال الكلمات التي تبادلناها مع أمي، تدوي من الهاتف على الطاولة.

«ما وضعُ الشقة؟»

«معروضة للتأجير»

«ما زلتِ مختبئة؟»

«لا أختبئ»

«لا بد من العودة للظهور يوماً ما»

«أقول هذا لمصلحتك يا عزيزتي. امضي إلى الأمام لكي تبقي على قيد الحياة. اعثري على شيء يسمح لك بالسير قدماً، أي شيء»

«الوقت مبكر»

«الوقت ليس مبكراً أبداً»

«من فضلك لا تتكلمي بالنيابة عني»

لم أعرف أبي أبداً. يبدو أنه كان يريد فقط أن يقيم علاقات جنسية. أُمي تتكلم عنه بوصفه شخصاً سافلاً. أعتقد بأنها في الواقع كانت سعيدة بأنها خاضت هذه المعركة بمفردها: الحمل، تربيته، عملها كمديرة محل مجوهرات بدوام كامل. كانت دائماً تحب الظهور بمظهر المرأة القوية والمستقلة. لم تفهم أبداً ما تسميه «نقص الروح القتالية» لدي.

«وماذا عن عملك؟»

«أنا في إجازة بلا راتب»

«لن يسمحوا لك بذلك لشهور»

«عندها سوف يخبرونني بذلك. ليس هذا همّي.»

بقيت غاضبة وقتاً طويلاً بعد إنهاء المكالمات. المهمة الصعبة أُنجزت على الأقل، وأنا الآن معفاة لعدة شهور من تلقّي الاتصالات.

إنه أول يوم من سبتمبر إذن... علقت رسالة «ميكا والآخرين» على جدار المطبخ، و بجانبها ألصقت ورقة بيضاء تماماً. قررتُ ألا أقنتي تقوياً. لا أيام، لا تواريخ، لا مواعيد نهائية، ولا مهام محددة للغاية. أحتاج إلى الحرية. فقط ورقة بيضاء للتذكير بهدي، وبالسبب وراء

اتخاذ خطوة إضافية إلى الأمام. المشكلة هي أنني لم أقرر شيئاً بعد. كنت أفكر في هذا الأمر قبل اتصال أُمي. كنت أفكر فيه في وقت مبكر من هذا الصباح، أثناء تدليك نديتي بالمرهم المطهر. لقد تحولت إلى اللون الوردي. وردي لؤلؤي جميل، قريب من الصّدفِي. رحت أشاهدها وهي تزدهر يوماً عن يوم، وتكتسب نعومة أشد، ويصبح ملمسها صقيلاً أكثر. نديتي الشمينّة...

شرد ذهني مرة أخرى. يجب أن أعود إلى هدفي. بضع كلمات، لا أكثر. أمسكتُ قلماً مرماً على طاولة المطبخ، واقتربت. كتبتُ كلمةً أولى: /افتحي. اتجهت عيناى إلى النافذة المغلقة، إلى الشعاع الخافت الذي بالكاد يتمكن من التسلل. أضفتُ كلمة /الأبواب. كانت جملةتي معلقةً تنتظر تنمةً. لمن أفتح الأبواب؟ للشمس؟ للحياة؟ فضلتُ التوقف هنا. هذا كافٍ. /افتحي الأبواب لا غير. أحتاج إلى هامش للتحرك.

أتذكّر يوم 24 ديسمبر ذاك، قبل ثلاث سنين. كان بنجامان قد اختار سهرة عيد الميلاد لكي يقدمني رسمياً لعائلته المكونة من: يان، شقيقه الذي يصغره بعامين، والذي كان لا يزال طالباً، وأمه آنا، أستاذة المدرسة، وأبوه ريشار الذي يعمل نجاراً.

«كفاكِ توتراً.»

كان يردد هذه العبارة وهو يقرص أنفي كأنني طفلة. كان ذلك سهلاً من الناحية النظرية. لم يسبق لي أن التقيت بعائلة أي من أصدقائي. كانت أُمي تمضي سهرة الميلاد في جزيرة ريونيون:

«أسعار بطاقات السفر بالطائرة مرتفعة للغاية يا عزيزتي. الأفضل أن آتي لرؤيتك بعد فترة الأعياد.»

كتمتُ دموع الغضب. سأقضي سهرة الميلاد وحيدة. إنها محنة لم يسبق لها أن وضعتني فيها حتى الآن. لحسن الحظ أن بنجامان قرر بأن الوقت قد حان لكي ألتقي بعائلته، وأن عيد الميلاد سيكون فرصة مثالية.

أتذكر الهواء الجليدي في المدينة، والأشجار المزينة بأكاليل مذهبة في الشوارع، ووشاحي الذي يغطي نصف وجهي، ويدي في قفاز بنجامان، وقبعته البيروفية.

«البيت هنا»

نظرتُ إلى حيث يشير لأكتشف مبنى متواضعاً بواجهة بنية فاتحة، وأمام المدخل تومض أضواء زرقاء وزعت على شكل رنة.

«ليتكَ رأيتَ بيتنا في الجورا...»

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها بنجامان يذكر بيتهم في الجورا، الذي كان بالنسبة له بيتَ السعادة.

«هل كان أكبر؟»

«نعم، بالتأكيد... ولكن لم يكن هذا ما يجعله فريداً»

«ما الذي كان يجعله فريداً؟»

فتح بوابة السور المؤدي إلى الفناء الصغير وإلى المنزل. دخلتُ بحرصٍ كيلا أتلّف باقة الأمارلس الحمراء التي أحملها. كان بنجامان يحمل زجاجة شمبانيا داخل حقيبة كتفه.

«كان في قلب الغابة»

«حقاً؟»

«نعم. كان وسط أشجار الصنوبر، مع جدول يعبر المنطقة. كنا نصطاد السمك كل أحد، على بعد ثلاثة أمتار من البيت، هل تتخيلين ذلك؟»

أومات برأسي سعيدةً بالابتسامة التي تلتهم وجهه.
استكمل: «وبعد ذلك كنت أذهب لتسلق الصخور حتى حلول
المساء»

«بصحة يان؟»
ضحك، ولم أفهم لماذا.
«يان شخص جبان!»
وصلنا إلى أمام باب بيت عائلته. أخذت نفساً عميقاً. مر بنجامان
بيده فوق خدي.

«أنا واثق من أنك ستحيين المكان هناك»

«أنا؟ في الـ جورا؟»

«وما المانع!»

لم يسعفني الوقت لكي أجيب، فقد ضغط إصبعه فوق الجرس،
وتناهد إلى أسماعنا صيحات مكتومة، تلاها صوت خطوات. فُتح
الباب كاشفاً عن رجل ستيني، طويل القامة، نحيل، له لون شعر ابنه
البنّي ولون عينيه البنيتين الفاتحتين. كان يرتدي بنطال جينز بسيط
للغاية وقميصاً أبيض. كانت تفوح منه رائحة عطر غير متكلف، كولونيا
خفيفة وناعمة. لكن ما أثر بي على نحو خاص هو ابتسامته. الابتسامة
البسيطة والحارة.

«ها هو ولدنا»

نظرت إليهما وهما يتعانقان، ويربت أحدهما على ظهر الآخر، ثم
التفت الرجل ذو القميص الأبيض الذي له عينا ولده الحبيب، نحوي.

«مرحباً، أماندا... أليس هذا هو اسمك؟»

«إنه كذلك»

«أنا ريشار. سعيد برؤيتك.»

كان لقاء عيد الميلاد الخاص هذا، بسيطاً، مليئاً بالطيبة والعطف،
مثلاً توقعته تماماً. وضع يديه فوق كتفيّ عندما قبلني، كأنما لكي يعبر
لي عن شيء أكثر قليلاً من الكياسة.

«تفضلي، لم تقم أنا بإحراق الديك الرومي بعد»

كان من الواضح أن الدعابة تتكرر كثيراً لأن بنجامان رفع عينيه إلى
السما وأوضح لي:

«ليس هناك ديك رومي...»

لحقّت بهما في ممرٍ ينتهي إلى الصالون المزين بشجرة تنوّب كبيرة
عليها نقاط صغيرة مضيئة تومض منتقلةً بين الضوء الأزرق والأحمر ثم
الأخضر. وتماثيل صغيرة ذهبية لملائكة مجاورة لريشات بيضاء.

«ضعا سترتيكما»، قال ريشار مشيراً إلى كنبه في الزاوية.

رُتبت المائدة بأناقة. وضع في وسطها شمعدان عليه ست شمعات.
طويت الفوط الحمراء على شكل مروحة في كل صحن. وضع بنجامان
يده وسط ظهري لكي يدعوني لمرافقته إلى المطبخ. لم يكن هناك داع
لذلك فقد ظهرت أنا في اللحظة نفسها، بوجه أحمر بسبب حرارة مواقد
الطهي، وشعر معقوص إلى الخلف، ولا يزال يلف خصرها مئزر أبيض
مستهلك ومبقع بالزيت، لكن تحت رداء الطاهية هذا، يلمح فستان أنيق
من المخمل الأسود.

«أه، لقد وصلنا...»

كانت ابتسامتها أيضاً عذبة عذوبة صادقة أشعرتني بالارتباك. قبلتني
قبل أن تعانق ابنها.

«سعيدة بحضورك هنا.»

قالت لي ذلك وهي تنظر إلي، فمددتُ لها يدي بباقة الأماريليس
القرمزية وأعلنت:

«شكراً على دعوتكم لي.»

قابلت عبارتي بحركة تشير إلى عدم وجود أي موجب للشكر.

«لقد جهزت لكما الغرفة»

«نحن على سفر بالسيارة» قال بنجامان.

«ولكنني لا أريد أن تقودا السيارة بعد وجبة الميلاد الغنية
بالمشروبات.»

لم يشأ بنجامان الإلحاح. لطالما كان حذراً وعقلانياً. أخذني إلى
الغرفة المقصودة لكي أضع حقيبة يدي ويضع هو حقيبة كتفه. بقيت
الغرفة تُذكر بالمراهق الذي كان يفترض أن يكون عليه. سرير منخفض
وملاءات سوداء، وعلى الحائط ملصق ضخّم لـ جيمي كليف. خوذة
درّاجة نارية، عليها كلمات صغيرة بلونٍ أبيض، وضعت فوق المكتب
الصغير الذي كان بنجامان يوماً ما يكتب عليه فروضه المدرسية.

«لم يتغير شيء، كما ترين»

«أرى ذلك»

أخذ مني حقيبة يدي ووضع يديه حول خصري وشدني نحوه. غرس
أنفه في شعري كما يفعل دوماً. قال بأنه يحب أن يشم رائحة الشامبو
في شعري.

«أنا سعيد لوجودك هنا هذا المساء»

قال ذلك ببساطة، بصوت هادئ، دون تشديد على الكلمات، لكنني
كنت أعلم بأن كلماته تلك صادقة وثرينة.

«أنا أيضاً سعيدة»

قبلني على جيبيني وابتعد عني لأن باب البيت اصطفق لتوه معلناً وصول يان.

«تعالِي»

عدنا إلى الصالون حيث كانت أنا قد نزعت مئزرها وتركت شعرها منسدلاً. كان يان هناك بستره جلدية. إنه بالفعل شقيق بنجامان الأصغر. الوجه نفسه، والشعر نفسه رغم أنه أقصر، ورغم أن عينيه خضراوان مثل عيني أنا. التشابه صادم رغم كل شيء.

«مرحباً» هتف لي قبل أن يتقدم ليضع قبلة على خدي.

«مرحباً» أجبت.

«من الجيد أن نراك.»

لم أعرف بماذا أرد سوى الابتسام.

«هل أنت راكب دراجة نارية؟» سألته بخجل مشيرةً إلى سترته الجلدية.

أثارت ملاحظتي ضحك بنجامان.

«يان راكب دراجة نارية؟»

عبس يان متظاهراً بالاستياء. ثم ابتسم بدوره.

«لم أعلم...» غمغمت ببساطة.

«لم أفصح أبداً في جعله يصعد على زلاجة ذات لجام» أكد بنجامان «إنه بالكاد يقود دراجة هوائية»

ابتسمت أنا، وغمرت ابنها الأصغر بنظرة مليئة بالعطف.

«كل ما في الأمر هو أن يان متعقل وليس متهوراً.»

ابتهج يان وقال:

«متعقل، يا بنجي، سمعت! متعقل، مشتقة من عقل.»

سيمضيان ربع ساعة كاملة في مناقفة كل منهما للآخر. وسأتعلم ألا أعود لمقارنة أحدهما بالآخر تحت طائلة نشوب مبارزة طفولية، ولكنها لا تتوقف.

أتذكر عن ظهر قلب سهرة الميلاد تلك التي اجتمعنا فيها نحن الخمسة. الطاولة الطويلة والشمعدان، دفء غرفة المعيشة، طبق السلمون في ورق الزبدة الذي أعدته أنا مع نوعية ممتازة من نبيذ جورانسون، دعابات ريشار، التي كانت دائماً بعيدة عن الموضوع، والتي كان ولداه يسخران معاً منها، ويد بنجامان التي وضعها فوق ركبتي، لطف آل لوزان وحسن استقبالهم، وكنت قد التقيت بهم للمرة الأولى. أظن بأن عائلة بنجامان قد تبنّني في ذلك المساء، دون قيد أو شرط. ومن كل قلبها. أظن بأنني أنا أيضاً رغبتُ منذ ذلك المساء أن أكون جزءاً منهم.

عندما أوينا إلى سرير مراهقة بنجامان، تحت أغطية الفراش السوداء، أتذكر بأنني شعرت بسلام عميق وغير مسبوق. غفا ويده فوق عنقي، وأنا أصليّ ألا يتغير شيء، وأن أبقى ممن يجتمعون حول طاولتهم، أنا وكل الأطفال الذين قد ننجبهم.

لقد اكتشفت معنى كلمة «عائلة».

قوكمتُ فراشةً تدخل. كانت غلطة. كنت أريد فقط أن أدخل شعاع شمس. شعاعاً واحداً، فتسللت الفراشة من المصراعين اللذين فتحتهما قليلاً واللذين أصدرتا صريراً كثيباً.

لبثت بلا حراك بجانب النافذة، لا أدري كيف أتصرف. طارت الفراشة لا أعلم إلى أين. كل ما أتيح لي أن أراه منها، بقعتان صفراوان فوق جناحيها، وما تبقى منها أظن بأنه كان كستنائي اللون. أو ربما أحمر مائل إلى البني. تمثل الفراشة قدراً أكبر مما يجب من الحياة، دفعة واحدة. حركات وألوان وحضور... كنت مستعدة لاستقبال شعاع، شعاع واحد من النجم اللعين، لكنني لم أكن مستعدة لاستقبال فراشة. حاولت أن أبقى هادئة، أن أهدي قلبي الذي تسارعت دقاته. سوف نجدها. سوف أجدها. سأغلق النافذة أولاً كيلا أسمع لحشرات أخرى بالدخول. سأترك المصاريع مفتوحة جزئياً للسماح بتدفق الضوء، ولكنني لن أقف عند هذا.

بحثت بعيني في أرجاء الغرفة، تسلفتُ الكنبه، حركتُ الكراسي من أماكنها، فتحتُ خزائن الجدران، وهو أمر مضحك، فما كان لها أن تدخل إلى هناك... كان عليّ أن أستجمع نفسي. ربما طارت إلى الردهة. نعم، هو ذاك، الردهة. أشعلتُ المصباح المتذبذب، وتقدمت فوق البلاط البني وعينايتنظران نحو الجدران والسقف. لا شيء. كان باب الحمام مفتوحاً، وهو المكان الأكثر إضاءة في المنزل، ولسبب

وجيه هو أنني لم أتمكن أبداً من إغلاق منور السقف تماماً. كانت الفراشة هناك متسمة فوق المرأة. حدثت إلى جناحيها. إنها أحمر اللون وليسا بَنَيْن، من ذلك الأحمر القرمزي. فوق كل منهما بقعتان صفراوان تحيط بكل منهما هالة بنية. ما يجب أن أفعله هو أن أفتح المنور. مددت يدي ولكن بعد فوات الأوان، فقد انطلقت الفراشة من جديد باتجاه الردهة.

لم أستسلم. رحت ألوح بذراعي على أمل أن تخيفها الحركة. كَوَّعْتُ بهدوء باتجاه غرفة المعيشة وحطت على الطاولة. وعندما لحقت بها وتهايت لالتقاطها من جناحها لكي أضعها في الخارج، حطت بهدوء فوق الورقة التي ألصقتها على الحائط، تلك الورقة المخططة إلى مربعات والتي لا تزال تحمل أثر الطيات التي طويت إليها في المغلف. اختارت الحشرة اللعينة أن تحط فوق الكلمة الأخيرة، كلمة «الآخرين»، موقِّعةً بجسدها الملون على رسالة ميكا. تسمرتُ وسط المطبخ وأنا أقطب حاجبي. لقد دخلت الشمس إلى منزلي على أية حال. ارتسم مستطيل ذهبي فوق البلاط البني ذي المسحة النحاسية. لبثتُ ثوانٍ بلا حراك أمام مشهد الغبار المتراقص في الضوء. عندما التفَّتْ نحو رسالة ميكا، تبين لي بأن الفراشة لم تتحرك. صرفتُ النظر عن المهمة.

لقد تركتُ فراشةً تدخل إلى منزلي.

أبقيتُ النافذة نصف مفتوحة، كيلا تشعر بأنها سجيئة. حاولتُ إعداد وجبة طعام من المنتجات الطازجة التي اشتريتها بالأمس. مشاويري إلى السوبر ماركت، مثل المشوار الأول، كنتُ أرْتَبُ تفاصيلها وتوقيتها لكي أنجزها بأسرع ما يمكن. بالأمس استسلمت لإغواء آخر الخضروات الصيفية. فليفلة، حبة كبيرة من الكوسا، عنقود بندورة، حبة باذنجان

بقشرة مجعدة. أردت أن أعد ما يشبه الراتاتوي، ولكن بما أنني كنت أنظر باستمرار إلى الفراشة التي تقف بلا حراك فوق رسالة ميكا، فقد سكبت الكثير من الماء وتحول طبق الخضروات إلى هريس. لم يكن هناك ما أقلق بشأنه، لأن الفراشة لم تتحرك من مكانها، حتى كدت أشعر بأنها تراقبني.

«اللعة!»

لقد جرحت إيهامي، وأستحق ذلك. كان عليّ فقط أن أنظر إلى منضدة العمل بدلاً من التحديق باتجاه تلك الرسالة اللعينة وباتجاه الحشرة. تركت كل شيء. لوح التقطيع والخضروات والسكين. لا أحب منظر الدم. لم أحبه أبداً، لكن ذلك تفاقم منذ أن رأيت جسد بنجامان الذي فارق الحياة.

في الحمام أفرغت محتويات صيدليتي في المغسلة. أعتقد أنني أحضرت

بعض الضمادات عندما انتقلت إلى هنا. أنبوب مطهر أيضاً. ولكن أين؟ تدرجت زجاجة غسول الفم تحت الحوض، وسقطت أعواد القطن متناثرة لتغوص مباشرة في البالوعة.

«اللعة» ردّدت.

هل كان جرح إيهامي عميقاً؟ لم أنظر إليه، فربما يغمي عليّ. أخيراً ما هو المطهر. أزلت غطاءه بأسناني، وسكبت السائل الأصفر فوق إيهامي بالكامل. وييدي الأخرى التقطت لفافة الضماد. لا يوجد مقص هنا. لا يهم. قطعت الشريط اللاصق بأسناني. سالت نقاط الدم في المغسلة، مشكلةً بقعاً حمراء مغمورة بمطهر أصفر فوق بياض المغسلة. أخيراً، أصبح الوضع تحت السيطرة، والضمادة اللاصقة تحيط بإيهامي.

أعدت الأنابيب والزجاجات المختلفة إلى خزانة الأدوية وفتحت الماء في المغسلة. تسرب الدم بعيداً وتلاشت الخطوط الحمراء. حين عدت إلى المطبخ بحثت عن الفراشة ولم أجدها. لقد طارت بعيداً.

هذا الصباح أرسلت باقة زهورٍ إلى آنا. طلبتُ زهور أماريليس حمراء، كما في ليلة لقائنا. لا أعلم إذا كانت ستتذكرها. طلبت أن تُكتب بضع كلمات على بطاقة بيضاء توضع داخل الباقة. *الخريف قادم. أماندا.* مثل وعدٍ بأيام قادمة، أفضل.

22 سبتمبر. ها قد بدأ رسمياً أول يوم في الخريف. فتحت جميع مصاريع النوافذ. سبق أن سمحت للشمس بالدخول إلى منزلي منذ بضعة أيام. شمس الخريف أبرد من شمس الصيف اللعينة، وأقل وهجاً وكثافة، وقد تضفي بعض العذوبة.

استقبلتُ الهواء أيضاً والروائح. جلست هذا المساء على كرسي وسط غرفة المعيشة في تيار الهواء البارد. أخذت أرتجف لكنني لم أتحرك من مكاني. رحت أتنشق عطور الصنوبر، والراتنج، ورائحة التراب. نار مشتعلة في البعيد، ميزت دخانها المتناثر في كل اتجاه. الهندباء. هندباء؟ هل هذه رائحة الهندباء؟ ثم رائحة عشبية ممزوجة بعطر خفيف وأكثر حلاوة، تشبه العسل تقريباً. هل شممتُ رائحة هندباء مرة واحدة في حياتي؟ لا. لماذا إذن قررتُ بأن ما شممته هو رائحة هندباء؟ ليست لدي أدنى فكرة. إلا أنني مع ذلك شعرتُ بأن الأمر يتعلق بمئات من

نبات الهندباء المتواجدة بين الأعشاب حول منزلي. كأن الأمر حذساً عميقاً.

أغمضت عيني من جديد وتركت الروائح تغمر الحجرة وتحط فوق بشرتي.

في وقت لاحق، أعدت إغلاق النوافذ مع هبوط الليل، وقد تجمدت من البرد. اليوم تركت عطر الهندباء يدخل إلى منزلي.

«كيف حالها؟»

«لا بأس. ذهبنا نحن الثلاثة لرؤيتها يوم السبت»

«يان وكاسندرا وأنت؟»

«نعم. كانت مسرورة. استعادت شيئاً مما خسرت من وزن ولون»

«هل أحبت أزهارى؟»

حل صمت قصير في طرف الخط.

«الأزهار الحمراء؟ هل كانت منك؟» سأل ريشار.

«نعم»

«لقد وضعناها بعناية في إبريق ماء، قرب النافذة. كانت ذابلة لكن

أحداً لم يجرؤ أن يقول لها بأن تتخلص منها.»

أسعدني سماع كلمات ريشار، وصوته خصوصاً. لا أعلم ما إذا كانت

الوحدة قد بدأت تثقل علي، أم أن المسألة ببساطة هي أنني أشتاق إليهم.

لكنني لم أكن مستعدة بعد لمغادرة غابتي، ولا لرؤية بطن كاسندرا

المدور، والذي يذكرني ببطني الفارغ والميت.

«وكيف حالك أنت في منزلك هنا؟»

– لا بأس، أنا...»

ترددتُ. إذا قلتُها لن أستطيع التراجع وسأضطر للتنفيذ. هل أقولها إذن أم لا؟

«أظن بأنني سأقوم بجولة بعد ظهر اليوم... في الحديقة.»
استشعرتُ بابتسامة ريشار في طرف الخط.

«إنها فكرة جيدة. الهواء منعش.»

ابتلعتُ لعابي وأنا أسمع قلبي يدق بقوة كشمخ لقراري المتسرع.
«هل تذهب من وقت إلى آخر لزيارة قبره؟»

أعلم أنني فاجأته بتغيير الموضوع، لكنه سرعان ما تمالك نفسه:
«نعم. كنت هناك مساء أمس»

«هل تفتحت أزهاره؟»

«طبعاً. يان يذهب إلى هناك كل مساء»

«حسناً... حسناً.»

لا أحب أن يبقى قبره عارياً. وإذا لم أكن مستعدة للذهاب لزيارته،
وتخيّل جسده يتحلل فيه، أتمنى على الأقل أن يجد آخرون تلك
الشجاعة ويقدموا له التكريم اللائق.

«هل تريد أن أضع هناك شيئاً؟» سألتها ريشار بلطف.

«لا أدري...»

«يمكنني أن أطلب من يان أن يحمل معه شيئاً باسمك»

رحت أفكر وعياني تحديقان إلى يدي الشاحبتين وأظافري المتآكلة.
«قرنفل ربما... إنه لا يتأثر كثيراً ببرد الشتاء، أليس كذلك؟»

«سأجعل يان يتكفل بالأمر»

«موافقة. شكراً ريشار.»

وبينما كنا نتهياً لإنهاء المكالمة، أضفتُ على عجل:

«قرنفل الشاعر. إنه النوع الذي كان يحبه.»

أتمنى أن أدعو ريشار لتناول العشاء يوماً ما، لكنني لا أستطيع أن أطلب منه المجيء بدون يان وكاسندرا...

كان الطقس لطيفاً حقاً اليوم، كما قال ريشار. مع ذلك ارتديت معطفاً صوفياً طويلاً. فلم أكن معتادة على الخروج في الهواء الطلق، والإحساس بالريح القوية فوق بشرتي. داهمتني العطور، عطور الطبيعة. لاحظت أن العشب قد نما منذ خروجي السريع الأخير إلى سيارتي، للقيام بالتسوق الشهري. لقد وصل إلى ربليتي ساقي، وكان يجبرني على السير بخطوات كبيرة، ورفع ركبتي عالياً جداً. كان العالم الخارجي يفرض نفسه عليّ في شكل ألوان زاهية ومتناقضة. اللون الأخضر المصفرّ لأشجار الصنوبر المحيطة بالمنزل والتلال المحيطة. اللون الأزرق السماوي للسماء فوق القمم. لون زهرة الهندباء، الأصفر القوي، بين العشب الأخضر. اللون البنيّ لقطعة الأرض المستطيلة. اللون الوردي الباهت لمظلة مهجورة تحت شجرة الصفصاف الباكي. لون مظلةٍ ورديٍ باهت... تذكرت تلك الكلمات القليلة التي قرأتها في تقويم السيدة هيوغ: إقامة صالون الحديقة تحت شجرة بول. اقتربتُ من الشجرة بمشية كثيبة. لا شيء يشير إلى أن هذه هي شجرة بول، باستثناء تلك المظلة ذات القاعدة الصدئة. أزحتُ جانباً ستارة الفروع الطويلة التي تميل نحو الأرض، واخترقتها لأكشف الجذع. هنا أيضاً، نما العشب وغطى أي أثر لصالون حديقة. أمعنت النظر إلى اللحاء. هناك مستعمرة نمل لا تهدأ. ولا شيء سوى ذلك. لم أجد علامة تمكّني من تسمية شجرة الصفصاف الباكي هذه، بـ شجرة بول. لا يهم، عدتُ إلى

جوار المنزل، باتجاه الحديقة القديمة. لقد غزت الأعشاب الضارة قطعة الأرض. شوكيات قاتلة، والمفاجأة هي أن بعضها مزهر. لم أكن أعلم بأن الشوك يزهر. لا شك أن بنجامان كان سيسخر مني، لكنه لم يعد هنا، لذلك أستطيع أن أستغرب... انحنيتُ إلى الأمام مستندةً بيدي إلى ركبتني، ورحت أراقب تلك الكرات الشائكة الكبيرة ذات الزغب الطويل. كان بعضها أرجوانياً مشرقاً وجميلاً، وبعضها الآخر كان نيلياً عميقاً. لم أمد يدي لملامستها، لكنني تمنيت ذلك. أذهلني لونها الكثيف. وكذلك زغبها الطويل اللامع. احتاج الأمر إلى صوت انطلاق عصفور نحو السماء لكي أخرج من تألمي.

حاذيتُ بقعة الأرض المستطيلة القاحلة، وواصلتُ التجول حول المنزل. رأيت هناك، عند زاوية المبنى، الشجرة المثمرة التي لاحظتها تحت جناح الظلام. هل هي شجرة التفاح التي تحدثت عنها جوليا؟ أسرعْتُ الخطى حتى كدتُ أتعثر بحجر كبير مختبئ بين العشب الطويل. تسارع نبضي. لم تكذب جوليا. في زاوية المنزل، هناك شجرتا تفاح، لا واحدة، وها هي تحمل ثماراً صفراء مرقطة بالأحمر. هناك العشرات منها على الشجرتين وكذلك على الأرض بين الأعشاب الطويلة المحيطة بالجذعين. جلست القرفصاء. كان بعضها قد تعفن، والتهمت الديدان بعضها الآخر. يا للخسارة... فكرتُ. رفعتُ رأسي، أمسكتُ غصناً وأزحتُ الأوراق. كم هي جميلة ثمار التفاح على الشجرة، إنها مدوّرة وممتلئة.

تراجعتُ إلى الوراء قليلاً لكي يحيط ناظري بالشجرتين الممتلئتين بالثمار. بقيت عينايت مفتوحتين على وسعهما من الدهول. لقد رأيتُ لتوي شجرة تفاح. أول شجرة تفاح في حياتي. لقد ذهلتُ تماماً.

عندما وصلتُ إلى المنزل كانت الشمس قد غابت. كشف لي الجانب الخلفي من الأرض عن درب ترابي صغير نمت فوقه النباتات ويوفر إمكانية الوصول إلى الغابة في مسار مباشر، لكنني لم أجرؤ على السير فيه. كان مقدار المشاعر كبيراً وكافياً ليوم واحد.

اكتشفتُ قطة أمام درج المدخل. كانت قبيحة، هزيلة، لونها رمادي، ومغطاة ببقع حمراء. هل هي براغيث؟ كانت عيناها الخضراوان تحدقان بي. خفتُ، ولوحت بذراعي صارخة:

«ابتعدي»

خلعت فردة من حذائي الرياضي ولوحت به تحت أنفها، لكي أفهمها بأنني أستطيع أن أرميها به إذا لم تبتعد. في النهاية نهضت ببطء وابتعدت دون عجلة، بمشية مرنة. تابعتها بعيني حتى اختفت في الغابة، ثم أسرع بفتح بابي الأمامي وأغلقتُه خلفي بقفل مضاعف.

لا. لا أريد قططاً في منزلي، فلطالما شعرت بالخوف منها. ألا تكفي الفراشة!

في المطبخ، وأنا أخلع معطفي الصوفي، فكرتُ بالتفاحات الصفراء والحمراء على الشجرة، ثم بالتفاحات الأخرى المتساقطة والمتحللة على الأرض. خسارة، فكرتُ من جديد. جلستُ إلى طاولة المطبخ، ورحت أبحث بين تقاويم السيدة هيوغ. ثم بدأت أقلب صفحاتها بشكل أسرع وأسرع، وعيناوي تبحثان وتدققان. تركتُ أحدها جانباً وبدأتُ بالثانية. سقط أحد التقاويم أرضاً لكنني لم أهتم. وفي التقويم الثالث لم أجد ما أريد. في الصفحة التاسعة من التقويم الرابع، وجدتُ ما أبحث عنه. بعد كومبوت التفاح هناك وصفة فطيرة التفاح على طريقة تاتين.

بحركة محمومة أيضاً ذهبْتُ لإحضار حقيبة يدي، واستخرجت منها دفتر ملاحظات يعود تاريخه إلى الفترة التي كنت لا أزال خلالها أعمل في البلدية. انتزعت منه ورقة، أمسكت بالقلم المتصل به، وبدأت أكتب بأنفاس متقطعة ويد متعركة.

عزيزي ميكا، عشاءم والآخرين،
ما رأيكم بالقدوم إلى منزلي الجديد لتناول الشاي في
يوم من أيام الأربعاء هذه؟

هكذا يمكنكم أن تتركوا لي هذه الزهيدة التي
اشتريتها لعمان، ويمكننا مناقشة فكرة تسمية
غرفة الموسيقى باسم بنجامان (أعتقد أنه كان
سيحب ذلك كثيراً)

سيتمين عليكم فقط ركوب القطار إلى كليرمون
فيران ثم آخذكم من هناك بالسيارة. أرجو أن
تعطوني إجابة في أقرب وقت ممكن

سأكتب رقم هاتفني على ظهر الورقة رسالة نصية
منكم ستفي بالغرض
أنا

أنا

أعترف بأنني شعرت دوماً بالغيرة من إيليا، عاملة المقسم الجميلة في بيت الشباب والثقافة. في فترة إعداد مشروع وجبة الحساء الشعبي، كانت في إجازة مرضية ولم أكن قد صادفتها. أذكر أول احتكاك بيننا قبل أربع سنين في فصل الربيع، عبر زجاج المدخل.

كنت قد بدأت الخروج مع بنجامان منذ بضعة شهور فقط. وقفت أقرب مغادرته بيت الشباب والثقافة ممسكةً بحقيبة يدي المشدودة إليّ، وحذاء الكعب الرفيع الذي يسبب لي ألماً في قدمي. كان لدي اجتماع مهم في مركز العمل المجتمعي واضطرت أن أخرج البدلة الرسمية والكعب العالي. كنت سأبدو غريبة لو أنني دخلت إلى بيت الشباب والثقافة مرتديةً مثل تلك الثياب، هذا ما اعتقدته. لبثت إذن أنتظره في الخارج. وعلى الرصيف، كنت أسمع ضحكات الأطفال والمراهقين، وغناء الجوقة المختلطة. ومن وقت لآخر كان يدوي صفير شخصٍ ما.

مرت الدقائق وسمحت لنفسي بإلقاء نظرة عبر المدخل الزجاجي لقاعة الاستقبال. هناك رأيتهما. هي في مقعدها متكئة قليلاً إلى الخلف، وهو مستند باسترخاء إلى المكتب. كانا يضحكان. ما صدمني أولاً هو جمالها، ذلك النوع من الجمال الذي كان يحبه بنجامان حتماً. كانت سمراء، شعرها مربوط إلى الخلف بعصابة رأس حمراء بوهيمية، وأنفها مزين بحلقة. كانت نقيضي. كنت متأكدة من أنها تتصرف بارتياح مع فتية بيت الشباب، وأنها تستمع إلى الموسيقى التي يستمع إليها بنجامان.

تراجعت خطوة كي أحجب نفسي عن نظراتهما. كنت أشعر بأنني أثير السخرية في بدلي الكحلية وحذائي الأبيض بكعبه الرفيع. كنت أشعر بأنني أثير السخرية وأنا أقف على ذلك الرصيف، أنتظر وحدي، بينما هما يضحكان. ماذا أفعل؟ هل أنصرف؟ كنت أريد ذلك بشدة، ولكنني أريد بشدة أيضاً أن ألقى نظرة أخرى عليهما. نظرة واحدة، أريد أن ألتقط اللحظة المصيرية. الشرارة في عيونهما. هكذا وقفت جانباً وانحنيت من جديد نحو المدخل الزجاجي. كانا في الداخل قد استعدادا الجدية وبدأا يتحادثان بحيوية. كانت تحرك يديها اللتين تتراقص حولهما أساور مذهبة لا بد أنها ترنّ، فيما هو يهز رأسه باقتناع. لم أكن حذرة بالقدر الكافي، فلم أر ذلك الطفل الذي اقترب مرتطماً بي وهو يدفع الباب. صوت قبضة الباب جعلهما يلتفتان ولمحني بنجامان. لم يظهر عليه الحرج. لقد ابتسم لي.

ما الذي فعلته؟ لا زلتُ ألعن نفسي على ذلك... لقد هربتُ مثل البلهاء شادةً إليّ حقيبة يدي. سمعته يتناديني في الشارع لكنني لم أستدر. «لماذا ذهبتِ بتلك الطريقة؟ سألتني ذلك المساء في الهاتف «لماذا لم تدخلي وتنضمي إلينا؟»

منعني الخجل من الإجابة، لكنه فهم بطبيعة الحال. «تعال لي لأخذي مساء الثلاثاء وسأعرفك على إيليا. سوف ترين كم هي لطيفة»

لأنني تركته ذلك المساء وتسببتُ بتفويت فرصة مشاهدة عرض سينمائي، طلب مني بنجامان أن آتي لاصطحابه يوم الثلاثاء القادم، حاملةً باقة زهور.

«أنت تحلم»

«ألن تسأليني ما هي زهوري المفضلة؟»
«لديك زهور مفضلة؟» سألته باستغراب رغمًا عني.

«نعم. قرنفل الشاعر»

«لم أسمع به في حياتي...»

«مساء الثلاثاء، أيتها ال بوبيت⁽¹⁾، مساء الثلاثاء.»

كان قد بدأ يناديني بوبيت، بصيغة التصغير، نظراً لصغر حجمي ربما، أو لشعري الأشقر. التزمتُ بالمطلب، نادمةً ومطبعة. في متجر الزهور دهشتُ من الأنوثة والرقّة التي تنبعث من زهور بنجامان المفضلة، القرنفل الأبيض الجميل المرقط بالأرجواني. صنع لي البائع العجوز في متجر الزهور باقة ملفوفة بورق أبيض لؤلؤي وشريط من اللون نفسه.

«هل هذه هدية؟»

«نعم»

أشرتُ له إلى ورقة الإهداء التي يتعين لصقها على الشريط. اخترت عبارة «إلى حبيبتي»، بمثابة انتقام إجمالي.

لم يكذب. لقد كانت إيليا شابة لطيفة جداً. استقبلتني يوم الثلاثاء التالي بابتسامة مشعة، معبرة عن سعادتها بلقائي أخيراً. عزيت نفسي بأن صدرها لم يكن ممتلئاً جداً. تفاهات أنثوية للغاية. ألقيت بفأس القتال بعيداً. لقد كانت لطيفة، مزاجها رائع على الدوام، وترسل لي التحيات بانتظام من خلال بنجامان. لم أستطع أن ألومه على شيء.

(1) دمية صغيرة الحجم.

ومع ذلك، حرصتُ أن أبقى على غيرتي مثل نار صغيرة لا يجوز السماح لها بأن تخدم. فقط من أجلي. إنها طريقتي في الشعور بالخوض في مخاطرة مشوّقة، والشعور بلدغة المنافسة، والخوف من فقدانه والفخر الرائع بأنه لي. لي وحدي.

كانت زهور قرنفل الشاعر تظهر من وقت لآخر على طاولة غرفة المعيشة، وكأنها اعتراف مني بالذنب، ما يجعل بنجامان يبتسم.

إنه أمر مدهش. منذ بعض الوقت، بدأت الذكريات السعيدة تعود. أخذت صورة بنجامان المشوهة تتلاشى تدريجياً. وبات باستطاعتي أن أمضي ساعات جالسة على الدرجات أمام منزلي، تاركةً الريح الباردة تلسع وجهي، وأنا أتذكر بعينين مغمضتين بعضاً من لحظات تقاسمناها. بدأ البرد ينتشر ببطء حول منزلي، وثمار التفاح تتكدس في سلة غسيل وضعتها عند جذع الشجرتين. لقد تركت رسالة إلى جوليا هيوغ لكي تأتي وتأخذ بعضاً منها، لكنها لم تتصل بي مرة أخرى. اقترحتُ على ريشار أيضاً أن يأتي ويأخذ بعضاً منها.

«حالما يتاح لي وقت.»

لا يزال يعمل بدوام كامل، ويذهب لزيارة آنا عدة مرات في الأسبوع، ويتولى إدارة البيت والوجبات. كان يان يمد يد المساعدة، لكن كاسندرا التي بدأت تتعب أكثر فأكثر، كانت تستلزم كل انتباهه. لم أطرح أي سؤال عن الحمل أو الطفل، الطفل الآخر الذي حل محل مانون. لا أريد معرفة شيء.

بقية الوقت، عندما لا أسمح للذكريات أن تعود، كنت أغوص في مفكرات السيدة هيوغ. أقرأ وأعيد قراءة نصائحها المتعلقة بالبستنة. القضاء على أعشاب الحديقة بالماء والخل والملح.

تحضير التربة لاستقبال الحياة. أعجبني هذا التعبير حقاً.

بصيلات وخضروات للزراعة في الخريف.

حرصتُ أن آخذ وقتي بالمرور على كل صفحة من صفحات تقاويم السيدة هيوغ، العشرة. يجب ألا أترك شيئاً للصدفة، ولا أدع أي تفصيل يفوتني.

لا أعلم متى خطرت لي لأول مرة فكرة الاستحواذ على حديقة خضرواتها. كل ما أعرفه هو أنني فكرت أنه إذا نجح الأمر معها، فلماذا لا ينجح معي؟

في الوقت الحالي، اكتفيت فقط بقراءة دفاترها ومحاولة حفظها. رحت أقوم بجولة يومية في قطعة الأرض، واعتدتُ أن تكون الجولة في نهاية اليوم. لاحظت بأن أزهار الشوك تموت مع تقدم الخريف. أحزنني الأمر لدرجة أنني كنت أشعر بالألم شديد في معدتي أثناء قيامي بجولتي اليومية.

صادفت القطعة الرمادية الهزيلة مرتين. لم تقترب مني، لكنها راحت تراقبني من بعيد، بعينين خضراوين ساطعتين. أبقيتها على مسافة مني من خلال التلويع بذراعي أو بحدائي، من حين لآخر. لا أعتقد بأنني أخفتها.

وصلت رسالة ميكا النصية بعد أيام فقط من تسليم رسالتي إلى ساعي البريد.

يمكننا الحضور يوم الأربعاء 2 أكتوبر. هل هذا الموعد مناسب لك؟

استيقظتُ هذا الصباح في تمام الساعة. أصبح الاستيقاظ أقل صعوبة منذ توقفي عن أخذ المنومات. جلست إلى الطاولة أمام فنجان قهوتي، أعيد قراءة تعليمات السيدة هيوغ بخصوص وصفة تاتين. يبدو أن سرها يكمن في مضاعفة عيار القرفة وإضافتها إلى الكراميل مباشرةً. من النافذة المفتوحة كنت ألحح الصقيع الذي تشكل فوق العشب. البيت بارد للغاية ولم أشغل التدفئة بعد. سأفعل غداً، قلتُ لنفسي. في الصمت الكتيمة لهذا الصباح الضبابي، بدأت بالعمل. أخذت كومة القشور تكبر، ووجدت نفسي أفكر رغباً عني بالقطة الرمادية. فقد بدأ البرد، وهي وحيدة في الخارج... واصلتُ تقشير تفاحاتي، ثم قطعتها إلى شرائح دون أن أجرح أصابعي. ثم جاء وقت خلط الزبدة وعصير الليمونة وقرن الفانيليا والسكر والقرفة في قدر عميق.

لا بد أنه لا تزال لدي في البراد قطعة قديمة من الجامبون. إنني هكذا، لا أستطيع التركيز على مهمة واحدة لوقت طويل. لا بد أن يجنح ذهني بعيداً. تركت القدر وذهبت إلى الثلاجة. هناك بالفعل قطعة متصلبة، متبقية من لحم الجامبون. وضعتها في وعاء. سأذهب لاحقاً لكي أطعمها إياها، مع الحرص على عدم جعلها تقترب مني. لطالما خفتُ من القطط، بمخالبها الحادة، والطريقة التي تنظر بها إليك، مثل الحيوانات المفترسة. أنا جبانة، مثل يان. مكتبة سُر من قرأ

شرد ذهني وصولاً إلى وسط ليون، مساءً يوم من شهر أكتوبر. ليس أي مساء، بل عيد الهالوين، الحفلة التذكيرية التي أقامها بيت الشباب والثقافة. أصر بنجامان أن ارتدي زي ساحرة لكي يتماشى مع تنكره في زي قطة سوداء.

«القطة السوداء غير مخيفة...»

«أخبري شخصاً يصدّق الخرافات، بذلك...»

هكذا كان بنجامان، لديه جواب على كل شيء. زُينت الصالة الرياضية بورق كريب برتقالي وأسود. جاء جميع الأولاد مع آبائهم. انخرط معظمهم في اللعبة. أشباح تتجاور مع هياكل عظمية، ويقطينات تتحالف مع مومياءات.

«هل ترغبين بمشروب كوكتيل الموت؟» اقترح بنجامان.

كان هناك طاولة وُضعت لصق الجدار، وعليها غطاء أبيض رسم بعض الأولاد فوقه عناكب سوداء. وفوقها وعاء كبير مليء بعصير لونه يشير الارتياب. لون برتقالي فاقع.

«هل هذا شراب بدون كحول؟» سألتُ بهيئة متشككة.

«طبعاً، ما كان سينقصني غير ذلك»

«ممم... وبدون إضافات؟»

رفع عينيه إلى السماء.

«يُرجى من الساحرة الفاتنة مفسدة البهجة ومريضة الوسواس القهري،

أن تترك الآخرين يستمتعون بوقتهم.»

لم أظهر بأنني فهمت وتركته يملأ كأسه بالسائل البرتقالي الفاقع.

«يوجد ملونات حتماً في هذا السائل...»

لم يعد يستمع إلي فقد لمح لتوه، وسط الحشد، طبيبين بمعطفين

أبيضين، وكل منهما يحيط عنقه بسماعة طبية.

«ها هما»

في تلك الليلة التقينا رسمياً بصديقة يان. كل ما عرفناه هو أن اسمها

كاسندرا وأنها يتواعدان منذ ستة شهور.

بينما كان بنجامان يلوح لهما بيده وهما يقتربان بين الحشد، لاحظت بأن يان ليس مرتاحاً جداً بزي الطبيب، على عكس الفتاة التي ترافقه. كانت سمراء بعينين زرقاوين جميلتين، وابتسامة واثقة فوق شفتيها، غير منزعة إطلاقاً من هيئة الطبيبة الجراحة التي تقنعت بها ولا من القبة الخاصة بالأطباء. تعانق بنجامان و يان وأخذ كل منهما يربت على ظهر الآخر.

«كيف حالك أيها الرعديد؟»

«جيد. وأنت يا صاحب الصفائر النتنة؟»

هكذا تجري الأمور دوماً بين الأخوين لوزان، على هذا النحو المجاني والسهل. بدت كاسندرا مستمتعة، وهي التي عرفت عن نفسها، دون أن تنتظر أن يقوم يان بذلك.

«مرحباً، أنا كاسندرا.»

تبادلنا القبلات، وبدورنا، قدّم كل منا نفسه لها.

«سعيدة بلقائكما»

«نحن سعيدان أيضاً.»

شدّ بنجامان كُمّ معطف أخيه، الأبيض.

«طبيب؟ هل هذا يثير الخوف؟ أقصد هل يثير خوف أحدٍ غيرك؟»

نظر إليه يان نظرة عابسة. تولت كاسندرا الرد بابتسامة مبتهجة:

«لنقل بأنه كان من السهل أخذ هذه الملابس من المستشفى»

«هل أنت طبيبة؟»

«أنا في مرحلة التأهيل. طبية متدربة.»

لبشنا مذهولين قليلاً من المفاجأة. لم يكشف لنا يان عن ذلك.

«هل التقيتما في المستشفى؟» سأل بنجامان مندهشاً.

- لا، في الجامعة. حرم كلية الطب ملاصق لحرم كلية الكيمياء.»
لقد أنهى يان تدريبه كمهندس. في حرم كلية الكيمياء، وهو يعمل
الآن في شركة صيدلانية ضخمة. اتهمه بنجامان بأنه خائن يعمل لصالح
الرأسمالية، ويمثابة الرد، كلمّة يان بنبرة «النخب الثرية». كانت المشاركة
على مائدة عائلة لوزان، أمراً مسلياً...

لطالما خشيتُ من الاعتراف بذلك، لكن الأشياء المشتركة بيني
وبين يان كانت أكثر منها بيني وبين بنجامان. كان يان شخصاً خجولاً
متحفظاً ويهتم بأشياء كثيرة. وحين تعرفتُ على كاسندرا، وجدتُ فيها
طبعاً شبيهاً بطبع بنجامان. كانت مفتوحة، تتصرف بأريحية في أي
موقف، طموحة. ومع ذلك، فإن التكامل هو الذي قامت عليه علاقة كل
منا بشريكه، وليس التشابه.

في تلك الأمسية تعرفنا على كاسندرا حول الكوكيتيل الهرتقالي الفاقع
وأطباق فوشار الذرة. كانت هي الابنة الكبرى لأسرة فيها أربع فتيات،
طبيبة متدربة، ناشطة ضد الختان في أفريقيا. وتعمل سكرتيرة لجمعية
فتيات من الخارج، الناشطة على الأرض. لقد أخبرتنا بكل سرور عن
حياتها، وقناعاتها، وصراعاتها قبل أن تسألنا عن حياتنا. هل كان لدينا
حياة؟ نعم، كان لـ بنجامان حياة بالتأكيد. تحفيز الشباب، وإيقاظ
عقولهم، وغرس بذور أحلام المستقبل فيهم، ومحاولة النضال، بطريقته
الخاصة، ضد التعطل الذي أصاب السلم الاجتماعي وضد انعدام الأمل.
وأنا؟ كنت معجبة به، لا يسعني إلا أن أتفق مع كلامه.

هل نذهب للرقص؟ اقترحت كاسندرا، بعد أن أفرغنا كؤوسنا التي
أعيد ملؤها مراراً.

«ها. سوف نتبعك!»

أحتفظ بذكرى بهيجة عن أمسية الهالوين تلك في الصالة الرياضية لبيت الشباب والثقافة. ذكرى الطيبين اللذين يرقصان فوق حلبة الرقص، وكاسندرا ترفع ذراعيها إلى الأعلى، ويان الأكثر تحفظاً، والقطعة السوداء التي أصبحت هدفاً لأربعة أشباح يلاحقونها بين الحشد، ويحاولون مباغتتها للإمساك بها من الخلف. لا أظن بأنني كنت ذلك المساء ساحرة مخيفة، مع ذلك أصرّ ميكا أن يهنئني على تنكري الناجح. في الساعة 23 كنا جميعاً نقف على الرصيف تحت مطر بارد. اقترحت كاسندرا فكرة تناول كأس أخيرة، على أن يكون هذه المرة مشروباً كحولياً في مقهى، ووافقنا. كانت تلك هي المرة الأولى التي نجلس فيها نحن الأربعة إلى طاولة، ولم تكن الأخيرة.

أعدت فطائر تاتين، واجتاحت المطبخ رائحة زكية. ألقيت نظرة مليئة بالخوف إلى النافذة المطلة على الحديقة. غطت زجاجها غشاوة ضبابية خفيفة، وخفت أن يظهر على حافتها خيال القطعة العجفاء، وقد جذبتها الرائحة. لكنها لم تظهر. أطفأت فرن الغاز، وأخرجتُ بحذر الفطائر الثلاث التي أعددتها. ثلاث... نعم، إنه تصرف غبي، وأتخيل بأن هذا كثير، ولكن لا أحد يعلم، فالشبان في هذا العمر يتصفون أحياناً بالشراهة.

اشتريت في أحد الأيام أثناء التسوق، زجاجتي صودا. أتخيل بأنهم سيفضلونها على نقيع الفاكهة أو على القهوة بالحليب...

عدتُ إلى غرفة نومي، ارتديت معطفي الصوفي وفتحتُ باب المنزل وييدي وعاء فيه لحم جامبون. إذا لم أشأ أن تقترب القطعة من المنزل ينبغي أن أضعه بعيداً، عند تخوم الغابة. لبست حذاء رياضياً قديماً

وأُسْرعت محاولةً عدم تبليل ساقي بالندى. لم يظهر الوحش في الأفق. مشيت بضع خطوات بين أشجار الصنوبر، ثم وضعت الوعاء على الأرض. أَلقيت نظرة أخيرة حولي. لا توجد قطرة رمادية في الأفق. عدت إلى المنزل دون إبطاء. بقيت لي بضع ساعات لكي أستحم وأختار الثياب الملائمة وأقوم ببعض أعمال التنظيف. كم مضى من الوقت دون أن أستضيف أحداً؟ إذا استثنينا زيارة جوليا المرتجلة، مضى شهران تقريباً. آخر زيارة كانت من آنا وريشار، اللذين جاءا يخبراني بحمل كاسندرا. شهران لم يستقبل المنزل كائناً حياً سوى عندما مرت فراشة حمراء مرصعة بالأصفر. ربما حان الوقت لذلك؟

خشيت للحظة ألا تسير سيارتي، فقد شخر المحرك ثم خمد. أوقفت التشغيل، وأعدت المحاولة بالضغط بقوة على دواسة الوقود. لحسن حظي، بدأ المحرك يهدر، وتنهدت الصعداء. ماذا كنت سأفعل؟ هل كنت سأطلب من الجيران أن يذهبوا لجلب الفتية من محطة قطار كليرمون؟ لا، إنهم لا يعرفونني. بل إنهم لا يعلمون حتى بوجودي، ولا يعلمون بأن منزل السيدة هيوغ أصبح مسكوناً من جديد. ماذا إذن؟ هل كنت سأخطر الأولاد بأنني لن أتمكن من إحضارهم، وسأطلب منهم العودة إلى ليون؟

لا يهم، فالسيارة قد انطلقت، ودخلت ببطء في الطريق الصغير الذي يحاذي منزلي. عكست لي مرآة الرؤية الخلفية صورة فم صبغته بحمرة وردية طفيفة، وشعر نظيف وغير مربوط. بالنسبة للملابس، انتقيت أبسطها. جينز، وكترزة بيضاء. قمت بتعطير معصمي من الداخل بوضع قطرات من ماء اللافندر. إنه عطر خفي ولكن له حضوراً، وتُشعرنى رائحته بالطمأنينة. قبل الانعطاف إلى الطريق الرئيسي عند التقاطع

التالي، تحققت من الوقت على لوحة القيادة: إنها الثانية ظهراً بالضبط، الثانية ظهراً في الثاني من أكتوبر. خلال نصف ساعة سأكون في المحطة أمام الأولاد الذين تعامل بنجامان معهم لسنوات. لم أكن مطمئنة حقاً، لكنني أعلم بأن عليّ أن أكون كذلك.

ما أن وصلتُ بموازة سيارة متوقفة أمام الأبواب الزجاجية، حتى رأيتهم. ميكاء، الذي نما بمقدار عشر سنتيمترات على الأقل منذ لقائنا الأخير في الربيع، عصام، الذي يرتدي قبعة، وصبي آخر، هو ناثن، إذا لم تخني الذاكرة، ببشرة شاحبة، وشعر أسود قاتم. ليس هناك الكثير منهم. ثلاثة فقط. ماذا حدث للآخرين؟ حاولت تجاهل الخيبة التي جعلتني أشعر بغصة في الحلق. فتحتُ نافذة سيارتي ولوحت لهم لكي ينتبهوا إلي. كان عصام هو من رأيي وطلب من زميله الانضمام إلي.

«مرحباً يا سيدتي»

«مرحباً. اصعدوا إلى السيارة. لا تقفوا في البرد»

«تبدلين بحالة جيدة.»

جاءت الملاحظة من ميكاء ولم أستطع منه نفسي من الابتسام.

«هذا من لطفك. هل كانت رحلتكم جيدة؟»

أوماً الثلاثة برؤوسهم وهم يربطون أحزمة الأمان. صعد ميكاء في المقعد الأمامي، ويبدو أنه سيكون هو مُحَدِّثي الأساسي. كان يثبّت بين ركبتيه المشدودتين، علبةً صغيرة وردية محاطة بشريط. أثرت التركيز على الطريق.

«أنتم ثلاثة فقط؟ ماذا عن الآخرين؟»

«أه! هذا السؤال، أجاب ميكاء بنبرة جادة، لا يوجّه لنا... بل لآبائهم»

«آباؤهم؟»

«لقد تم ضبط أليكس وهو يدخن، لذلك حُرِمَ من الخروج. والدة إيلي رفضت أن يخرج يوم الأربعاء، ووالدة تيو لا تريد أن يستقل القطار كل هذه المسافة بدون شخص راشد. أما لولا...»

توقف عن الكلام وأخذ يتفحصني.

«أنت لا تعرفين لولا، أليس كذلك؟»

«لا، بالفعل لا أعرفها»

«إنها الشخص الجديد في المجموعة. إنها المغنية. أرادت المجيء،

لكنها قالت بأن مجيئها غير مناسب... باعتبارها لا تعرفك»

«كان عليكم أن تخبروني بذلك. بالطبع كان يمكنها القدوم.»

استدار ميكا نحو زميله الآخرين موجهاً لهما نظرة حادة كأنه يقول

لهما «ألم أخبركما؟».

«كانت أيضاً واقعة في حب بنجامان إلى حد ما، وبالتالي...»

خمد صوته في منتصف الاعتراف، وكتمتُ أنا ابتسامة حزينة أخرى.

«حسناً، إذن... حتى أي ساعة سُمح لكم بالبقاء؟»

«حتى الساعة الرابعة والنصف يا سيدتي، لأن علينا بعد ذلك أن

نستقل القطار الذي ينطلق في الساعة الخامسة وعشر دقائق مساءً.»

أجريتُ حساباً عقلياً. كانت المهلة تمنحنا ساعتين نتناول خلالهما

وجبة خفيفة، نحن الأربعة. إنها مهلة كافية.

«ربما تريدون سماع شيء من الموسيقى؟»

تركْتُ ميكا يختار محطة الراديو التي يريدُها وأمضوا بقية الطريق

في الغناء.

«أوه... إنه منزل بعيد حقاً»

خرجت الملاحظة من فم ميكا عند وصولنا إلى المنزل واصطفاق البوابة.

«ألا تخافين في الليل وأنت بمفردك هنا؟» سأل عصام بقلق.

هزرت رأسي بمرح تعبيراً عن النفي.

«أنا لستُ جباناً ولكنني لا أميل للإقامة في مكان سكن مشابه»، أضاف.

أخذ ناثان يسخر مبالغاً بالضحك. أشار ميكا إلى قطعة الأرض التي غزتها الأعشاب الطويلة.

«يجب جز هذه الأعشاب يا سيدة لوزان. هل لديك أحد يساعدك؟» هزرت كتفي بالنفي.

«لا. ولكن يفترض ألا يكون هذا العمل معقداً. كل ما أحاجه هو شراء جزازة عشب»

«والذي عنده واحدة، تدخل عصام. ولكن المسافة بعيدة بعض الشيء لإحضارها...»

وافقته، وأنا أشعر بقدر متزايد من الاستطراف.

قال ميكا: «أرسلني رسالة نصية عند شرائك جزازة العشب. سوف آتي وأتولى قص عشب حديقتك»

«هذا لطف منك، يا ميكا، ولكنني أعتقد أن لديك أشياء أكثر إمتاعاً للقيام بها في عطلة نهاية الأسبوع...»

«أنا أتولى في كثير من الأحيان قص الأعشاب في حدائق جيراننا. أتي خلال العطلة المدرسية. ويعملني بعض القطع النقدية»

وحين أدرك أنه قد يساء فهمه، سارع للقول:

«لا أعرض عليك ذلك من أجل المال، المسألة هي أن هذا العمل ليس للنساء.»

وافقه عصام، بينما لم يبدُ أن عصام متيقن من الموضوع. فتحت قفل الباب قائلة:

«حسناً، سأرسل لك رسالة نصية. إذا كانت تلك هي رغبتك.»

مع هذه الكلمات الأخيرة دخلنا إلى منزلي البارد.

«هل اشتريت منزلك بضمن باهظ؟»

ذلك كان هو السؤال الوحيد الذي ألهمته إياه ردةً منزلي، الكتيبة.

«لم أشتريه، استأجرته»

«ألم تكوني مرتاحة في بيتك السابق؟»

«بلى. ولكنني لم أرغب بمواصلة العيش فيه.»

لم أقدم مزيداً من الإيضاحات، ولم يطلب مني أحدهم ذلك. وصلنا إلى غرفة المعيشة التي لا تزال تنبعث منها رائحة القرفة والتفاح.

قال عصام: «البرد قارس هنا»

«هل لديك تدفئة على الأقل سيدة لوزان؟» قال ميكاً بقلق.

«نعم. لدي تدفئة»

«أتريدين أن أذهب لأرى إذا كانت تعمل؟»

ضحك ناثان في عِبه.

«كفاك تملقاً»

«أنا لا أتملق»

«بلى. تتملق بشدة»

«أغلق فمك»

«أشكرك يا ميكا، لكنني لم أشغل التدفئة بعد، هذا هو سبب البرودة الشديدة. ولكن لا عليك، سأحضر لكم أغطية»

كان من الواضح أن الأغطية المبطنة بالصوف لا تتناسب مع تصور الفتية الثلاثة في مطبخي، للموضة. سمعتهن يتضاحكون خلف ظهري أثناء قيامي بتسخين إحدى الفطائر في فرن الغاز.

«تبدو كأنك جدّة»

«أنت الجدّة»

«غير معقول! عصام جدّة؟ بشعره الأصهب؟»

«لستُ أصهب!»

تركتهن يناكف أحدهم الآخر وقمت بتسخين قليل من الماء لكي أصنع لنفسي نقيع أعشاب وأخرجتُ لهم كؤوساً وزجاجة الصودا.

«هل تحبون فطيرة التفاح؟»

أجابتنى ثلاثة وجوه بنظرة جدية قبل أن يستأنفوا مناكفتهم لبعضهم بعضاً، ولكن بصوتٍ خفيض هذه المرة.

رن جرس مؤقّت الفرن معلناً أن الفطيرة باتت ساخنة. ساعدني ميكا في نقل الصحون والملاعق الصغيرة إلى الطاولة. باشر ناثنان بتقطيع الفطيرة واضطرتُّ للتدخل عندما لاحظت الكارثة التي يتسبب بها.

«شكراً لك ناثنان، سأكمل المهمة»

بعد لحظات لاحقة، جلسنا جميعاً حول الطاولة.

«حسناً، شهية طيبة»، أعلن ميكا.

لم ينتظروا أن ينهي جملة لكي ينقض كل منهم على حصته، فيما أبقيت يديّ حول فنجانني الساخن. ومن خلال البخار المتصاعد، رحّت أنظر إليهم وهم يأكلون بنهم. لستُ موهوبة في الحديث إلى

مراهقين، وكنت أتساءل عما يمكن أن أقوله لهم. كان من شأن بنجامان أن يجد بسهولة ما يكلمهم به. ولو كان حاضراً، لكان الجميع يقهقهون ضاحكين.

«إذن يا سيدة لوزان، كيف تجري الأمور في منزلك الجديد؟»
الشكر لـ ميكا بفمه الممتلئ، لأنه وفرَّ عليَّ المحادثة.
«الأمور جيدة....»

شككتُ بأن شؤون البستنة تثير اهتمامهم، لذلك اكتفيت بالكلام عن شجرتي التفاح.

«لدي شجرتا تفاح جميلتان خلف المنزل. تعطيان الكثير من الثمار. سأحتاج إلى مساعدة في أكلها كلها. أتريدون أخذ بعضها إلى بيوتكم؟»

هز عصام وناثان أكتافهما، غير واثقين تماماً مما إذا كان باستطاعتهما القبول بدون شروط، بينما وافقَ ميكا على الفكرة.

«وكيف تسير الأمور في بيت الشباب والثقافة؟» سألتهم.
عندها بدا أن ميكا تذكر شيئاً ما فجأة. ترك ملعقة جانباً ونهض بقفزة واحدة.

«أين هي؟» وجَّه سؤاله لزميليه.
«ماذا؟»

أخذ ينظر حوله وعصام يكرر متسائلاً:

«عن أي شيء تبحث؟»

«الهدية، أيها الغبي!»

أجبتُ أنا مشيرةً إليها فوق منضدة العمل.

«أظن بأنها هناك...»

ارتسمت على وجهه ابتسامة أسف، وتناول العلبة الوردية وقدمها لي وهو ينظر إلى قدميه.

«هدية من مجموعة الموسيقى بالكامل.»

وجدت صعوبة في ابتلاع غصّتي، واحتجّت إلى ثوانٍ للكلام.
«شكراً»

عاد ميكا إلى مكانه، وأخذت ثلاثة أزواج من العيون تحديق إلي. فهمت بأنهم ينتظرون أن أفتح الهدية التي لم تعد موجهة لأحد بعد الآن. باشرت بفك الشريط بيدين مرتجفتين قليلاً، ثم مزقت الغلاف بعناية. ظهرت أمامي دمية قماشية ترتدي تنورة وردية اللون وقميص بحار. شعرها البني يتدلى على جانبي وجهها في ضفيرتين. عيناها عبارة عن كرتين سوداوين لامعتين. كان الأولاد الثلاثة ينتظرون ردة فعلي، لذا أجبرت نفسي على الابتسام، ومحوت كل أثر لمشاعر الحزن في عيني.
«شكراً. هذه دمية جميلة جداً.»

عادت جلبة الملاعق وأطلقت العنان لدمعة وحيدة دون أن أدع أحداً يلاحظ إطلاقاً.

«وماذا عن صالة الموسيقى تلك؟» سألتُ بعد دقائق من الصمت. قربتُ الفطيرة من ميكا لكي يقوم هو وزميله بسكب المزيد منها في أطباقهم. علمتُ أن صالة الموسيقى أعيد تسميتها باسم بنجامان لوزان، وأن لوحة تذكارية سوداء قد وضعت هناك، وتظهر عليها صورته.
«سنعلن عن ذلك رسمياً في حفل عيد الميلاد الذي سيقام في بيت الشباب والثقافة.» أخبروني لاحقاً بأن المربي الجديد وصل في شهر سبتمبر، لكنه لا يفقه شيئاً، وفق كلام عصام:

«إنه قادم من بيت الشباب والثقافة في ليون 6، ما يجعل الأمر يبدو كأنه تدنيس للمقدسات»

«بيت الشباب في ليون مؤسسة خاصة بالأثرياء» أكد ناثن بقدر أكبر من الخجل.

«يزعم أنه سيجعلنا نعزف الجاز»

رحت أستمع إليهم يعبرون عن استيائهم وهم يُعملون ملاعقهم في فطيرتي.

«ألا تحبون الجاز؟»

«لا، نحن لسنا عجائز، نحن نعزف موسيقى الروك»

«ما كان هذا لِيُعْجِبَ بنجي»

«آه هذا مؤكد، كان بنجي لطيفاً، لكنه لم يكن يسمح بأن يفرضَ عليه شيء»

كنت متأثرة لسماعهم في ذلك المساء يذكرون بنجامان في مطبخ منزلي، ويجعلونه حياً إلى هذه الدرجة. كان لدي إحساس بأنه معنا إلى حد ما.

«ما كان سيسمح لهذا الفاشل بأن يغير كل شيء»

«لا طبعاً هل تذكر حين أراد شقيق الياس الأكبر أن يفرض رأيه»

«أوه يا إلهي!»

فتحوا أعينهم على وسعها، وكل منهم يَمضي أبعد من زميليه في تضخيم الأمر.

قال عصام: «أنا لا أزال أتذكر عندما فشلْتُ في الشهادة الإعدادية التوبيخ الحاد الذي وجهه لي، تذكران؟»

ضحك الآخران. كان التوبيخ بهدف إخراجه من حالة الخمول وتحفيزه على الدراسة وعدم الاستسلام للفشل نظراً لأن الأهل يدفعون له المال لكي يدرس.

«ومن بين الكلام الكثير الذي قلته رداً على كلام بنجي بأن الدراسة مجانية»

تولى ميكاً إكمال القصة وهو يغمغم بصوت أجش يفترض أنه تقليد لصوت بنجامان:

«والضرائب يا عصام؟ هل تعرف ما هي الضرائب؟ تعال لأشرح لك»

ثم أمسك بأذن عصام الذي حاول التملص وهو يضحك. ارتد كرسيه إلى الوراء وفي اللحظة الأخيرة تمكن من التمسك بطاولتي كيلا يسقط أرضاً. انتهى الأمر بأن انفجر الفتية الثلاثة بالضحك.

«أيها الأحق! ألا تستطيع الثبات في مقعدك!»

«أنت هو الأحق، أيها المهرج»

لم يشهد منزلي هذا القدر من الحياة...

لقد أتوا على زجاجتي الصودا، واستنفدوا مخزون شتائمهم وذكرياتهم عن بنجامان. أسفتُ لعدم وجود تلفزيون لدي. ماذا يفترض أن يفعل ثلاثة مراهقين في بيت ناءٍ مساء يوم أربعاء؟ رفعتُ الأطباق عن الطاولة، بعد أن أكدتُ لـ ميكاً بأنني لا أحتاج إلى مساعدة في هذا الأمر.

«أنا آسفة لعدم توفر تسليات كثيرة أقترحها عليكم... ولا حتى ورق

اللعب»

«سنحضر لك واحدة في المرة القادمة» قال ميكاً.

توقفتُ حاملةً كومة الأطباق بين يدي. لم يخطر لي أبداً أن يكون لديهم أدنى رغبة في العودة.

«لدي فكرة» هتف عصام «إذا كان لديك أوراق، يمكننا أن نتسلى بلعبة باك»

بعد مباراة من لعبة باك، وصفها الفتية الثلاثة بأنها «من الألعاب المخصصة للعامة»، رغم أنهم لعبوها بحماس، مستبسلين في حساب النقاط التي يحرزها كل منهم، حان الوقت بالنسبة لي لمرافقتهم إلى المحطة. حمل كل منهم كيساً مليئاً بالتفاح.

بدا ميكا بمظهر جدّي وهو يودّعني أمام البوابات الزجاجية.

«شكراً جزيلاً على دعوتك لنا، سيدة لوزان»

«على الرحب والسعة»

«لا تنسي... بخصوص جازاة العشب»

وعدته بذلك، ورافقتهم بالنظر ملوحةً لهم بيدي.

حين وصلت إلى المنزل، وحيدةً في الليل الذي كان قد حلّ، شعرتُ ببعض الثقل في قلبي. وقبل الدخول، قمتُ بجولة سريعة على تخوم الغابة. كان الوعاء هناك، فارغاً. لقد أكلت القطة المريضة الطعام. خشخشَت مفاتيحي في القفل، وصرّ الباب الثقيل وهو يفتح. شممتُ في الردهة الروائح التي فاحت عصراً، رائحة مثبّت شعر عصام، ورائحة جلد سترة ناثن. وشيء آخر أكثر نفاذاً في الجو، هو ذكرى ضحكاتهم.

اليوم سمحتُ لـ «فتية» بنجامان بدخول منزلي...

أشتريتُ عربةَ جرّ يدوية حمراء اللون، خاصة بالحدائق. امتلأت بكل المعدات التي حشرتها في صندوق سيارتي هذا الصباح: مجرفة، دلاء، رفوش، قفازات بستنة. مع خلّ وملح (لأجل وصفة السيدة هيوغ الخاصة بمبيد الأعشاب الطبيعي)، وسماد نباتي عضوي خاص بالخضروات، وآخر مناسب لـ الزهور. في الغد، سأستلم جزاة العشب. كانت الآلة قد نفدت من المخزون، لكن البائع أكد لي أنها ستكون عندي غداً قبل الساعة الرابعة مساءً، بعد شحنها من مستودع في ليون. لم أكن في عجلة من أمري حقاً.

عرفتُ أننا في وقت الظهيرة، من خلال الشمس الضبابية العالية في السماء. لم يتبخر الندى وكان البرد قارساً. لففت نفسي بمعطفي الصوفي ووضعت قبعة بنجامان البيروفية القديمة على رأسي. لم أكن أعلم حتى أنها بين أشياءي...

وفقاً لقراءتي المتأنية لدفاتر السيدة هيوغ، فإن الخطوة الأولى التي تنتظرني هي إزالة الأعشاب الضارة من قطعة الأرض. إزالة الأعشاب الضارة مع الحرص على إزالة جذورها، ثم رش خليط الخل والملح والماء في التربة.

أوضحت السيدة هيوغ في إحدى صفحاتها: الهندباء والقراص والبرسيم نباتات تجذب الحشرات المنتجة للعسل، وهي ليست نباتات ضارة، بل بالعكس تماماً. اترك بعضاً منها في أطراف الحقل. تذكرتُ هذا جيداً.

تخيلتُ بشكل عابر الهيئة الضاحكة التي كانت سترتسم على وجه بنجامان إذا رأيته أرتدي مثل هذه الملابس، حذاء بلاستيكي طويل، وقبعة بيرونية، وقفازات بستنة كبيرة الحجم، وأتعباً للذهاب إلى الحديقة. هل ستفعلين ذلك حقاً يا بوبيت؟ فأبتسم لنفسي. نعم سأفعل ذلك... ألا تصدقني؟

جثوت على ركبتيّ وأمسكت بأول نبات شوكي مشعر بكلتا يدي. لم يكن جذره عميقاً جداً، واستطعت اقتلاعه دون صعوبة وقمت برميهِ بعيداً باتجاه عربة الجر. بعد قليل سأنقل كل ذلك بعيداً. عندها خيل لي بأنني سمعته يجييني. أنا أراقبك يا بوبيت...

لم يوقفني المطر الناعم الذي أخذ يتساقط عند العصر. أنهيت نصف العمل تقريباً، ولا يمكنني التوقف بعد هذا الشوط الجيد الذي قطعتهُ. لكنني عندما غربت الشمس، وجدت نفسي مضطراً للتوقف. جمعتُ الأعشاب الضارة في عربة الجر. ذات يوم بعد أن أنتهي من اقتلاع كل الأعشاب الضارة، سأصنع لها صندوقاً صغيراً، أضعها فيه، لكي أحولها إلى سماد. غطيّت عربة الجر بملاء قديمة، ورتبت أدواتي تحت مقدمة سقف المنزل، البارزة، قرب واجهة الجص المستهلك، وخلعت حذائي البلاستيكي في المدخل.

كنت متجمدة من البرد، منهكة، ولكنني راضية. كنت على وشك دخول الحمام للاستمتاع بحمام ساخن، عندما سمعت مواء حزيناً خلف الباب. تسمرتُ في مكاني. منذ الطبق الأول الذي قدمته للقطعة، لم تعد إلى الظهور مجدداً، حتى استنتجت أنها مريضة أو أسوأ من ذلك... لكنها هنا هذا المساء، تطلب الطعام.

«سأعطيك علبه سردين، على أن تنصرفي بعد ذلك»

كنت أكلهما عبر الباب وأنا أعيد ارتداء ثيابي التي ألقيت بها أرضاً. في المطبخ الذي أصبح دافئاً بعد أن شغلت التدفئة، فتحتُ لها علبة سردين وأضفتُ فوقها جلد دجاجة مشوية كنتُ قد تناولتها بالأمس.

«إنني قادمة، إنني قادمة»

استمرت تموء بشدة. فتحتُ الباب بعد أن اتخذتُ الكثير من التدابير الاحتياطية، خوفاً من أن تحاول دخول المنزل، قافزةً في وجهي... فتحتة جزئياً، بما يكفي فقط بمرور يدي التي تحمل الطعام. كان منظر القطة بشعاً. فروها الرمادي مبلل بالمطر وملتصق بجُلدها، وعيناها محمرتان.

«خذي، كلي هذا الطعام واذهبي للاحتماء بأشجار الصنوبر» رميت لها الطعام بعيداً كيلا تبقى عند عتبة بابي، قريبةً من ساقي فتتمكن من تمزيقهما. لكنها لم تتحرك، بل اكتفت بالنظر إليّ وهو تموء.

«ماذا تريدان؟ بعض الحليب؟ لكنك لم تعودي قطة صغيرة...»

مع ذلك، أغلقتُ الباب وعدتُ إلى المطبخ حيث ملأْتُ وعاء عميقاً بالحليب من أجل الزائرة المستاءة.

«دعيني وشأني هذه المرة.»

بدلاً من أن أضع الوعاء بهدوء، أسقطته من يدي فوق دواصة الأحذية، ثم صفقتُ الباب قبل أن تفكر القطة في مهاجمتي. لا أعلم إن كان الحليب هو ما تريده، ولكنني أسرعْتُ، على أية حال، إلى الحمام. وهذه المرة، صممتُ أذنيّ عن مواثها الذي سرعان ما تلاشى.

لقد أمضت الليل فوق دواصة الأحذية عند عتبة باب منزلي. لاحظتُ ذلك في اليوم التالي، عندما خرجتُ مرتديةً ثياب البستنة، مستعدةً لمتابعة إزالة الأعشاب الضارة. كانت هناك متكورة على نفسها أمام بابي، وتمالكت نفسي في اللحظة المناسبة قبل أن أصرخ»

«اذهبي، اذهبي من هنا»

لم تتحرك. بالكاد رفعت رأسها النحيل نحوي. ترددت لبضعة ثوان. لا يبدو أنها تتمتع بصحة جيدة، ويمكنني المخاطرة بالمرور من فوقها دون أن أفقد إحدى رجلي ساقِي... والواقع أن القطة لم تقفز حتى عندما مررت من فوقها. لقد لاحظت أنها لم تتناول كل علة السمك، وأنها لم تلمس جلد الدجاج وأن الحليب كان قد انسكب على دواصة الأحذية. إذن ما الذي كانت تريده إذا لم تكن جائعة؟

تركتُ السؤال معلقاً وأنا متجهة نحو الحديقة. كان هذا النهار أكثر إشراقاً، بل أن حزمة من أشعة الشمس كانت تسكب بعض الدفء من فرجة جميلة على ظهري، في منتصف الصباح. حين عدت إلى المنزل لتناول الغداء، كانت القطة الرمادية قد اختفت.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، أخرجني صوت محركٍ وصريُّ إطاراتٍ، خلفي مباشرة، من أفكاري وعملي الشاق. عرفتُ السيارة قبل أن أميز الوجه خلف الزجاج الأمامي. الـ توينغو الزرقاء. تركت مجرّفتي وقفازي وذهبت للترحيب بالضييفة.

كانت جوليا هيوغ ترتدي اليوم فستاناً بنياً أنيقاً، وحذاءً يغطي الكاحل بكعب عالٍ. كان شعرها معقوصاً بصورة احترافية للغاية. مندوبة حقيقية لوكالة سفر.

«آسفة، أنا دائماً أباغتك»، قالت ضاحكة.

مدت كل منا يدها للأخرى وشدت عليها مع شعور بأن الأمر مضحك للغاية.

«وصلتني رسالتك بخصوص التفاح» أضافت.

«آ، نعم، التفاح»

«لم يسعفني الوقت للرد عليها، ولا للمرور في وقت أبكر. اعذرني»
«لا مشكلة»

«لقد واجهتُ بعض المشاكل مع تريستان بشأن الشقة. الخلاصة أن الأمر انتهى الآن. لقد وضعناها برسم البيع»

وجهت نظرة شملت ملابس - التي لا تزال أنثوية بشكل رقيق - ثم تاهت نحو الخلفية. اتسعت عيناها وأضاءت ابتسامة سعيدة وجهها.

«هل تعيدين تأهيل حديقة أمي؟»

هزرت رأسي فمالت قبعتي البيروفية ميلاناً خطيراً فوق جبينتي.

«نعم. أحاول القيام بذلك... لم يسبق أن مارستُ البستنة أبداً في

حياتي...»

«هل اشتريتِ كتباً تعليمية حول الموضوع؟»

شعرتُ ببعض الارتباك حين اضطررت أن أعترف لها:

«لا، لقد... لقد سمحت لنفسي بقراءة دفاتر السيدة والدتك. كل

شيء موضح فيها بدقة.»

انفجرت جوليا بالضحك مسرورة على ما يبدو من هذا الاعتراف.

«صحيح. مع إرشادات أمي لا حاجة لأي كتاب تعليمي»

أشارت إلى البقعة التي ركنتُ فيها كل أدواتي.

«هل أستطيع أن أنظر إليها؟»

«طبعاً.»

اتجهنا معاً نحو البقعة التي ستصبح حديقتي المستقبلية، أنا بحدائتي

البلاستيكي الطويل، وهي بحدائنها النصفية ذي الكعب العالي.

«ماذا ستزرعين؟»

«في هذا الوقت، تُزرع الخضار الشتوية فقط... ملفوف، لفت، بصل، قليل من الخس وبعض أبصال زهور الربيع أيضاً»
 أومات جوليا برأسها، وازدادت ابتسامتها إشراقاً.
 «أه، أوصت والدتك أيضاً بزراعة الفراولة الآن. لقد كتبت تقول بأن الأرض تبقى محتفظة ببعض الحرارة المخزنة من الصيف»
 «أرى بأنك عملت حقاً بجد»
 تجولت في الأرض وهي تبدو كأنها طفلة عادت إلى حديقة والدتها بعد سنوات طويلة.
 «هل تزيلين الأعشاب الضارة؟»
 «نعم»
 «وما هي المرحلة التالية؟»
 «تهوية التربة. لقد اشتريت شوكة لهذا الغرض»
 «واو، قد يأخذ الأمر منك وقتاً» هتفت جوليا بإعجاب.
 «لدي كل الوقت.»
 لم تعرف بماذا تجيب، واغتتمت الفرصة لكي أشير لها إلى شجرتي التفاح وسلة الغسيل التي لا تزال مليئة بالثمار.
 «خذي منها بقدر ما تشائين»
 «هذا لطف منك.»
 سارت باتجاه سيارتها وعادت حاملة قفصاً خشبياً صغيراً.
 «هل أنت متأكدة أنني أستطيع أن أملأه؟»
 «بالطبع»

بينما ذهبت لقطف التفاح، ارتديت قفازي العمل من جديد واستأنفتُ عملية إزالة الأعشاب الضارة. غداً سأنتهي من كل هذا، ولن يبقى أمامي سوى رش التربة بالمنتج المنزلي القائم على الخل، وانتظار بعض الوقت قبل تهوية التربة.

«ومرجل التدفئة، هل يعمل جيداً؟»

جعلتني جوليا أجفل. لم أرها حين عادت.

«مرجل التدفئة؟ نعم إنه يعمل على أكمل وجه.»

بقيت متسمة أمامي، حاملة صندوقها المليء بالتفاح. فهمتُ بأنها لا ترغب بالانصراف على الفور، وأنها تحاول إجراء محادثة، لذا اقترحت عليها دون يقين:

«هل ترغبين بتناول قطعة من فطيرة تاتين؟ لقد قمت بصنع بعض منها يوم الأربعاء ولكن الكمية كانت كبيرة بعض الشيء...»
جاء ردّها سريعاً، مليئاً بالحماس:

«بكل سرور، أعشق فطيرة تاتين»

قمتُ بتسخين ما تبقى من القهوة في الميكروويف، ونصف فطيرة في الفرن. جلست جوليا إلى طاولة المطبخ وهي تتصفح باستمتاع دفاتر أمها، التي لا تفارقني أبداً.

«هل أصبحت مصدر إلهامك أم ماذا؟»

«ربما يكون الأمر كذلك...»

ابتسمت جوليا، وأنا أيضاً بمزيد من الخجل.

«كان من شأنها أن تسر بسماحك تقولين ذلك»

لم أعرف بماذا أجيب، واكتفيتُ بمراقبة الفنجانين اللذين يدوران في الميكروويف.

«هل وجدتِ عملاً في كليرمون فيران؟»

«نعم، ربما... أنتظر نتيجة لقاء عمل جرت بالأمس. وأميل إلى الشقة بالنجاح»

«هذا خبر جيد»

«نعم»

«وبخصوص الشقة هل حصلتِ على معلومات؟»

«نعم، أنتظر نتيجة مقابلاتي لكي أوقع العقد»

«جيد. أنت إذن في الطريق الصحيح.»

ارتفعت صافرة الميكروويف ووضعتُ الفئجانيين على الطاولة. انتشرت رائحة الفطيرة الساخنة في المطبخ، وذهبتُ لإخراجها من الفرن.

«جاءك ضيوف يوم الأربعاء إذن؟»

«نعم. البعض.. جاؤوا لتناول وجبة خفيفة.»

كانت تراقبني وأنا أعود باتجاهها حاملةً طبق الفطيرة بين قفازي المطبخ.

«هل لديك أبناء أخوة؟ أبناء أخوات؟»

حاولتُ إيقاف النصل الذي انغرز في حلقي عندما خطرت ببالي كاسندرا، ببطنها المنتفخ.

«لا، لا. أولاد من بيت الشباب والثقافة في ليون.»

هل كان ما قلته أكثر، أم أقل مما يجب؟ حدتني جوليا بنظراتها.

«هل كنت تعملين هناك؟»

«لا»

تركْتُ هذا الصمت المليء بالتساؤل، يطول، إلى أن وضعتُ الطبق فوق الطاولة.

«زوجي كان يعمل هناك.»

أحسستُ بأن عينيها أخذتا تبحثان عن خاتم زواج في إصبعي، أو عن معطف رجل في زاوية من الحجرة. كان قفازا المطبخ يخفيان يدي، ولم يكن هناك أي معطف لرجل في هذا المنزل.
«سامحيني إذا أظهرتُ تطفلاً...»

تنحنحتُ مترددة، ثم حسمتُ أمرها وقالت:

«هل انفصلتما؟»

لم تعكس عيناها أي فضول خبيث، بل عكست اهتماماً مهذباً فقط.
«لقد توفي قبل أربعة شهور»

أكملت دون أن أترك المجال لأي فراغ:

«اشربي قهوتك. سترد.»

وعدتُ إلى منضدة العمل حيث تناولتُ من فوقها مجحفاً للفتاثر، مع طبقين وشوكتين. حين عدتُ، كانت جوليا جامدة، ولم تلمس قهوتها.

«أعتذر عن سؤالي»

«ليس عليك أن تعتذري»

«كان تطفلاً مني»

«إطلاقاً»

تبادلنا تلك الكلمات بسرعة كبيرة، دون أن تجرؤ إحدانا على النظر إلى الأخرى.

«هل أقطع لك حصة كبيرة أم صغيرة؟ سألتُ لكي أضع حداً لهذا الحديث»
«كبيرة»

عادت ابتسامة لترتسم فوق وجهها المصطبغ بالحزن، ولكنه بقي مبتسماً مع ذلك.

«إنها لذيذة»، أعلنت بعد بضع ثوان.

ابتلعنا حصتنا ونحن نتكلم عن الطقس الرديء القادم وعن أسعار العقارات في كليرمون فيران، ولم نعد نقرب من المواضيع الحساسة. في لحظة مغادرتها، بينما كانت جوليا جالسة خلف مقود سيارتها، سألتني بعفوية:

«أعتقد أن بإمكانني العودة لرؤية الحديقة عندما يصبح عملك فيها في مراحل متقدمة؟»

لم أتمكن من كبح ابتسامة صادقة.

«بكل تأكيد»

«أبقني على اطلاع إذن...»

رحت أراقب السيارة الصغيرة تبتعد، وكلّي لهفة للعودة إلى أرضي.

هذه الليلة عادت للهجوم. سمعتها تموء أمام نافذة غرفتي، كأنها تعرف مكاني بالضبط. اقشعرّ بدني. ما الذي تريده هذه القطعة مني؟

عليّ أن أتصدى هذا الصباح لبناء حوض صغير للسجاد. أربعة ألواح خشبية يجب غرزها في الأرض بعد حفر التربة قليلاً، بحيث يتم تثبيتها دون مسامير أو مثقاب، وهي غير متوفرة لدي على أية حال. يشير الصقيع الذي يغطي العشب إلى أن درجات الحرارة ستكون متدنية جداً.

أثناء استعدادي للخروج، سخنت قدر صغير من الحليب على الموقد، وسكبته فيه القليل من دقيق الشوفان وبعض العسل. إذا كانت القطعة لا تزال عند عتبة بابي، فإنها ستحصل على وجبة من العصيدة الساخنة. كانت هناك. لم أجفل هذه المرة من الخوف، لأنني كنت أتوقع رؤيتها. وضعت الوعاء بخشية أقل من المرة الماضية، ونظرت إليها وهي ترفع رأسها لكي تتشمم الطعام، وتغطس فيه أنفها. حين بدأت تعلق منه، اغتنمت الفرصة لكي أتخطاها وأهرب إلى حديقتي.

لا أزال أشعر بالفخر نفسه وأنا أتأمل قطعة الأرض التي قمت بإعادة تأهيلها حديثاً. بعد وقت قريب - ربما غداً - يمكنني البدء بالزراعة. أحتاج إلى مراجعة بعض التعليمات أولاً، والتعمق في دفاتر السيدة هيوغ والذهاب لشراء بذور من بائع البذار المحلي. لكل شيء وقته.

بينما كنت أحدد بالمجرفة أماكن تثبيت الألواح الخشبية، فاجأني رنين هاتفني. لم ألتق اتصالاً منذ بعض الوقت، إذ سئم ريشار من مكالماتنا التي تنتهي دوماً بـ «تعالى لزيارتنا يوماً - سوف أرى»، ولا يزال من الصعب الوصول إلى آنا في دار الرعاية، وأمي فهمت أن عليها أن تتركني وشأني. هكذا تركت مجرفتي جانباً إذن وخلعت قفازي وحذائي البلاستيكي، وعدت إلى الداخل، بعد أن خطوت من فوق القطعة الرمادية التي غفت فوق ممسحة الأحذية.

وصلتُ إلى هاتفي المحمول رسالة نصية. هل اشتريتِ جزازة العشب؟ ميكا. ابتسمت وأعطيت نفسي الوقت لأجيبه بوضع كلمات: نعم، اشتريتها. وهي بانتظارك. ما رأيك بيوم السبت؟

استيقظتُ تلك الليلة، على صوت صفير الريح في أشجار الصنوبر، وصوت انهمار المطر على السطح. ورغم الضجيج الصاخب، كنت أسمع المواء، مواءً ضعيفاً وحزيناً. تمنيت فقط لو أنني أستطيع تجاهله. سحبْتُ بطانيتي إلى أسفل ذقني. أدت ظهري للنافذة وعدت للنوم. لكن الرياح كانت شديدة، والمطر غزيراً، والقطة وحيدة في الخارج. يمكنني الاقتصار على إعطائها علبة تونة، لكنني كنت شبه متأكدة من أنها ستواصل المواء. ليس هذا ما تريده من جلوسها فوق ممسحة الأحذية أمام منزلي نهاراً، ومقابل نافذة غرفة نومي ليلاً. يجب أن أواجه الحقيقة.

أعتقد بأنني غفوت، وعندما صحوت بعد وقت قليل، لم أعد أسمع شيئاً في الخارج. لا صوت رياح ولا مطر ولا مواء. لكنني نهضت وتناولت علبة تونة من خزانة حائط تحت الحوض.

«القطة؟ القطة؟»

وقفتُ أمام عتبة منزلي في الليل البارد، وأخذت أناديها، وأحاول أن ألمحها. رحت أهرع علبة التونة على أمل أن أجذبها بواسطة الرائحة. القصة هي أنني كنت أشعر تقريباً بالقلق. هل وجدت مكاناً جافاً تلجأ إليه؟ حدثتُ إلى محيط الغابة. لا شيء. انتظرتُ بضع ثوان أخرى، لكن المسألة باتت واضحة. لقد اختفت القطة. تركتُ التونة فوق ممسحة الأحذية وعدتُ إلى سريري.

صباح يوم السبت، كانت تلك السماء الزرقاء، وتلك الشمس الساطعة، فرصة سانحة. من المقرر أن يصل ميكا إلى محطة كليرمون قبل عشرين دقيقة من انتصاف النهار. قمت بإعداد طبق من اللزانيا لتتناوله قبل أن يباشر كل منا بمهامه. لأنني أنوي الاستفادة من هذا الطقس الجيد لزراعة البصيلات الأولى من الزنبق، والجاسنت، واللحلاح والنرجس. أما بالنسبة للخضروات، فلم أستطع أن أحصل من بائع البذار إلا على بضعة فصوص من الثوم وكيس من بذور خس الحمل. هذا ليس سيئاً كبداية. هل تستمتعين بوقتك يا بوبيت؟ تردد صوت بنجامان المرح في أذني. نعم، إنني أستمع. أنا التي أمضيت ثلاثين عاماً دون أن يكون لي علاقة مع التراب، يجب أن أعترف بأنني أستمع كثيراً بالعزق، والحفر، والانغماس جسداً وروحاً في هذه المهام التي تسبب لي الإرهاق في المساء، وتسمح لذهن بالهرب بعيداً. أثناء عزق الأرض، كثيراً ما أفكر بالسيدة هيوغ، بالطاقة التي بذلتها لملء غياب بول. وأفكر بـ بنجامان الذي قال لي يوماً بأنني سأجد الارتياح في الريف. كيف عرف ذلك؟

«أتظنين بأنني غول؟» هتف ميكا وأنا أُخرج من ثلاجتي كأس موس الشوكولا بعد الطبق الهائل من اللزانيا الذي تناولناه للتو.
«يجب أن تتزود بالطاقة قبل أن تبدأ بجز الأعشاب»
«صحيح، ولكنني بهذه الطريقة لن أستطيع الحركة...»
ولكنه لم يتوانى عن التهام طبق موس الشوكولا، بل ولعق الشوكولا المتبقية، مباشرة من الوعاء، تاركاً لطخات بيّنة على أنفه.
«هل هذه قطتك؟»

كنتُ أنقع أطباقي في الحوض، فاستدرتُ. وقف ميكا مشيراً إلى القطة العجفاء التي كانت تقف على الحافة الخارجية للنافذة.

«لا. إنها قطة شاردة، تأتي لطلب الطعام من وقت إلى آخر.»

أصدر ميكا صوتاً مبتهجاً ينادي القطة.

«رغم قولك بأنها ليست قطتك، لديّ انطباع بأنها لا تنتظر ما

تقولينه»

«ما معنى ذلك؟»

«معناه أنها قررتُ ذلك بالنيابة عنك. لقد تبئتُك»

لم أستطع كبح ابتسامتي فوق حوض أطباقي. خاصة أن صوت

بنجامان كان حاضراً: نعم يا بوبيت، أعتقد أن ميكا على حق..

علا صوت محرك جزازة العشب حاملاً إلى منخريّ رائحة بتزين

وعشب طازج. زرعْتُ بصيلاّتي بعناية. حفرت حفرة يبلغ ارتفاعها

ثلاثة أضعاف ارتفاع البصلة. أوصت السيدة هيوغ باستخدام زجاجة

بلاستيكية لتشكيل الحفرة بدلاً من استخدام أداة الغرس التجارية،

ثم سحب الزجاجة، ووضع البصيلة، بحيث تتجه جذورها في قعر

الحفرة إلى الأسفل. ثم رش قليل من السماد الطبيعي. ثم إغلاق الحفرة

بالتراب. وإعادة الكرة.

من وقت لآخر، كانت قامة ميكا المنهمك بجدية فوق جزازة العشب،

تعبر مجال رؤيتي.

«هل تتدبر أمرك يا ميكا؟»

«ماذا؟»

رفعتُ صوتي للتغطية على ضجيج المحرك:

«هل تبلي بلاء حسناً يا ميكا؟»

«على أكمل وجه يا سيدة لوزان، على أكمل وجه.»
كان يرفع إبهامه إلى أعلى مع ابتسامة فخر على وجهه.
لقد عمل كلانا بشكل جيد. اسودّت أظافري وغطى التراب يدي،
فيما امتلأ شعر ميكاً بنثرات العشب. سكبْتُ له فنجان شاي أخضر
بالنعناع.

«آسفة، لم يبق لدي صودا...»
«لا مشكلة. في بيت عصام أيضاً يقدمون الشاي بالنعناع»
«هل تريد سكر؟»
«لا. انظري ماذا أحضرتُ لك»
استدرتُ ورأيتَه يحمل علبة أوراق لعب، تحمل شعار محطة وقود.
«لقد أخبرتُكِ يا سيدة لوزان بأنني في المرة القادمة سأحضر لك
ورق لعب.»
لم أعد أعرف ماذا أقول. لبثت متأثرة للغاية أمام لعبة ورق بسيطة.
«هل تعرفين لعبة معركة كورسيكا؟»
«ماذا؟»
وجدتُ صعوبة في جمع شتات ذهني.
«معركة كورسيكا. تجري بين لاعبين. هل تريدان أن أعلمكِ كيف
تلعبينها؟»

«نعم... نعم، أريد ذلك.»
أوماً برأسه راضياً، وبدأ يُخرج أوراق اللعب ويخلطها.
«أتريد شيئاً من موس الشوكولا يا ميكاً؟»
أجاب الصبي الذي زعم، قبل ساعتين، بأنه ليس غولاً:
«أوه نعم، هناك فراغ صغير في معدتي.»

لعبنا معركة كورسيكا إلى أن غابت الشمس خلف شجرات الصنوبر.
هزمني ميكا بشدة خلال الجولات الخمس ولم ييأس من رؤيتي أفوز
مرة واحدة.

«يجب أن تكوني أسرع عندما تصلين إلى المنتصف، يا سيدة
لوزان»

«هذا ما أفعله يا ميكا، ولكنك تسبقني بثانيتين دوماً.»
في السيارة التي تقلُّه إلى المحطة، فتح ميكا عينيْن مدهولتين على
وسعهما، عندما أعطيته ورقة نقدية من فئة الألف فرنك، لشكره على
مجيئه لقص العشب.

«ماذا دهاك، يا سيدة لوزان! هذا كثير جداً!»
«لا بد أنك استخدمت مصروفك الأسبوعي لدفع ثمن تذكرة القطار
إلى كليرمون»

«لا، يا سيدة لوزان، والديّ هما اللذان...»
«لكنك قدمت لي خدمة جليلة»
«مع ذلك يبقى هذا مبلغ...»
بقيت جملة معلقة. رأيته يضع الورقة النقدية بخجلٍ في جيب
معطفه.

في المحطة، نسي ضبط النفس الذي يتصف به عادةً وارتأى أن
يقبلني على خدّي وهو يشكرني على الوجبة والشاي، وكل شيء...
ملمّحاً إلى الورقة النقدية المحفوظة في جيبه.

«لا تنس التفاح في صندوق السيارة...»
امتثل وذهب لتناول الكيس الذي ملأته بالتفاح لأجله.
«مع كل هذه الأشياء يا سيدة لوزان، سنصاب بالإسهال!»

على وقع هذه الكلمات الشاعرية الرقيقة، رحت أنظر إلى ذلك الفتى الطويل ذي الستة عشر عاماً، وهو يختفي في المحطة المزدحمة.

حين عدت إلى منزلي الصغير المنعزل، كانت القطة تنتظرني فوق ممسحة الأحذية. أخذت تموء عندما رأته أقرب، ثم نهضت وهي تقوّس ظهرها.

«دعيني أمر، يا قطة»

كأن القطة فهمتني وابتعدت جانباً وهي تعود إلى المواء. أخرجت المفاتيح من جيب المعطف وأنا أواصل مراقبة حركاتها بخشية. وجدت صعوبة، بسبب يدي المتجمدتين، في فتح الباب. لا بد أن الحرارة هي أربعة أو خمس درجات لا أكثر.

«ابقي في مكانك، سأجلب لك حصة من اللزانيا»

انطلقت من مبدأ أنها ستستمع إلي، كما فعلت قبل لحظات حين طلبت منها أن تفسح لي الطريق لكي أمر. ما كان يجب أن أفعل. ما أن فتحت الباب قليلاً حتى انسلت القطة من خلاله مثل البرق..

كيف سأخرجها الآن؟ هل عن طريق إخافتها؟ هل بالصراخ عليها؟ لم أفلح حتى في إخراج الفراشة...

«اخرجني من هنا، أنا لم أدعوك للدخول! أيتها القطة! هل تسمعي؟» رحت أتقدم في الردهة بخوف. كان باب غرفة نومي، وباب الحمام مغلقين، بالتالي فهي لم تدخل إليهما. الأمر أسوأ مما ظننت... لا بد أنها أصبحت في الصالون.

«أيتها القطة، اخرجني من هنا»

أشعلتُ الإنارة في غرفة معيشتي. على الطاولة، هناك وعاء موس الشوكولا نصف المستهلك. وفوق منضدة العمل هناك بقية اللزانيا وإبريق ماء. من الواضح أن القطة لم تكثرث لا بهذا ولا بذاك.

«أين تختبئين؟»

لكنها لم تكن مختبئة. كانت هناك، متكورة فوق مقعد السيدة هيوغ، الرمادي. كانت تحدّق بي بعينيها الخضراوين، خائفةً وتكاد ترتجف. في تلك اللحظة فهمت أن ميكا كان على حق، وأن القطة اختارتني بالفعل، وأني لم أكن أنا الطرف الذي يشعر بالقدر الأكبر من الرعب...

في ذلك المساء، رحت أتحرك في مطبخي، بحذر مع إبقائها تحت المراقبة للتأكد من أنها لم تغادر مكانها، في ذلك الركن من «الصالون» حيث وضعتُ لها حصّةً من اللزانيا ووعاء صغيراً فيه ماء. وبقيتُ أنا في «قسم المطبخ».

«هذا القسم لي أنا. دعيني أعتاد عليك بهدوء، اتفقنا؟»

بدت مستعدة للاستماع إليّ، وبقيت جالسةً على مقعدها الرمادي، وهي تمرر لسانها مراراً وتكراراً على شعرها الخشن التالف.

عليّ أن أعترف بأنني عندما ذهبت إلى السرير في تلك الليلة، كنت لا أزال أرتجف قليلاً. تركت للقطة بطانية من الصوف في طرف مقعدها، في حال شعرت بالبرد... أغلقتُ باب غرفتي بالمفتاح كي أستطيع النوم بعمق، ومن خلال القاطع، كنت أرصد الأصوات لاستباق أي محاولة قتل قد تُقدّم عليها القطة الرمادية... لم يصلني أي صوت، باستثناء صوت صفير الريح بين الأشجار في الخارج.

«بوبيت، أ تخافين حقاً من قطة ليس فيها سوى الجلد والعظام»

هذا المساء، سمحتُ لقطة رمادية أن تدخل منزلي...

لا أعلم كيف خطرت لي فكرة الاتصال بها. أتخيل بأن هناك دوراً ما للانقلاب الذي وقع بدخول القطة الرمادية في حياتي. «أوه! اللعنة» عبارة خرجت من فمي مدويةً، وجَهِتُها إليّ بالذات. في النهاية، ما الفرق إذا سمحتُ بإدخال قدر أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً من الحياة...

بدا صوت كاسندرا بالغ التأثير عندما فتحت الخط منذ أول رنة.

«أماندا؟ أماندا، أهذا أنتِ حقاً؟»

أنا أيضاً وجدت صعوبة في الكلام، وراحت الكلمات تتدافع في حلقي.

«كيف حالك؟ و... الجنين؟»

بقينا ثوانٍ لا تعرف أي منا ماذا تقول، وتخرج أصوات خافتة مخنوقة من حنجرة كل منا لتصل إلى الطرف الآخر.

«أماندا، لقد مضى وقت طويل... ظننتُ أنك حاقدة علي...»

تحطم صوتها، ورحتُ أبكي بصمت في مطبخي الصغير، تحت الأنظار المتسائلة للقطة الرمادية.

«لا، لا... ليس الأمر كذلك، أنت تعرفين...»

«أعرف، قاطعتني كاسندرا بعذوبة»

ساد صمتٌ آخر، كنا بحاجة إليه، أنا وهي. قفزت القطة من مقعدها، اقتربت مني بهدوء دون أن تفارقني عيناها.

«والجنين، كيف حاله؟ سألتها وأنا أمسح خديّ المبللين»

«لا بأس. إنها... إنها تستزفني. لا تكف عن الحركة ليلاً ونهاراً.»
من بين دموعي، رحت أضحك في السماعه، وضحك مثلي.
«أصبحتُ مثل الحوت يا أماندا. أظن بأن يان لم يعد يحبني»
«لا تقولي هذا...»

«لم يعد يرغب بي!»
«ليس لهذا علاقة. الأمر متعلق بالجنين. إنه يخاف من
تداخل ما، يشكّل عائقاً...»

انفجرت كاسندرا ضاحكة، ربما بسبب الهرمونات، أو بسبب
الاضطراب الذي أثارته عودتنا إلى التواصل. كنت سعيدة للغاية
بسماعها.

«تخيلي، يا أماندا، أنا الطيبة، وأنا من يخبر الأبوين عادةً بهذا النوع
من الترهات»

«نعم، ولكنك الآن أنت من الأبوين»
«يا إلهي، يا أماندا» كررتُ «كيف حالك؟ ماذا تفعلين بمفردك
هناك؟»

أصابنتي رعشة، فقد تمسّحت القطة للتو بريلة ساقي.
لماذا لم تهاجمني حتى الآن؟ هل تنتظر المحتالة أن أغفو لكي
تنقضّ علي؟

«ألا تريدان أن تأتي إليّ لكي تري بنفسك؟»
«ماذا؟» سألتُ كاسندرا.

«ألا تريدان المجيء إلى هنا، بصحبة يان وريشار؟ وكذلك أنا، إذا
تحسن حالها؟»

«نعم، نعم، بالطبع»

«عيد الميلاد خلال شهر من الآن. يمكنكم القدوم للاحتفال به هنا... لا أظن... لا أظن بأنني سأجد الشجاعة للخروج من منزلي، لكنكم إذا أتيتم أنتم...»

«نعم، يا إلهي كم تغويني الفكرة، دعيني أكلم يان وريشار في الأمر. أعتقد بأن أنا ستكون معنا أيضاً. لقد بدأت تستعيد عافيتها»
«حقاً؟»

«نعم، يفترض أن تعود إلى البيت خلال أيام قليلة. إنني سعيدة لأنها ستكون حاضرة في وقت ولادة الطفلة»
لم أعرف بمَ أجيب، فقد سدت حلقي غصة، لكن كاسندرا لم تهتم.

أتذكر بالضبط كيف أعلن لي بنجامان عن رغبته بأن يصبح أباً. كان ذلك مساء يوم اثنين، في شقتنا بضواحي ليون. كنا نستعد لتناول العشاء. أذكر بأن بنجامان أراد أن يعد بيتراً بيتية. صلصة طماطم، نقانق، وحصة مضاعفة من مبشور جبن الماعز والغرويير.

«عن أي شيء تبحثين يا بوبيت؟»
كنتُ أبحث في درج المطبخ، الذي نحفظ فيه بالأدوية والضمادات والمطهرات وكذلك - لا أدري السبب - بمظاريف الرسائل ودفاتر الطوابع. قلبتُ المحتويات ولم أتمكن من العثور على ما أبحث عنه.
«علبة حبوب منع الحمل، هل رأيتهَا؟»

لم يصلني جواب منه. كنت قد استأنفتُ البحث. هل تركتها في حقيبة يدي؟ مستحيل. العلبة لا تغادر الدرج.
«هل رأيتهَا يا بن؟» حاولتُ مجدداً.

«ماذا؟»

كان قد مرر رأسه عبر باب المطبخ، مع ابتسامة غريبة على وجهه. لم أكن قد فهمت بالطبع.

«ألم ترّ علبة حبوبي؟»

«بلى... بلى... أظن أنها على طاولة السرير»

«طاولة السرير؟»

«نعم. تلك الطاولة بالذات»

«أنا لا أتركها أبداً على طاولة السرير»

كان قد رفع كتفيه والابتسامة المريبة لا تزال على وجهه، لكنني لم أظهر أي رد فعل. ذهبتُ إذن للبحث عن علبة حبوبي في غرفة نومنا. وكما قال بن، كانت العلبة بالفعل فوق طاولة السرير، الأمر الذي لم يكن مفهوماً على الإطلاق. والشيء الأهم هو لماذا كانت فارغة. لم يبق فيها شيء، ولا قرص واحد، ولا حتى ورقة الوصفة التوضيحية.

«بن؟»

رد من الصالون، صارخاً:

«نعم؟»

«العلبة فارغة، لم يبق فيها شيء... هل تعرف تفسيراً لذلك؟»

انتظرتُ لحظات، وكنت أستعد لمناداته من جديد عندما سأل:

«لم يبق فيها شيء؟»

«لا»

«لا شيء أبداً؟ هل أنت متأكدة؟»

عندها ألقى نظرة أخرى داخل العلبة. ما غاب عن نظري في المرة الأولى، ظهر لي عندئذ: يوجد بالداخل ورقة صغيرة بحجم العلبة، التصقت بإحدى جوانبها من الداخل. سحبتها وأنا أزداد حيرة، واحتجّت

لثوان لكي أفهم ما أراه أمام عيني: إنها شخصية كرتونية مطبوعة. مخلوق صغير له شعر أبيض طويل، ومنقار طائر، وعينان كبيرتان مفتوحتان إلى أقصى حد، تذكرنا بالقِط شريك.

«ما هذا يا بن؟»

لغبائي، لم أفهم أيضاً. كان بنجامان قد وضع يداً فوق كتفي وكنت قد جفلتُ لأنني لم أسمعُه يدخل الغرفة.

«إنها عناكب مون»

«مون؟»

«مون، حارس القمر. العناكب تساعد مون على حماية القمر بفضل خيوطها السحرية»

«العناكب؟ أية عناكب؟»

«تلك الموجودة أمامك.»

نظرتُ عن كثب أكثر إلى كرة الفراء الصغيرة فوق الورقة التي بيدي.

«هل هذا عنكبوت؟»

«عنكبوت القمر»

«لماذا طبعَت صورة عنكبوت القمر على ورقةٍ وضعتَها في علبة

حبيبي؟»

كان حاجبائي مقطبين والحيرة تملؤني. قرأتُ شيئاً من الخيبة في نظرتِه. كان كتفاه قد تهذَّلا.

«لأن الجميع يقعون في حب العناكب، بفضل وجوهها الرائعة وفرائثها المخملي. ولا أحد يستطيع أن يرفض لها شيئاً، على ما يبدو...»

ترك هذه الجملة الأخيرة معلقة وكررتها متشككة:

«لا أحد يستطيع أن يرفض لها شيئاً؟»

ثم فهمت. إفراغ علبة حبوب منع الحمل، من الحبوب، والصورة المطبوعة. الدهول الذي تملكني، منعني من النطق بكلمة. كان بنجامان يضحك الآن ساخراً:

«بالطبع، لو لم تكن صديقتي فاشلة، لو لم تقاطع الرسوم المتحركة...»
أسكته بنقرة على كتفه. كنت لا أزال عاجزة عن الكلام.
«مع أن إيليا أكدت لي أن عناكب مون أكثر لطفاً من القط شريك.
ولكن كان ينبغي ربما أن أختار القطعة...»

فتحت فمي، ولم يخرج أي صوت.
«يقولون بأن عليك سماعها وهي تتكلم لكي تقعي تماماً في غرامها»
«بن..»

«إذا أردت، يمكننا مشاهدة فيلم الرسوم المتحركة أثناء تناول البيتزا.
وبعد ذلك تعطيني جوابك...»
كان يبتسم. كنت ممتعة الوجه.

في ذلك المساء شاهدنا فيلم مون، حارس القمر، لكنه لم يترك لي وقتاً لإعطائه الجواب. حملني إلى غرفة النوم ونزع عني ثيابي. لم أبحث ثانيةً أبداً عن علبة حبوب منع الحمل. بعد خمسة شهور، قررت مانون أن تتشكل في بطني، وفي قلبينا.

كاسندرا هي التي عرضت علي الفكرة... لم أكن لأطلب منها ذلك أبداً. كنت أعلم أن لديها مشاغل أخرى أكثر أهمية، وأنها كانت تتجه نحو الطب العام وليس التوليد والعناية بالحامل قبل الولادة.
«أماندا، أود أن أكون الطبيبة المشرفة عليك وعلى الجنين...»

كانت تلك الكلمات قد قيلت بعفوية وبساطة، بدون لف أو دوران.
كلمات تشبه كاسندرا تماماً.

«هذا إذا كنتِ ترغبين بذلك طبعاً...» أضافت وهي تهدئ حماسها.
كنت أرغب بذلك بالتأكيد. إذ أنني، باستثناء أفراد عائلة لوزان، لا
أثق بأحد أكثر من ثقتي بكاسندرا.
«هل هذا ممكن؟»

«ممكن طبعاً، أعني... ليس في موضوع الفحص بالموجات فوق
الصوتية وما شابه... بل يمكنني التعاون الوثيق مع القابلة التي ستتابع
حالتك، وسأصبح طبيبتك الرئيسية الثانية.»
كنت قد أعطيتُ كاسندرا موافقتي، وهي التي اختارت القابلة التي
ستتابعني.

«إنها الأفضل، ثقي بي.»
نظراً لأن حملي كان سهلاً على نحو خاص، فقد كانت إجراءات
كاسندرا الاحترازية غير ضرورية، لكنها أصرت أن تكون حاضرة في
كل موعد، وأن تعيد عليّ إيضاحات القابلة، وتفرح بشأن ازدياد محيط
بطني عدة سنتيمترات كل أسبوع.

كانت هي إذن التي أعلنت لنا عن جنس الجنين، من خلال صورة
الأمواج فوق الصوتية التي أخذت في الشهر الخامس.
«إنها بنت»

ثم أضافت بابتسامة عريضة وصلت حتى أذنيها:
«بنت صغيرة تحمل كنية لوزان»
لبثت صامتة، مأخوذة بموجة مشاعر يصعب فهمها. أخرجني صوت
بنجامان من ذهولي:
«أهلاً بك، بوبينيت»

مع مرور الأيام، قمنا، أنا والقطة الرمادية، بتطوير استراتيجية لمنع شعور إحدانا بالخوف من الأخرى.

التعايش ليس بالأمر السهل، لكنني شعرت أنني بدأت أعود عليها. أساساً، كيف يمكن أن أطردها خارج البيت في هذا البرد؟

كانت جميع خضرواتي الشتوية، كامنة تحت الأرض. الملفوف، والخس، وبعض اللفت، والثوم، والهندباء... وكذلك الفراولة. ومع هطول أمطار شهر نوفمبر، التي كانت جيدة ومتواصلة، لا أحتاج إلى الماء. بالمقابل، سيتعين عليّ، مع انخفاض درجات الحرارة، أن أهتم بحمايتها من البرد. كتبت السيدة هيوغ بضع صفحات حول هذا الموضوع. تركيب بيوت بلاستيكية أو أنفاق شتوية.

هذه هي مهمتي القادمة. صنع أنفاق من شماعات سأقوم بلفها، ومن أكياس قمامة سوداء. بالطبع، سيكون من الأسهل الذهاب مباشرة إلى المتجر المتخصص وشراء أنفاق حديقة، جاهزة، لكنني كنت بحاجة أن أبقى نفسي مشغولة. بعد فترة من الوقت، سوف أعطي خضرواتي بمنظومة ثقب وزجاجات بلاستيكية تسمح بمرور مياه الأمطار، وبعد ذلك لن يتبقى لي شيء أنشغل به. لن يعود هناك هدف يجعلني أستيقظ في الصباح. حاولت ألا أفكر في الأمر، لكن الفكرة أخذت تتسلل إلى ذهني، رغم كل شيء. وفي كل مرة تفعل ذلك، أشعر بغصة في قلبي. لذا، نعم، رحت أحاول إطالة أمد هذه المهمة الأخيرة: صنع أنفاق لتغطية خضرواتي.

مع مرور الأيام التي أصبحت أقصر، ومع تحول السماء أكثر فأكثر إلى اللون الرمادي بسبب الغيوم المشحونة بالثلج، ومع انخفاض درجات الحرارة، رحتُ أعمل بطاقة مضاعفة. بناء نفق الفراولة أولاً.

غيرت شكل الشماعات ولويتها على شكل أقواس. قمت بعمل ثقوب في الأكياس البلاستيكية الكبيرة لإدخال الأقواس فيها. ثم جمعت أحجاراً كبيرة لتثبيت حواف النفق كيلا تطيح بها الرياح، ووصلت الأكياس البلاستيكية ببعضها بواسطة خيوط أو مشابك. عالجت جروحي وتحققت من أنني ملقحة ضد الكزاز. عاينت نفقي الأول بفخر. اشتريت أكياس قمامة جديدة بسعة مائة لتر، وأعدتها في اليوم التالي إلى المتجر لكي أستبدلها بأقمشة مشمعة كبيرة. استسلمت واشترت أقواساً حقيقية، وتخلصت من أقواسي العتيقة الصدئة.

النفق التالي كان نفق الزهور، الذي كان سهلاً للغاية مقارنة بالنفق السابق. كانت القطة الرمادية تحكّ جلدها أكثر فأكثر. بدأت أشعر بالقلق وفكرت أنه ربما يجب أخذها إلى طبيب بيطري لكي أريه البقع الوردية على جلدها. فكرت في الوقت نفسه، أنني لن أتمكن أبداً من أخذها إلى هناك، كوني غير قادرة على حملها بين ذراعي. اتصلت بجوليا هيوغ، وأنا محتارة قليلاً.

«أخبريني... أليس لديك بعض الخبرة البيطرية؟»

استغربت جوليا:

«هل تبنيت حيواناً؟»

– إنها قطة شاردة استقبلتها في المنزل. أعتقد بأنها مليئة بالبراغيث. أجابتنى بأنها ستعاود الاتصال بي وأقفلت الخط – كانت في مكتبها والوقت أول المساء – لبثت خائبة، وطنين الهاتف الذي أغلقته جوليا، يعمّوي في الفراغ.

أخيراً جاء دور نفق الخضروات. بعد مضي بضعة أيام فقط من بدء هذه المهمة، لم يعد لي هم سوى الانتهاء منها. فقد تجمدت أصابعي

رغم القفازات، وبدأ يهطل مطر جليدي، ولكنني بقيت صامدة. لن أعود إلى المنزل قبل الانتهاء من هذا النفق الأخير.

انتهى بي الأمر في الليل، مع مصباح مُضاء مثبت في الرأس، وأنا أتساءل إذا كان هذا الاستبسال أمراً عادياً.

حين عدت إلى المنزل، وجدت القطة الرمادية نائمة في مقعدها، وهناك رسالة صوتية تنتظرنني على هاتفي المحمول. جوليا هيوغ.

«جربي استخدام الخل المخفف بالماء. طبقه فوق جلدها مباشرة، ثم مسّطّيحها. لا شيء ينفع أكثر. اتصلي بي إذا كان لديك أسئلة.»

لدي بعض الخل ولدي مشط ساكون سعيدة بتخصيصه للقطة الرمادية. المشكلة الوحيدة هي: كيف سأفعل ذلك وأنا لا أستطيع الاقتراب منها؟

«آسفة يا صديقتي لقد جئتُ إلى المكان الخطأ... لماذا أصريت على دخول منزلي؟ لطالما خفتُ منك...»

بقيت ثابتة رابطة الجأش في مقعدها الرمادي. الرذاذ المملوء بالخل في يدي، لم يرتبط بعدُ بالنسبة لها، بتلك الرائحة الرهيبة التي ستتعلم أن تكرهها. إنها مسألة دقائق لا أكثر...

«لا تغضبي. أحاول فقط أن أعالجك.»

يا لسخافتي. لقد ارتديت ثلاثة بناطيل فوق بعضها، وكترتين، وزوجاً من القفازات، ووشاحاً يغطي نصف وجهي. فإذا قررت مهاجمتي، أكون محمية إلى حد ما... اقتربتُ منها خلسةً. كنت مترددة. على بعد متر واحد منها، تجمدتُ في مكاني. لا يمكنني أن أطلب من ميكا أو جوليا التكفل بهذه العملية... رفعتُ رأسها النحيل، وركزت عينيها الخضراوين اللامعتين علي.

«حسناً، حسناً... العملية مؤجلة إلى الغد...»

لا أتمتع بأية سطوة. ألم أقل لك ذلك؟ كان يفترض أن أكون أنا الطرف الوداع بين الأبوين. وكان يفترض أن يكون بنجامان هو صاحب السطوة الذي يقوم برسم القواعد والحدود، وفرض احترام النظام. لقد تركتني في مأزق حقيقي، يا بن. رحْتُ أنتظر منه جواباً، رغم أنني غاضبة بعض الشيء.

آسف يا بوبيت...

حددت لنفسي مهمة أخرى بدت لي فجأة أكثر إلحاحاً من رشِ الخل على فراء القطة الرمادية: مهمة إنقاذ كل تلك التفاحات التي سوف تتعفن إذا لم تُحول على الفور إلى كومبوت. بدا مطبخي مثل ساونا تصاعدت فيه أبخرة التفاح المعطرة بالقرفة. لم أعد أستطيع أن أرى أبعد من مسافة متر إلى الأمام. على الموقد، في قدر كبير من الحديد الزهر، كان التفاح يُطهى، ويصبح طرياً، ويتحول ببطء إلى اللون البني. على سطح العمل، هناك حوالي عشرة مرطبانات زجاجية، وجدتها في خزانة غرفة المعيشة، رحْتُ أملأها تباعاً بالكومبوت. دونتُ التواريخ فوق لصاقات التعريف. سيستغرق الأمر مني أربعة أيام حتى أتمكن من طهي ثمار شجرتي التفاح. لقد بدأ شهر ديسمبر.

سهَّلت لي القطة الرمادية، المهمة. في ذلك المساء، كنت قد انتهيت لتوي من ترتيب برطباناتي في العلبة، ثم نزلتُ وطويتُ السلم وأعدتُ إغلاق الكوة. جلستُ منهكةً فوق أحد كراسي المطبخ، دون انتباه للقطة التي تجلس على بعد ثلاثين سنتيمتراً مني. ثم قفزتُ إلى حضني قبل أن يتاح لي وقت لأي رد فعل. لا مخالب حادة كما كنت أخشى. لم أشعر إلا بجسد ساخن، ثقيل بعض الشيء، يتكور في حضني. عندها لم أعد

قادرة على الحركة. لا بسبب خوفاً، على العكس... لقد مضى وقت طويل جداً منذ أن انتابني هذا الشعور. مضى وقت طويل منذ أن لمسني كائن حي آخر، منذ أن لاذ بي أحداً ما، منذ أن التصق كائن بيطني. لبثت مضطربة وبقينا أنا والقطعة بلا حركة لمدة تقارب الساعة.

«مرحباً أماندا»

فوجئتُ بسماع صوت آنا يرن في أذني. كانت تبدو معافاة.

«لقد خرجتِ إذن وانتهى الأمر؟» سألتها.

«نعم، لقد عدتُ إلى البيت.»

تخيلتُ بأنه يوم أحد، لكنني لم أكن متأكدة. تخيلتُ أربعتهم في الصالون، ومائدة الطعام جاهزة، مع رائحة لحم بقري مشوي منتشرة في البيت. لا بد أن كاسندرا قد ارتمت مع بطنها الكبير على الأريكة، وأن ريشار ويان ينتظران بفارغ الصبر بجوار الفرن، يراقبان الوقت، ويستمعان إلى قرقرة بطنيهما.

«أخبرتني كاسندرا أنك تريدان دعوتنا لقضاء عيد الميلاد في

منزلك الجديد...»

شعرت بأن صوتها قد أصبح أكثر عذوبة.

«نعم... إذا أحببت أن تمضوا سهرة الميلاد في الغابة.»

ابتسمتُ عبر السماع، أكاد أسمعها تفعل ذلك.

«بالطبع. هل هطل الثلج عندك؟»

«ليس بعد، لكنه لن يلبث طويلاً حتى يهطل.»

ألقيت نظرة إلى الخارج. لقد غطى الصقيع العشب، وخيم ضباب كثيف فوق حديقتي.

«ربما نطلب وجبة جاهزة، أليس كذلك؟ ريشار يحب كثيراً وجبة مركز التسوق...»

رفضتُ فكرتها على الفور، ربما بحماسة زائدة:

« لا، سأتولى هذا الأمر بنفسى »

تبع تلك الكلمات صمت طفيف. خشيتُ أن أكون قد سببت لها استياءً. ولكن لم يكن ذلك هو الحال. كل ما في الأمر أن هناك شيئاً من القلق في صوتها:

« هل أنت واثقة أنك تريدين الطهي لخمسة أشخاص؟ »

« نعم. سأتكفل بذلك »

« هذا يتطلب عملاً ليس بالقليل... »

« لدي كل الوقت »

لا أدري إن كانت أنا تفهمني، إن كانت هي أيضاً بحاجة أن تبقى منشغلة بأي شيء لكي تتمكن من الصمود. لقد كُفْتُ، على أي حال، عن المجادلة في هذه المسألة، مسلمةً الأمر لي:

« نحن سنتكفل إذن بإحضار النبيذ »

« يبدو لي أن هذا ترتيب ممتاز »

انتظرتُ بضع ثوانٍ قبل أن أعتبر أن الحديث في هذا الشأن قد وصل إلى ختامه.

« حسناً، كيف وجدتِ العودة إلى البيت؟ »

لدي خمسة عشر يوماً لإعداد سهرة عيد ميلاد حقيقية لعائلة لوزان. لكن علي أولاً إنجاز مهمة ذات أهمية قصوى: رش القطة الرمادية بالخل. وكما توقعْتُ، فقد انتفضت القطة مع أول رشّة، وبقفزة طويلة اختبأت تحت المقعد الرمادي. استغرق الأمر نصف ساعة كاملة، وأنا في وضعية القرفصاء أمام المقعد، حتى تتكرم بالاقتراب مني مرة أخرى. في المحاولة الثانية، تعاملتُ معها بالمباغثة. انتظرتها حتى قفرت إلى حضني في لحظة من الحنان، ثم رششتها، ولكن مع تهيئة ذراعي الأخرى هذه المرة، لأجل تثبيتها. نخرْتُ، وزأرت. لم أكن أعلم أن القطة تزار. هذه المرة، أنا التي شعرت بالخوف، أفلتتها ونهضتُ في قفزة واحدة، حتى كدتُ أسقطها أرضاً. عندما تفتقر إلى الشجاعة، تصبح مرغماً على التحلي بالصبر. قررت اعتماد طريقة جديدة: عدم الرش مباشرة على الجلد. قمت بنقع قطعة قماش في الخل والماء وبدأت أفرکہا بهذه القطعة. كنت ألمس جيداً بأنها لا تستمتع بذلك كثيراً. فقد كانت حدقتا عينيها تنضيقان منزعةً من الرائحة، لكنها لم تعترض. أخذتُ وقتي ورحت أمسح وأعيد المسح فوق كل أعضائها، لا أريد نسيان أي جزء. أنهيت عمليتي بتمشيط بطيء ودقيق. بدت مستمتعة نوعاً ما بهذه العملية، كونها بدأت تخرخر. أكاد لا أصدق بأنني نجحت. شعرت بموجة من الفخر تتصاعد ببطء بداخلي.

«أتعلمين أيتها القطة... لو أن بن رأی ذلك، لما صدّق عينيه...»

لبثت القطة الرمادية غير مكترثة على الإطلاق. راحت تخرخر من جديد. أعتقد بأنها تحب صوتي.

بدأ الثلج يهطل هذا الصباح. لففت نفسي برداء بيتي سميكة وجلستُ مقابل النافذة، وفي يدي فنجان قهوتي الضخم. تركت القطة الرمادية طبق عصيدتها لكي تأتي للجلوس عند قدمي. من الآن وصاعداً بات من حقها كل صباح أن تحصل على وجبة حليب برقائق الشوفان والعسل. والويل لي إذا نسيْتُ ذلك، لأنها ستبرز أمامي مسلَّحةً بمواء يفطر القلب. رحت أشاهد الثلج يهطل مدوِّماً. وينتابني القلق على خضرواتي وأزهارِي. خطر لي بنجامان، هناك في الأسفل، في نعشه الخشبي الفاتح، الذي لا بد أنه متجمد بالكامل.

لحسن الحظ أنني لم أعد وحدي منذ أن فرضت القطة الرمادية نفسها في منزلي. وجودها مؤنس. أصبح لدي الآن سبب للكلام بصوت عالٍ.

«تعالِي يا قطة، دعينا ننتهي من الغداء ثم نذهب إلى العمل.»
لا أريد أن أبقى خاملة. أمامي سهرة عيد ميلاد يجب أن أعدها، وعدد من الهدايا يجب أن أصنعها.

وكما هو الحال دوماً عندما لا أعرف بأي شيء أبداً، فتحتُ مذكرات السيدة هيوغ. كنت قد صنفت كتاباتها المختلفة بواسطة لصاقات تعريف وفق نظام الألوان. اللون الأخضر لكل ما يتعلق بالحديقة والزراعة والري وما إلى ذلك... والأزرق لوصفات الطهي. الوردِي لنصائح السيدة هيوغ اليومية. على سبيل المثال: كيف نتخلص من الفئران والجُرذَان، أو هذه، التي تعجبني بشكل خاص: كيف نكتب

رسالة تعزية. أخيراً، اللصاقة الصفراء تشير إلى فئة الـ«متفرقات». في هذه الفئة نجد إشعارات حول طقس اليوم، أو تواريخ العطلات أو أعياد ميلاد الأحباء، أو حتى عنوان المركز الضريبي. لا شيء يثير اهتمامي حقاً.

أمام قهوتي، تسلحتُ إذن بمذكرات السيدة هيوغ المتنوعة، وتصفحت كتابات الفئة الزرقاء. وصفات الطهي. تخطيطُ الكومبوت وكاتو الكلافوتيس والحلويات الصيفية الأخرى. لاحظت وصفاً فخذاً ضأناً بأعشاب بروفنسية (تؤكد السيدة هيوغ أن الطبق كان موضع تقدير من قبل مَنْ؟ لا نعرف...)، ووصفاً دجاج حبشي مشوي بالبرتقال وإكليل الجبل (لا يوضع الكثير من البرتقال، فالسيدة هيوغ تخبرنا بأن الطبق كان شديد الحموضة) ولحم خنزير مشوي مع الكستناء، والذي لا توجد تعليقات بشأنه. أما بالنسبة للحلويات، فقد لاحظت كعكة الزنجبيل كما كانت تصنعها والدتي، والتي انتقلت حتماً في عائلة هيوغ من الأم إلى ابنتها. تساءلتُ عما إذا كانت جوليا تعرف الوصفة، وعزمتُ أن أقدمها لها في المرة القادمة، إذا كان الأمر يهمها. يبدو لي أن وصفة بانا كوتا بالقهوة، الموجودة في الصفحة الأخيرة من التقويم الأخير، ستشكل فكرة جيدة لتحلية عيد الميلاد.

حسنتُ أمري لصالح طبق بانا كوتا وطبق الديك المشوي مع الكستناء، وقمت بنسخ المكونات والمقادير، وهياتُ لائحة مشتريات، وتحققتُ من الصحن ومختلف أدوات المطبخ المتوفرة، ووضعت خطة لمشوار تسوق آخر. انتصف النهار وأعددتُ لنفسي بيضتين مقليتين، مسرورةً بوجود هدف جديد يحفزني.

بعد ظهر ذلك اليوم، عندما كنت أرتب مشترياتي، والقطة الرمادية تجلس فوق منضدة العمل، علا صوت محرك جعلني أقطب حاجبي. من يأتي إلى هنا...؟ أثناء هطول الثلوج...؟ وبدون سابق إنذار...؟ ركضت إلى أمام النافذة. إنها سيارة التوينغو الزرقاء. لا يمكن أن تكون سواها. فوجئتُ بنفسي أبتسم. في اللحظة السابقة خطر لي: من ذا الذي جاء يزعجني؟ والآن حين اكتشفتُ السيارة الزرقاء، ها أنذا سعيدة باستقبال جوليا هيوغ.

كانت ترتدي معطفاً رمادياً أنيقاً وقبعة صوفية بيضاء تعلوها كرة، وينسدل شعرها على كتفيها. اتجهت نحو صندوق سيارتها وفتحته ثم ظهرت من جديد وهي تحمل صندوقاً بين يديها. صندوق؟ وبينما كنت أسارع إلى ترتيب آخر أغراضي، وذهنِي لا يزال يتساءل بشأن ذلك الصندوق، طرقت جوليا الباب، وركضت القطة الرمادية لتختبئ تحت مقعدها. تلقَّيتني ابتسامتها المشاغبة. لقد رسمت خط كحل أسود رفيعاً فوق جفنيها، وبدت بشرتها مطلية بطبقة خفيفة من الأساس.

«مرحباً، أعترف بالذنب هذه المرة أيضاً»

تنحيت جانباً لأسمح لها بالدخول، وأنا لا أعرف حقاً ما الذي تقصده.

«لقد اكتسبتُ عادة سيئة، أن أظهر دون سابق إنذار. آسفة على ذلك. المسألة فقط هي أنني مشغولة بعملِي الجديد إلى درجة أنني لم أعد أعرف مسبقاً ما الذي سأفعله في الساعة التالية.»

ابتسمتُ لها ابتسامة طفيفة تعني أنه لا مشكلة لدي في ذلك، وأنها لا تزعجني، واقترحت عليها أن تتبعني إلى الصالون.

«جئتُ لرؤية الساكن الجديد الذي يقيم معك»

«الساكن الجديد؟»

«القطة التي استقبلتها. هل عالجت براغيثها؟»

«أوه... نعم، أظن ذلك. فهي لم تعد تحكّ جلدها.»

عندما رأيتُ نظرة جوليا المليئة بالسعادة لحظة دخولها إلى الصالون، نظرة تتمهل عند ورق الجدران المزين بأنماط أغصان خيزران، وعند قطع أثاثها القديمة، ومقعدها الرمادي البالي، فكرتُ بأنها تحاول إيجاد ذرائع مختلفة تبرر لها التردد إلى بيت العائلة. وها هي تثبت لي صحة ما فكرت به بوقوفها أمام النافذة.

«أرى بأنك وضعتِ أنفاقاً في الحديقة»

«نعم. قبل أن يأتي البرد»

«أعترف بأنني فكرتُ فيك كثيراً... كنت أتساءل إلى أين وصلتِ في

تأهيل حديقة أُمي.»

أشرت لها إلى كرسي لكي تضع فوقه معطفها، بينما رحتُ أطلعها على المستجذات في الحديقة: مسكبةُ زهور، لأجل الربيع. زهور الزنباق، والجاسنت، واللحلاح، والرجس. خط لخضروات الشتاء. التمتع عيناها. خلعت معطفها وقبعتها واتسعت ابتسامتها.

«أخبريني، هل ستدعيني لزيارتك في الربيع... عندما يزهر كل

شيء؟»

«نعم. بالطبع»

«حسناً. وبشأن القطة؟ أرني إياها.»

اختبأت قطتي الرمادية تحت المقعد الرمادي.

«ضيفتكِ نحيلة جداً»

«كانت أكثر نحولاً. أظن بأنها كسبت كيلوغراماً...»

أطلقت صفيراً واستمرت في مراقبتها وهي نصف مستلقية على البلاط.

«ما كانت لتبقى على قيد الحياة في الشتاء لو لم تستقبلها»
عرضت عليها قهوة فوافقت بحماس. عندها وقع نظري على الصندوق الغامض عند مدخل الغرفة.

«ماذا جلبت لي؟»

«أوه، هذا»

تلاأت عيناها من البهجة.

«شيء جنوني...»

تركتها تجلس إلى الطاولة وانهمكت حول آلة تحضير القهوة،
فملأت الفيلتر وصببت الماء، وأخرجت السكر.

«يمكننا أن نتخاطب بدون رسميات، أليس كذلك؟»

أومأت بالموافقة وأنا خجلة قليلاً لكوني لم أقترح ذلك قبلها.

«نعم... بالطبع»

«يوجد في الصندوق أكياس من الشمع»

«أكياس من الشمع؟»

«شمع النحل»

وصولا إلى تلك النقطة لم أفهم الكثير، لكنني أومأت برأسي بتهذيب.

«أخذ مني الأمر فترة الشتاء الماضي، خلال عطلة عيد الميلاد. أن

أصنع شموعاً معطرة. قد تقولين لي: حسناً لم لا؟»

ابتسمت لكي أريها بأنني أصغي.

«أظن بأن الأمور بدأت تسوء بيني وبين تريستان، ولهذا السبب بدأت أصنع هذه الشموع المعطرة بشغف. في البداية، كان الأمر مجرد تمضية للوقت في الشقة، وتقديم بعض الهدايا لأصدقائي، وأفراد عائلتي. بعدها...»

رفعت كتفها علامة العجز.

«بعدها تحول الأمر إلى هوس. عشر شموع، خمسة عشر، عشرون شمعة في مرطبانات المربي، وأكواب الخردل، وعلب الزبادي، وأواني الخبز. لم يكفني ذلك. قبل أربعة أيام من عيد الميلاد، أصبح لدي منها عدد فاق الأربعين. ضاق تريستان ذرعاً، فلم يعد لدينا مساحة لتخزينها. كنت قد وضعت بعضها في الممر المؤدي إلى غرفة النوم. مع ذلك... لم أستطع التوقف عن صنع شموع جديدة... كان يجب أن ينقضي عيد الميلاد وأن ينقل تريستان كل موادي الأولية إلى القبو، لكي أتوقف عن صنعها.»

نظرت إلي، بين الحزينة والمبتهجة، وحاولت أن أبدو باسمه ولكن مع بقائي حيادية.

«هكذا إذن...»

«نعم، هكذا، أكدت جوليا. أزمة عيد ميلاد، حقيقية، أحاول تجنبها هذا العام. أعرف نفسي، إذا غطست من جديد في صندوق الكرتون...»

بدأت تضحك وضحكت مثلها.

«المسألة تصبح إدماناً، سوف ترين ذلك. حاولي الاستمتاع دون أن تصابي بالهوس.»

لم أعلم حقاً ماذا أقول، خاصة وأنني أصبت بالفعل بنزعة قهرية عندما تملّكني منذ بعض الوقت هوس كومبوت التفاح، لذا أومأت برأسي بغباء، وحين طال الصمت، أعلنت: «حسناً، شكراً لك. سأحاول أن أكون حذرة.»

أصبحت القهوة جاهزة خلفي، وقمتُ بملء فنجانين وضعتُهما على الطاولة. عدتُ نحو خزانتي بحثاً عن علبة بسكويت، لكن كل ما وجدته هو مجموعة من ثمار اليوسفي. إنها أفضل من لا شيء.

«وكيف تصنعين الشموع؟ سألتُ وأنا أجلس مقابل جوليا. لم يسبق لي أبداً أن صنعتُ منها...»

«مسألة في غاية السهولة. هل تريدان أن أريكِ الطريقة؟»

هكذا، بينما كانت حديقتي غافية تحت الثلج، وقطتي الرمادية لا تزال مختبئة تحت مقعدها، والعالم يواصل الدوران حولنا، وقد استولى عليه سعارُ مشتريات عيد الميلاد، أقمنا، أنا وجوليا، ورشةً لصنع الشموع، كما لو أن ذلك، كان في تلك الآونة، هو الشيء الأكثر طبيعية في العالم.

استمعتُ بعناية إلى كل نصيحة من نصائح جوليا: اختيار برطمان زجاجي، وصنع فتيل باستخدام منشفة قطنية أو منديل، ثم اقتطاع جزء منه ولفه بشكل رفيع، ثم تمرير الفتيل المشكل بهذه الطريقة داخل ركيزة معدنية توضع في قعر البرطمان.

«بالنسبة للركيزة، يمكنك استخدام غطاء علبة ألمنيوم أو قطعة معدنية من أي عبوة طعام. أنا كنت أستخدم ورق ألمنيوم سميك، أقطعه إلى دوائر.»

فكرت وأنا أشاهدها تبحث في خزائن الحائط لتخرج لفافة من ورق الألمنيوم ومقصاً ووعاءً لتذويب الشمع، بأن هذه النصيحة بشأن تصنيع الشموع، تستحق أن تُدرج في أحد دفاتر السيدة هيوغ، وأني، إذا تذكرت ذلك مساءً، سوف أنسخها فوق إحدى الصفحات القليلة التي بقيت فارغة.

بدأ الشمع يذوب الآن في الوعاء. أخرجت جوليا حوجلتين صغيرتين من صندوقها.

«زيوت طيارة لتعطيرها» أوضحت.

العملية الأكثر تعقيداً تمثلت في صب الشمع الساخن، الذي أضفنا إليه قطرتين من زيت البرتقال الحلو - رائحته أخاذة - في برطمان كان سابقاً للمربي، مع الحفاظ على فتيل الشمعة مستقيماً، ثم وضع هذه التحفة التي يتصاعد منها البخار، على حافة النافذة من الخارج، لكي يبرد الشمع بشكل أسرع.

استغلت القطة الرمادية انشغالنا فخرجت من مخبئها وتمركزت بحذر في مكان مرتفع، فوق الثلاجة. أنهت جوليا قهوتها التي بردت تقريباً، برشقات صغيرة.

«هل تريدان الانصراف الآن؟» سألتها عندما رأيتها تنهض.

«نعم. عليّ الانصراف الآن. يجب أن ألتقي بأحد الزبائن»

راقبتُها وهي ترتدي معطفها، وقبعتها ذات الكرة، وتعيد ترتيب بعض خصلات شعرها حول رقبتها. في غضون ثوانٍ قليلة، سوف تختفي بالسرعة التي ظهرت بها، تاركةً مطبخي في حالة ما بعد الإعصار، وعقلي مشغولاً بهوس هذه الشموع المعطرة.

«أشكرك على القهوة» قالت.

« أرجوك، لا داعٍ للشكر »

اتجهت نحو مدخل المنزل، بعد أن لوحت بيدها للقطعة الرمادية.

« أتمنى لك أمسية عيد ميلاد سعيدة »

« أنا أيضاً، أتمنى لك الشيء نفسه »

« لا تنسي... الشموع خطيرة تسبب الإدمان... خذي حذرك »

مضت مع هذه الكلمات وقد ارتسمت على شفثيها ابتسامة مشاغبة.

ثم اختفت السيارة الزرقاء من حقل رؤيتي.

على ضوء أول شمعة من صنع يدي، قمت في ذلك المساء بإدراج

تعليمات جوليا في إحدى مفكرات والدتها السيدة هيوغ. إنها مساهمتي

الأولى في عملها التدويني، بعنوان: شموع معطرة، صناعة منزلية،

وأدرجتها ضمن تصنيف اللون الوردي. كنت فخورة جداً بما فعلت.

« أماندا! تبدين بخير »

أخرجني صراخ كاسندرا، على نحو مباغت، من فقاعة صمتي. كان

لدي كل الوقت للاستعداد لذلك، إلا أن الأسبوع كان مزدحماً. نظفت

منزلي بالكامل، هويته، طهيت الوجبة، وصنعت شمعة خاصة لكل منهم.

قمتُ بتجهيز الطاولة، وغسلت شعري وارتديت ملابس لائقة، ووضعت

لمسة من كريم الأساس على وجهي. كان كل فعل من هذه الأفعال

يترافق بالتفكير بأولئك الذين سوف يأتون ويجتاحون منزلي ويمزقون

صمتي ويعيدونني إلى الواقع، إلى غياب بنجامان... لكن شيئاً لم يهيئني

لصراخ كاسندرا، ليَدينها اللتين أحاطتا بكتفي، ولرؤية كل أفراد عائلة

لوزان باستثناء واحد، وهم يقفون على عتبة بابي. كان يفترض أن أكون

سعيدة برؤيتهم أمامي، بأذرعهم الممدودة، وعيونهم المليئة باللطف.

على العكس من ذلك، كان الأمر أشبه بكعكة سوفليه منتفخة، ثم هبطت فجأة، أو وطأة ثقل نزل فوق صدري. حاولت الحفاظ على المظاهر.

«مساء الخير. شكراً. تفضلوا بالدخول، تفضلوا»

أفسحت لهم لكي يدخلوا عبر الردهة وأغلقت الباب خلفهم. عانقت أجسادهم الأربعة. كاسندرا وبطنها القاسي المنتفخ. يان بجسده الجاف والنحيل وكتفيه العريضين، آنا التي تستسلم بارتخاء ولا يُبدي جسدها أية مقاومة كأن هبة ريح تستطيع حملها بعيداً. وريشار، ذو القامة الطويلة والبنية القوية، والمتيبس قليلاً هذا المساء.

«يا إلهي كم أنا مسرورة برؤيتك»

كانت كاسندرا تتكلم كثيراً وبصوت مرتفع. وجدت صعوبة في التقاط أنفاسي وتحمل الضربة. أدركت للتو أن ما فعلته كان خاطئاً، فلم أكن مستعدة. ليس بعد. الجلوس معاً حول طاولة، والتظاهر بالسعادة. ماذا جرى لي؟ حتى أنني لست متدينة... لماذا أردت الاحتفال بعيد الميلاد؟

ومع ذلك، فقد أسلمت نفسي للحركة التي قادتنا نحن الخمسة إلى الصالون، ولصرخات كاسندرا وهي تعبر بحماس عن إعجابها بـ «أصالة» منزلي.

«هذا طراز قديم، إنه قديم حقاً»

وصل الأمر بي أنني اعتذرتُ ذهنياً للقطعة الرمادية، لأنني فرضتُ عليها كل هذا الضجيج، وكل هذا التظاهر. لم أرها، لا بد أنها اختبأت تحت المقعد. جال يان وكاسندرا في الصالون، واستوقفتهما الشموع في النوافذ، وخزانة الملابس الجميلة المصنوعة من الخشب الخام. كانت آنا وريشار أكثر تحفظاً وبقياً في الخلف بمعطفيهما. وجدت

نفسى وقد أخذت على حين غرة وسط مطبخى. أذناي تطنان، ورأسى يدور. لقد نسيت أبسط قواعد الأدب ولم أعرض عليهم خلع معافطهم والجلوس إلى الطاولة. بقيت صامتة، شاحبة ومربكة.

أظن بأن ريشار هو من أنقذ الموقف مجدداً، عندما أخذ معافط الجميع، ووضع زجاجة شمبانيا على الطاولة - من أين ظهرت هذه الزجاجة؟ ربما من الكيس الورقى الذى كان يحمله بين يديه - وجعل الجميع يجلسون حول طاولتي المجهزة بأناقة. ثم شعرت بيده تستقر على ظهري.

«أذهبى واجلسى يا أماندا. لقد تعبت جداً لكى تستقبلينا»

«إننى...»

لم أجد ما أكمل به، سوى دموعى وأنا أبحث بينهم، رغماً عني، عن بنجامان:

«أخبريني أين أجد كؤوس الشمبانيا. سأتولى سكب المشروب.»

ابتسمت لى أنا بلطف.

«تعالى واجلسى يا أماندا. نحن سنكمل عنك. شكراً لأنك أعددت هذا كله»

قادتني إلى هناك، لأجلس إلى الطاولة، بعد أن تمكنت بالكاد من إرشاد ريشار إلى الخزانة التى تضم أكواب الشمبانيا.

«هل صنعت كل هذه الشموع بنفسك؟»

- ماذا؟ نعم...أنا»

انطلقت سداة الشمبانيا قافزة في الهواء. امتنعت كاسندرا، فى اللحظة الأخيرة، عن التصفيق. لا بد أنهم أفهموها بأننى أحتاج إلى

الهدوء وإلى المراجعة. انخفضت الأصوات، وعاد ريشار إلى الطاولة حاملاً أكواب الشمبانيا.

شهقت فجأة «الفرن...» وقفزت من مقعدي. لقد شغلت الفرن مسبقاً لتسخين الديك، قبل وصولهم بالضبط. لا أذكر ما إذا وضعت الديك بداخله، أم أنه لا يزال في الثلاجة. في حالة الذعر التي أصابتني، اصطدمت بقوة بآنا التي كانت قد نهضت متجهةً إلى المطبخ لإحضار شيء ما.

«اعذريني... آسفة... إنني... الفرن...»
بالكاد أدركت بأن صوتي كان مرتجفاً وأني كنت أتلعثم.
«لا عليك يا أماندا، لا عليك...»
أخذت تنظر إليّ على نحو غريب. حاولت أن أستدرك:
«لقد شغلت الفرن مسبقاً...»

لكن القلق الذي ظهر في عينيها جعلني أدرك بأنها لم تتخدع. هربت إلى المطبخ وجثوث أمام الفرن محاولةً تهدئة ضربات قلبي. دوى خلفي صوت يان:

«إننا ننتظر أماندا لكي نشرب نخباً»، أما أنا فقد كان كل ما أريده هو أن أخفي، أن أهرب، ولا أكون هنا معهم.
كان الفرن ساخناً، ولا يزال الديك في الثلاجة، استغرق مني وضعه على رف الفرن، ورشه بالصلصة التي جهزتها، وإغلاق الفرن، وقتاً لا نهائياً. سأضيف الكستناء لاحقاً، في منتصف الطهي. كررت في ذهني هذه التعليمات، لكي أتشبث بشيء ملموس.
«انظري... لقد أتيت لك بصورة لأزهارك...»

لم أنتبه وأنا أنهض، إلى اقتراب ريشار مني، الأمر الذي جعلني أجفل عندما سمعتُ صوته. مدَّ لي يده بهاتفه المحمول، واستغرق الأمر مني بضع ثوانٍ للاستجابة وأخذه منه. تعرفتُ، على الشاشة، على قبر بنجامان. حجر الشاهدة الأبيض. اللوحات التذكارية. وفي الوسط باقة ضخمة. زهور بيضاء رقيقة مرقطة باللون البرقوقي.

«إنها...»

لم أكمل جملي. أوما ريشار:

«إنها الزهور التي طلبتُ مني وضعها على قبره»

سالت دمعة على خدي، لكن ريشار تظاهر بأنه لم يرها. ربما لم يلاحظها، لأنه كان الآن يبتسم ابتسامة حزينة، ومدَّ لي هاتفه المحمول من جديد.

« لقد صنعتُ هذا، على رف الموقد.»

قام بتكبير الشاشة بأصابعه ذات البشرة الجافة والمتشققة. إنها آثار مهنة النجارة التي يعمل بها. رأيتُ مستطيلاً من الخشب الفاتح حُفرت عليه بضع خطوط بارزة بلون أفتح. استغرق مني الأمر ثوانٍ لأتعرف على رأس طفل حديث الولادة، عيناه مغمضتان، وكأنه نائم. وفي الأعلى، بحروف سوداء مائلة، يظهر اسم من خمسة حروف. مانون.

«هل أنتما قادمان؟» علا صوتُ آنا بالسؤال خلفنا.

لا أحد منا استجاب. أمام وجبة الديك التي تنضج، انخرطت في البكاء بدموع حارة، وريشار يربت على كتفي بشكل أخرق.

هل تتذكر وجهها؟ تمتعتُ بهذه الكلمات وأنا أشهق، لست متأكدة حتى من أنه سمعني. إلا أنه أوما برأسه بجدية، ولا شيء آخر، في تلك اللحظة، كان يمكن أن يفيدني أكثر.

فيما بعد، أصبحت السهرة ألطف. أخذوني إلى الطاولة، ولم يعلق أحد على عيني المحمرتين. وضعت كاسندرا يدها فوق ركبتي واستطعت أن أبتسم لها. حدوثٌ حذو الآخرين وهم يرفعون أكواب الشمبانيا وشعرت بالارتياح عندما سمعت يان يعلن:

«لروح بن»

رددنا جميعاً «لروح بن» بشيء من التأثر في أصواتنا. أضاف ريشار، بقدر أكبر من الخجل:

«ولروح مانون»

بصوت واحد، ردد الجميع، باستثنائي، فقد شعرت بغصة شديدة في حلقي. من الأفضل أن تجري الأمور على هذا النحو، خالية من التظاهر، وأن يحضر بنجامان ومانون، معنا حول المائدة. حتى القطة شعرت حتماً بذلك لأنها خرجت من مخبئها دافعةً كاسندرا إلى إطلاق صيحة تعجب، وقد عاد إليها طبعها على عجل:

«ومن يكون هذا؟»

ابتسمت وأعلنت، بشيء من الفخر:

«قطتي. قطتي الرمادية.»

لا أعلم كيف مررت بضع كلمات بشأن حديقتي. لا شك أنهم كانوا يتساءلون عن كيفية قضاء وقتي في هذا المكان وسط الغابة، فأتيْتُ على ذكر قطعة الأرض، وخضروات الشتاء، وأزهار الربيع. كانت خبرة أنا، في مجال زراعة الخضروات، لا تُضاهى. هكذا علمت بأنه كان لديها حديقة في المنزل أثناء إقامتهم في منطقة جورا. وأن بنجامان ساعدها كثيراً في العناية بها، في حين كان يان أكثر اهتماماً بالكتب. لهذا السبب، عندما رأيت اهتمامها بخضرواتي، أتيْتُ على ذكر دفاتر

السيدة هيوغ التي ساعدتني على الانطلاق، فطلبت أنا، بعينين لامعتين، أن تراها.

« أوه! إنها منجم ذهب، كل هذه الدفاتر... »

أخذت تقلب الصفحات، تتوقف عند بعضها، تقرأ، تهز رأسها عندما تجد معلومة مثيرة للاهتمام.

قالت: «ربما أستطيع البدء من جديد بتهيئة حديقة خضراوات، لدينا مساحة خلف المنزل. ليست كبيرة، لكنها تكفي لزراعة بعض الخس، ونبتة أو اثنتين من الطماطم، وبعض البصل. نعم، البصل.»

رأيت بأن الفكرة قد تشكلت في ذهنها من الطريقة التي راحت تحديق إليّ بها، وتمسح بها فوق غلاف المفكرة. استحسنت كاسندرا الفكرة وقالت:

«في هذه الحال أود أن أتعلم معك. لم أزرع أي شيء في حياتي. ربما تكون هذه فكرة جيدة بالنسبة لـ ميني بوس.»

لم أستطع بعد ذلك، طبعاً، إلا أن أسألها عن طفلتها القادمة التي تسميها ميني بوس، وحين رأيتُ تعبير البهجة الذي أجابته به، ندمتُ لأنني لم أسألها عنها في وقت أبكر. علمتُ بأن ميني بوس من المتوقع أن تولد في نهاية شهر يناير، وأنها بخير، لكن كاسندرا منهكة، وأن الاسم لم يتم تحديده بعد، ولكنها تنوي أن تباغت يان وتفرض الاسم الذي تريد. لم يقل يان شيئاً، كما هو الحال عادة، اكتفى فقط بهز كتفيه وكنا جميعاً، نحن المجتمعين حول الطاولة نعلم جيداً بأنه سيسمح لكاسندرا أن تقرر اسم طفلتهما، لأنه بالإضافة إلى لطفه ومراعاته، كان يحبها بجنون.

«اللعة، كستناءاتي!»

في خضم هذا كله، نسيت الوجبة والكستناءات التي يجب وضعها في الفرن. لحسن الحظ، حضرت أنا إلى المطبخ لمساعدتي في تدارك خطأي.

«عدتُ إلى ارتياد الكنيسة وحضور القداس»

بينما كنت أسقي كستناءاتي بعصارة اللحم وزيت الزيتون قبل أن أعيد إغلاق باب الفرن، جاء اعترافها هذا مثل سقوط شعرة في الحساء. لم أجد ما أجيب به سوى «أه» رخوة وضعيفة.

«يعتقد المعالج النفسي في دار الرعاية، بأنها فكرة جيدة.

«مم... أتخيل ذلك...»

«ربما مضت عشرون سنة منذ أن ذهبنا إلى هناك، أنا وريشار. وبعد معمودية ولدنا، تباعدت أوقات ارتيادنا لها أيام الأحد... ثم توقفت. توقفت تماماً.»

صمتت مطولاً إلى درجة أنني شعرت بأن عليّ أن أسأل:

«هل يُشعرك الأمر بالراحة؟»

أومأت برأسها وقد بدت عليها فجأة هيئة جادة.

«راحة شديدة»

غمرت المطبخ بكامله رائحة لطيفة. كانت قطتي الرمادية تراقب المشهد بحذر.

«إذا أردتِ مرافقتنا إلى هناك...»

هزرت رأسي بالنفي. على عكس بنجامان، أنا لم أعمد أبداً. والمرة الأولى التي حضرت فيها قداساً، في الثالثة عشرة من عمري، كانت في جنازة جدتي. لم يتمكن الإيمان مني أبداً. وتبدو لي الكنائس متقشفة باردة وكثيبة. لا أحتاج إلى كنيسة ولا لشاهدة قبر كي أحزن على بنجامان، وتعرف أنا ذلك بالتأكيد.

«لا أظن ذلك... شكراً على كل حال...»

بدت أنا متألّمة قليلاً لأجلي.

«تعلمين، حتى الحياة اليومية الأقل مشقة، لا تعود كافية في بعض الأحيان. قد يحدث أن نحتاج إلى شيء آخر. شيء مختلف.»

فضّلتُ أن أومئ برأسي فقط. شعرتُ جيداً بأن أنا اعتقدت بأنني لم أفهم. لكنني لم أفعل شيئاً يصحح اعتقادها. عدنا إلى الطاولة وأنا مرتاحة لأن الموضوع استُبعد نهائياً.

بعد السلطة المكونة من السلمون والشبت، وطبق الدجاج مع الكستناء، غادرت كاسندرا الطاولة لترتاح في المقعد الرمادي. وضعت يديها على بطنها المستدير، وغفت بسرعة، مع ابتسامة تطفو فوق شفيتها. رحت أنظر إلى بطنها المتوتر يعلو وينخفض ببطء مع تنفسها. في غضون شهر سوف تصبح أماً. يجب أن تحافظ على هدوئها. لم يعد هناك شيء يمكنه أن يعكّر صفو سعادتها، كما حدث لسعادتي في يونيو الماضي، قلت لنفسي أيضاً...

«أماندا، هل تريدان تقديم الجبن الآن؟»

أسعدني أن تختطفني أنا من شرودي، وتشتت انتباهي بعيداً عن صورة كاسندرا النائمة.

بدأنا نتناول الأجبان وسط حكايات طريفة عن العم ألبير الذي لم أقابله قط، لكن بنجامان ويان كثيراً ما أخبراني عن أفكاره المجنونة، والتي كان أفضلها نظريته القائلة بأن الأرض مسطحة.

«وماذا عن نيل ارمسترونج؟» سألتُ كاسندرا التي استيقظت.

«مؤامرة من NASA شارك فيها المتورون والماسونيون» أجاب يان بابتسامة ساخرة.

عندها، وعلى سبيل اللهو، أخذنا نرد على يان مستخدمين أفضل ما لدينا من حجج.

«فكيف تغيب الشمس إذن في هذه الحالة؟» قال مردداً عن ظهر قلب، أجوبة العم ألبير، بأكبر قدر من الجدية:

«هذا مجرد خداع بصر بسبب الابتعاد عن الشمس من منظور المراقب. فالشمس لا ترتفع، بل تبتعد معطية الانطباع بأنها تختفي في الأفق»

«وماذا عن الصور الملتقطة للأرض من الفضاء؟»

«فوتوشوب»

«والجاذبية؟»

«لا وجود لها»

«عفواً؟»

«إذا كان تساقط المطر والأشياء نحو الأرض، فهذا لأن قرص الأرض يتسارع دوماً نحو الأعلى، بفعل الطاقة المظلمة، كما يتسارع مصعد»

كنا نضحك، وكان ذلك يشعرني، ويشعرنا جميعاً، بالارتياح. أعتقد أن بنجامان كان سيحب رؤيتنا نضحك هكذا نحن الخمسة.

لقي طبق الـ بانا كوتا ترحيباً حاراً من قبل الجميع، حتى أن كاسندرا سألتني إذا بقي لدي شيء منه، وبما أنني كنت مستعدة لجولة ثانية، فقد سكب الجميع لأنفسهم من جديد. اغتنمتُ الفرصة في نهاية الوجبة لتسليمهم الشموع التي صنعناها لهم. بعطر البرتقال لكل من ريشار و يان، وبعطر الورد لكاسندرا وأنا.

«نحن أيضاً نحمل هدية لك»، أعلنت كاسندرا.

عاد يان بعد لحظات من السيارة يحمل نبتة خضراء مغلفة بورق هدايا شفاف، ومزينة بشريط وردي جميل.

«أردنا أن نجلب بعض الحوية إلى منزلك. لم نكن نعلم بوجود القطة... أتمنى أن تصبح صديقة لشجيرة التين...»

قبلتُهما. لا زلتُ أجد صعوبة في الاعتياد على بطن كاسندرا المستدير، بيني وبينها، كأنه متراس يمنعي من الاقتراب منها كثيراً. هل كنتُ أنا أيضاً أعطي هذا الانطباع؟

من جانبهما، أنا وريشار، أعدا لي أيضاً هدية خاصة.. هي عبارة عن علبة خضراء تضم إحدى بلوزات بنجامان القديمة ذات القلنسوة. بلوزة ناعمة ورقيقة، تَلَفَتْ من كثرة الاستعمال، فرَقعوها، وهي واحدة من تلك التي كان يرتديها كثيراً في الشقة.

«أعلم أنك لا ترغبين بوجود أغراضه معك هنا، ولكن في حال غيرت رأيك يوماً ما...»

أظن بأنني غيرتُ رأيي لأنني كنت في تلك الأمسية سعيدة بوجود بلوزته القديمة بين يدي، سعيدة بفكرة أنني سأتمكن عند انصرافهم بعد قليل، من ارتدائها طوال الليل.

شرينا جميعاً كأساً أخيراً من الشمبانيا، باستثناء كاسندرا التي راحت ترشف عصير تفاح، ثم أعلنت أنا بأن الوقت قد حان للانصراف. كانت الساعة تقارب الواحدة صباحاً. راقبتُهم وهم يرتدون معطفهم، يودعون قطتي الرمادية التي لا تزال فوق سطح الثلاجة، ويتجهون نحو المدخل. تبادلنا العناقات ونحن مدركين بأننا لن نلتقي مجدداً عما قريب.

«ميلاد مجيد»

«نعم، ميلاد مجيد»

«انتظروا»

أوقفتهم صرختي بعد أن وصلوا تقريباً إلى سيارة ريشار.

«أغراض الغرفة الصفراء...»

بقيت جملتي معلقة، وشعرتُ بأن ريشار وأنا يحبسان أنفاسهما.

«هل ما زالت في القبو؟»

أوما ريشار قبل الآخرين.

«نعم...هل... هل تريدان استعادتهما؟»

هزرت رأسي. شعرتُ بغصة في حلقي وأصبح صوتي أجش قليلاً،

لكنني واصلت على أية حال:

«أريد إعطاءها إلى يان وكاسندرا. لأجل ميني بوس.»

خيمت لحظة قصيرة من الصمت على فناء منزلي المغطى بالثلج.

«كلها؟» تساءل يان متفاجئاً بعض الشيء.

كانت الغرفة الصفراء تضم كل شيء: سرير الطفل، طاولة تغيير

ملابس مختصة داخلية وجوارب وفساتين وبيجامات:

البيجاما الوردية مزينة برسوم دبية صغيرة، والبيجاما الصفراء بزرافة

ضاحكة، والخضراء بفرس نهر أبيض، وكذلك بضع دمي محشوة تمثل

حيوانات...

«نعم. كلها»

بدا لي أن الصمت سيدوم إلى الأبد ويات ثقيلًا شاقًا وأشد كثافة

من الثلج. لكن يان هو الذي حطمه في النهاية، مطوقاً بذراعه كتفي

كاسندرا:

«شكراً لك يا أماندا. أشكرك بالنيابة عنها»

لم يضيفوا شيئاً آخر. تبادلوا الابتسامات قبل استئناف الطريق فوق الثلج الكثيف، نحو سيارة العائلة. بقيت عند عتبة الباب إلى أن اختفوا في ليل عيد الميلاد المرصع بالنجوم.

داخل منزلي، كانت القطة الرمادية تجلس فوق أحد الكراسي وتنتظرني. القطة الرمادية وبلوزة بنجامان القديمة ذات القلنسوة. راقبت الطاولة التي أُخليت من قسم من الصحون وأدوات الطعام، وكؤوس الشمبانيا الفارغة، الصحون الخاصة بـ البانا كوتا، والتي تكاد تكون ممسوحة تماماً، المناديل المكوّمة، شموعي المعطرة بشعلتها المرتعشة. لقد سمحت أخيراً لعائلة لوزان بالدخول إلى منزلي الليلة. انتزعتُ عن الحائط الورقة البيضاء التي كنتُ قد كتبت عليها كلمتين «/فتح الأبواب» وقمت بتجعيدها. لم أعد بحاجة إليها بعد الآن.

في هذه الليلة، كان الماضي هو الذي فتحتُ له الأبواب لكي يندفع مثل زوبعة إلى منزلي. أعتقد أنني حققت هدفي.

كان يجدر بي أن أتوقع هذا. في السابق، عندما كانت حياتي طبيعية تماماً، كانت فترة ما بعد الاحتفال، تبدو جوفاء، وتصطبغ بموجة خفيفة من الحزن. الليل المعتم الذي يحل مبكراً أكثر فأكثر. الأكاليل التي تختفي، البرد الذي يستمر إلى ما لانهاية، والربيع الذي لا يزال بعيداً جداً...

ما أعيشه الآن بمفردي كان أسوأ، وسط أشجار الصنوبر، وليس لدي أي سبب وجيه يجعلني أستيقظ لأجله صباحاً، وأفراد عائلة لوزان، ذهبوا بعيداً واستأنفوا حياتهم. كانت قطتي الرمادية تمضي أغلب وقتها في النوم، وشجيرة التين التي أهديت لي، كانت أكثر صمتاً من أن تصبح رفيقة حياة. ولا تزال الحديقة غافية تحت طبقة من الثلوج. أرسل لي ميكا بالبريد شريحة ذاكرة صغيرة تحتوي على الفيلم الذي صنعه فتية بيت الشباب والثقافة عن بنجامان، وهو الفيلم الذي عرضوه في أمسية عيد الميلاد. بقيتُ أبكي مدة ساعة تقريباً. كانت تلك هي المرة الأولى، منذ يونيو/حزيران الماضي، التي أراه فيها بشحمه ولحمه تقريباً، بفضل الشاشة. كان واقفاً هناك - كم كان طويل القامة، هل كنت بصدد نسيانه؟ كان هو وإيليا، خلف مكتب الاستقبال، يوجهان إشارات فجأة للأطفال الذين كانوا على ما يبدو يستفزونهما بالتقاط صور قريبة لهما. صورة لـ بنجامان بوصفه حكماً لكرة القدم داخل القاعة، مرتدياً قبعة البيروفية. صورة لـ بنجامان وعصام خلف مجموعة الطبول، يقرعانها كما لو أنهما يحاولان تحطيم الصنوج.

بقيت عيناى تتمعنان النظر إلى كل سمة من سماته، وكل تعبير من تعبيرات وجهه، التى كنت أعرفها عن ظهر قلب، وكنت بصدد نسيانها تقريباً.

اعتقدتُ بغباء أن الخلاص سيأتى من شموع جوليا المعطرة. بقى لى من الشموع التى صنعناها قبل عيد الميلاد، حوالى عشر، ولدى الآن فى مطبخى، مجموع يقدرُ باثنتين وأربعين منها. لم يعد لدى مادة أولية، ولا برطمانات زجاجية أيضاً، واستخدمتُ كل كؤوس المطبخ، كؤوس البيرة، كؤوس الماء، وحتى كؤوس الويسكى. لم أعد أشرب إلا من الصنبور مباشرةً. هناك شموع فى كل مكان: فوق حواف النوافذ، فوق منضدة العمل، فوق طاولة سريرى فى غرفة النوم، وعلى الأرض فى الصالون. لا بد أن منزلى يشبه ما كان عليه بيت جوليا فى الشتاء الماضى، لكننى لا أقوى حتى على السخريّة من ذلك.

لم يعد لدى شموع أصنعها، ولا حديقة أعتى بها، ولا براغيث أزيلها من فرو قطى. شجيرة التين تحيا حياتها دون حاجة إلى، ولا يزال الشريط الوردى يلف ساقها. لم يبق سواى، هيكلاً عظيماً عديم الفائدة يتنقل فى منزلى من الصباح حتى المساء.

تلقيت من أمى رسالة صوتية. تلك هى علاقتى الوحيدة مع الخارج فى هذا الوقت من يناير/كانون الثانى.

«مرحباً عزيزتى... هذا أنا... أردتُ فقط أن أتمنى لك سنة طيبة... أتمنى أنك ستمكنين من الانطلاق من جديد، أليس كذلك؟... اسمعى يا عزيزتى، سأحاول القدوم إليك فى الربيع... فى شهر مارس... أقبلك... اتصلبى بى عندما يكون لديك الوقت.»

لدي الوقت، لكن ليس لدي الرغبة.

كيف يكون حالك عندما تكبر مع أم أنانية؟ ليس الأمر صعباً، عليك فقط أن تعتاد. كانت والدتي هكذا: أرادت الاحتفاظ لنفسها بكل شيء. كانت تفضل عدم التنازل عن أي شيء وسعت جاهدةً لفعل ذلك. أرادت أن تختبر الأمومة دون أن تضطر للعيش مع زوج. هكذا وجد شابٌ تعيش الحظ نفسه يحمل لقب والد، دون أي مشاور مسبق معه. أفهم لماذا أدار ظهره ومضى بعيداً.

أن تكون أماً، وتبقى شابةً نشيطة ذات حياة اجتماعية صاخبة. صحيح أنها كانت تخرج خلال أيام الأسبوع. صحيح أنه كان لدي مربية أطفال تأتي إلي بانتظام حتى أصبحت في النهاية أسميها «مامو»، نصف أم ونصف مربية. صحيح أنها كانت تشكو من صعوبة التوفيق بين كافة الأشياء: وظيفتها بدوام كامل في متجر المجوهرات، والاهتمام بتربيتي، وحياتها كامرأة عصرية... إلا أنني مع ذلك، لم أقدم على أي رد فعل سلبي. هذا أقل ما يمكن قوله. لقد كنت دائماً فتاة طيعةً ومجتهدة، وتلميذة نجية بشعور مبكر بالمسؤولية، كنت متحفظة، وعقلانية. كيف كان من الممكن أن أكون خلاف ذلك؟

أعتقد بأن بنجامان هو الذي أعاد لي شيئاً من الخفة والإحساس اللاهي. كان مرحاً وواثقاً. كفاك قلقاً يا بوبيت. لا تكوني جادة زيادة عن اللزوم. أعتقد أنه نجح في جعلي لا أحمل الأمور أكثر مما تحتمل. أعتقد أنه جعلني أكثر خفة مما كنت عليه. السعادة التي جلبها لي، والنور الذي أضاءه في عيني، لا شيء ولا أحد في هذا العالم يستطيع أن يأخذ ذلك مني.

«بن، أعتقد أنه يجدر بنا أن نتزوج»

أذكر جيداً التعبير الذي ارتسم على وجهه عندما خرجت مني تلك الجملة أثناء تناول وجبة من حساء الكراث. تعبير هو في منتصف الطريق بين المفاجأة وعدم الفهم، مع فمه نصف المفتوح، وملعقته المعلقة في الهواء.

«ماذا؟»

«نعم»

أقر بأن الحوار لم يكن بناءً جداً، إذ لم أستطع التعبير عن نفسي بهدوء. كان اضطرابي يعادل اضطرابه.

«ليس لأجلي... أعني... ليس لأجلنا، ليس لأجلنا فقط...»

كانت يداي قد استقرتا على الانتفاخ الصغير الذي أخذ ينمو ببطء تحت كتفتي الموهير الوردية. لكنه لم يفهم.

«سوف يسمى كلاهما لوزان»

رفع حاجبهُ، حاجباً واحداً فقط. كان الشخص الوحيد الذي أعرفه على هذه الأرض، والذي يمكنه رفع حاجب واحد. وهذا سبب إضافي لإعجابي به.

«سيحمل كلاهما اسم لوزان وسأبقى دائماً أحمل اسم لاكور. هذا

لا يصح، يا بن...»

عندها ابتسم لي بهيئة حانية:

«هذا لا يصح، يا بوبيت؟»

استهجت: «لا. لا يصح أبداً. كيف تريدنا أن نكون عائلة!»

استأنف تناول حسائه وهو يبتسم.

«حسناً. معك حق. اطلبي موعداً في البلدية إذن. سنذهب لكي نتزوج.»

«متى؟» تمتمتُ.

«في أي وقت تشائين، لا يهم. الأفضل أن يكون في أسرع وقت ممكن، أليس كذلك؟»
«نعم...»

أنا أيضاً استأنفتُ تناول حسائي. كان ضجيج الملاعق هو كل ما يُسمع في المطبخ. كان بنجامان يلقي علي نظرات مبتهجة ما دفعني في النهاية لسؤاله:

«ماذا هناك؟»

ضحكُ.

«هل أستطيع أن أخبر الفتية بأنك طلبتِ الزواج مني؟ أعتقد بأن الخبر سيذهلهم...»

«بن!»

إلا أنني شاركته الضحك.

«وماذا عن الشهود؟» سألتُه لاحقاً، محطمة الصمت الكثيف الذي كانت ملاعقنا بالكاد تعكّره.

كان قد فعلها من جديد: رفع حاجباً واحداً. أعتقد أنه كان يحاول إثارة إعجابي.

«يان وكاسندرا، أليس كذلك؟»

«نعم... نعم، طبعاً.»

لم يسبق أن طرح السؤال فعلياً. لماذا يتعين علينا أن نجعل عرض الزواج هذا رسمياً؟ كان بنجامان على حق. فما الذي كان يمكن أن يمثله التوقيع على سجل مدني أمام هذا الجنين، ثمرة حمضينا النوويين، الذي كان ينمو في أحشائي؟

أحتفظُ من زواجي بذكرى بسيطة ومبهجة. كان ذلك في نهاية شهر مارس/آذار، وكنت قد أخرجت من صندوق ملابسي الصيفية فستاناً من الكتان بلون السلمون، كان خفيفاً بعض الشيء بالنسبة للموسم، لكنه فضفاض بما يكفي لراحة بطني ومن يسكن فيه. كانت كاسندرا قد أعارتني سترة سوداء ملائمة وأنيقة للغاية. ما أهمية ذلك؟ حتى أننا لم نلتقط صوراً، باستثناء صورة خارج مبنى البلدية، ظهر في خلفيتها بنجامان ويان وعلى وجهيهما النظرة الساخرة نفسها، وكاساندرا وأنا مع ابتسامتين واسعتين على شفاهنا المصطبغة بالحمرة. لحظة قصيرة جمدت في صورة. انفجار قصير لسعادتنا الصادقة.

«هل نذهب لتناول البيرة؟» قالت كاسندرا.

كان حفل الزفاف أقرب إلى حفل طلابي يقام بعد الدراسة، لِمَ لا؟ اخترنا حانة أيرلندية في ليون القديمة وأخذ الجميع يشربون البيرة بينما اكتفيت بشراب الليمونادة بالрман.

تلك كانت هي النكهة الحقيقية لحياتي آنذاك، نكهة ليمونادة بالрман. يا إلهي كم كنت سعيدة.

رحت أعد الأيام، وأراجع يوميات السيدة هيوغ. ماذا كانت السيدة هيوغ تفعل في فترة حزنها وهي وحيدة في شهر يناير/كانون الثاني؟ وكيف أملاً حياتي اليومية؟

عادت إلى ذهني كلمات أنا في ليلة عيد الميلاد. «تعلمين، في بعض الأحيان حتى الحياة اليومية الأقل مشقة، لا تعود كافية. قد يحدث أن نحتاج إلى شيء آخر. شيء مختلف.»

أنا وريشار كانا مؤمنين وإن لم يمارسا العبادات دوماً. يان كذلك الأمر، وإن كانت كاسندرا ملحدة مؤكدة. لعل إيمانهم هو الذي مدهم بالقدرة على الاستمرار، هو الذي ساعدهم على إيجاد معنى في كل هذا الألم والظلم القاسي. أما أنا فلا. أنا عليّ الاكتفاء بالوقائع الخام والقائمة. رجل يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً على وشك أن يصبح أباً، يموت في جزء من الثانية، بانفجار كبده وطحاله تحت شاحنة توصيل. طفل لم يولد بعد، يموت مصاباً بسكتة قلبية. هذا هو الحال. لا شيء يمكنه التخفيف من الحقيقة المأساوية. ولا حتى صورة الجنة التي سيلتقيان فيها معاً، أو التقيا فيها، الجنة التي سيقومان بالسهر عليّ انطلاقاً منها، بانتظار انضمامي إليهما.

ليتني أستطيع الإيمان بذلك. ليتني أستطيع أن أروي لنفسي قصصاً جميلة، أن أعلل نفسي بالأوهام، لكن هذا لا ينجح. ربما كان ينبغي أن يُغرس الإيمان في نفسي في عمر مبكر، منذ حادثة سني. لم تؤمن والدتي بأي شيء سوى حريتها. يا إلهي، كانت دائماً تنطق بهذه الكلمة مع ابتسامة ساخرة على شفيتها. ما كان عليها أن تفعل ذلك. كان ينبغي لها أن تسمح لي بالاختيار. الآن فات الأوان. بعد ثلاثين عاماً لا يعود بالإمكان غرس الإيمان. ومع ذلك، أعتقد أنني كنت بحاجة إلى إعادة شيء من القداسة إلى حياتي اليومية...

يبدو أن الفكرة خطرت لي عندما رأيت الشموع في النوافذ. عيد ميلادي الثاني والأربعين. وبعد ذلك عادتني صور من تقرير قديم شاهدته في وقت لم أكن أعرف فيه بنجامان بعد. تناول التقرير حفلاً هندوسياً لتقديم قرابين في إندونيسيا. أكاليل من الزهور الزاهية، الوردية والحمراء والبرتقالية والبنفسجية والصفراء... صواني حديدية صغيرة مغطاة بالفواكه والبسكويت والنباتات. قرابين. بخور متصاعد يجعل الوجوه خلفه تبدو غائمة. موسيقى إيقاعية خفيفة مبهجة، ترافق الحفل. ابتسامات على الشفاه. كان حفلاً جميلاً، ملوناً ومليناً بالحياة. لماذا عادت تلك الرؤى إلي الآن؟ تركتُ هذا السؤال معلّقاً. غفوتُ في منتصف أول المساء، فوق المقعد الرمادي القديم، وقطعتي في حضني.

عندما استيقظت، كان الليل قد حل ومعه قمر جميل، ممتلئ، مستدير، وقوي الإضاءة. لبثتُ أنظر إليه مسحوراً، وعند ذلك أتتني كل تلك الأفكار وفرضت نفسها عليّ في تسلسل منطقي لا تشوبه شائبة. الشموع، الطقوس الهندوسية، جمال القمر.

مددت يدي إلى مقلمتي القديمة في الصالون لأخرج منها قلماً، ومزقت ورقة من دفتر ملاحظاتي. كتبتُ هذه الكلمة: احتفلي.

ثم قمت بلمصق هذه الورقة على الحائط، في مكان الورقة السابقة التي كتبتُ عليها /فتحي الأبواب، وارتديت بلوزة بنجامان القديمة قبل أن أخرج حاملةً شموعي وعلبة أعواد ثقاب.

لم أعلم حقاً ما الذي خطر ببالي في تلك اللحظة، باستثناء فكرة إشعال شموعي الاثنتين والأربعين لذكرى مولدي، ووضعها في الثلج، وجعلها تنافس ضوء القمر البهي. تבעتني القطة الرمادية بطبيعة الحال.

كانت تلازمي معظم الوقت. ظهرَ ظل الصفصاف الباكي على خلفية السماء الزرقاء. بدت أنفاقي في ضوء القمر وكأنها مضاءة بالفلور. رؤية شبحية لعالمي الصغير الضائع في منتصف اللا مكان.

هَبْ نسيم خفيف أجبرني أن أجلس مقرضةً في الوحل أثناء إشعال شموعي واحدة تلو الأخرى. لسنا بحاجة إلى إلهٍ لكي نعيد إلى حياتنا جزءاً من المقدس. هذا ما فكرت فيه وأنا أصر على إعادة إشعال الشموع التي تنطفئ، وإنعاش تلك التي تضعف. ثم أتتني فكرة البحث عن مأوى خلف أغصان الصفصاف الباكي، العارية الطويلة، التي تشكل ساتراً طبيعياً. شجرة بول. تسَلَّتْ خلف الأغصان، أحمل الشموع بين ذراعي. هناك، لا ريح ولا ثلوج أيضاً، كما أن العشب بقي على لونه الأخضر. يوجد هنا، هدوء هائل فقط. جذع ضخم مهيب، وأغصان تؤمّن الحماية. قطتي الرمادية وأنا. إنه مكان مثالي. أخذتُ وقتي لكي أتنفس. لسنا بحاجة إلى صلوات لكي نتحدث إلى موتانا. وضعت شموعي حول جذع الشجرة. لسنا بحاجة إلى صلوات. أشعلتها من جديد واحدة تلو الأخرى. ثم وقفت راضية وعينايتي تلمعان. هالاتٌ من ضوء خافت متألّج، وشبه مقدس، أخذت تضئ جذع شجرتي الضخم وملجئي السري. إذا كنتُ أنا متأثرة، فقد بدت قطتي مبهورة.

لا حاجة إلى طقوس مهيبة لخلق شيء مهيب وجميل. تلك كانت فكرتي الثالثة وأنا أتأمل النار المقدسة التي تحرّك ظِلِّنا على جذع شجرة الصفصاف. ظلي الكبير والمشوه، وظل القطة الرمادية، الصغير والغامض. لقد خلقت الليلة شيئاً جميلاً. حتى القطة لا تستطيع أن تنكر ذلك. فقد غمر انعكاسُ اللهب نظراتها الخضراء الفاتنة. سمحت للأفكار أن تتدفق في ذهني بفوضى تامة.

شكراً لك، يا بول، لأجل شجرتك.
ابتسمتُ. ربما شعرت بالغباء، وربما لا ابتسمتُ، لا غير.

شكراً لك يا سيدة هيوغ على منزلك. شكراً على تقاويمك ومفكراتك.
ارتعشت الأغصان في برودة الليل. تسلفت هبةٌ ريح خفيفة، لكن
الشموع صمدت وبقيت مشتعلة. كما صمدت ظلالُنا.
شكراً بن، على هذه السنوات الأربع. شكراً لأنك جعلتني أكتشف
نفسي وجعلتني أكثر خفة.
ابتسمتُ مجدداً. كنت أعرف أن القطة تراقبني بانتباه. قطتي الرمادية،
التي تبنتني. وضعتُ يدي فوق رأسها فراحتُ تخرخر.
شكراً لأنك جعلتني أصبح أماً ولو لفترة وجيزة. أعتقد بأن هذه كانت
أجمل هداياك.

في البعيد، بقي منزلي مفتوحاً ومُضاءً. لم أكن حتى أكثرث بذلك،
فقد كنت الليلة أمام حالة طارئة. القمر المكتمل. الحاجة للاحتفال.
الحاجة إلى المقدس.

كانت أنا على حق طبعاً. لكنني لم أكن أحتاج إلى كنيسة، ولا
إلى صلاة، ولا إلى مسبحة للاحتفال بموتاي. لدي شجرة صفصاف
باكٍ سميت على اسم شخص متوفى، وقطة تبنتني، وشموع شكلتها
بنفسي. لدي القمر المكتمل، ولدي النسيم أيضاً، فبدونه لن يتمكن
لهبُ الشموع من التراقص وهل ستستطيع ظلالُنا أن تفعل ذلك...؟

لمدة أيام وأيام كنت أترقب شيئاً ما من خلال نافذة صالوني. ما هو هذا الشيء؟ لست أعلم حقاً. هل كان خيطاً من أشعة الشمس، أم قوس قزح، أم شيئاً ما يجعلني أخرج من مخبأي، شيئاً يمدني برغبة بأن أشعر بالدهشة، رغبة بالاحتفال من جديد. من يدري؟

ولكن شيئاً لم يحدث. كانت السماء رمادية، معتمة، ثقيلة. لم يدخل شيء عبر النافذة. كان من الممكن حتى أن يتوقف الزمن دون أن ألاحظ ذلك.

ثم ظهرت الحياة فجأة في أحد الأيام على شكل رنة هاتف.
«ألو؟»

«أماندا؟ معك أنا...»

جعلتني نبرة صوتها أخشى نبأ سيئاً. كنت قد غفوت في المقعد الرمادي متدثرة بغطاء، والقطعة الرمادية في حضني. حاولت أن أستيقظ.
«كاسندرا تتحضر للذهاب إلى المستشفى»

«ماذا؟»

«لا شيء خطير. على العكس تماماً. حان وقت ولادتها»
«أوه...»

وجودي في غابتي أفقدني الإحساس بالزمن.
«من المتوقع أن تولد الطفلة أثناء الليل.»

لم أعثر على ما أجيب به. سوف أبقى حذرةً على الدوام من هذا النوع من الأخبار. لقد أكدوا لي أنني سأرى طفلي الصغيرة مانون قبل الفجر، ثم ماتت حتى قبل أن تخرج إلى النور. لذلك، فإنني، في هذا اليوم الرمادي الكثيب، وأنا أغوص في مقعدي، عالقةٌ تحت ثقل القطة الرمادية، لا ينتابني إلا القلق.

«سيسير كل شيء على ما يرام»، أضافت آنا وكأنها قرأت أفكاري: «هل ستبقيين قريبة من هاتفك؟ سوف نتصل بك لإبقائك على اطلاع.» غمغمتُ بـ «نعم» غامضة.

«هل تودين أن تقولي لها شيء ما؟»

«لا أظن بأن...»

لم أكمل جملي. لا يهم، فلم تكن آنا تصغي إلي. تناهت إلي عبر الهاتف جلبة أصوات. خطوات تنزل الدرج بأقصى سرعة. لا شك بأنه يان ينزل حاملاً حقيبة الأغراض التي أعدتها كاسندرا بعناية. على الأرجح أن بينها بيجامات مانون. جلبة مفاتيح، وصوتُ باب يُفتح. أصواتٌ غير واضحة. أظن بأن كاسندرا تمزح هناك في الخلف، لاهيةً وسعيدة. أسمع ضحكها. «سنعاود الاتصال بك يا أماندا، اتفقنا؟»

- «حسنًا. قبلي كاسندرا بالنيابة عني»

«سأفعل»

أغلقتُ آنا الخط، ولبثتُ بلا حركة فوق المقعد القديم، وقلبي يدق بقوة على نحو غريب. من الأفضل ألا أكلم كاسندرا، لكي تبقى بعيدة عن قلقي.

كان الليل قد هبط مع أن الساعة بالكاد كانت تشير إلى الخامسة. كنت مشدودة الأعصاب وشعرت القطة بذلك، فتسللت إلى الخارج في أول فرصة. راقبتُ الوقت في هاتفي. مضت نصف ساعة منذ ذهاب كاسندرا. هل وصلت إلى المستشفى؟ هل وضعوها في غرفة، برفقة يان؟ أحتاج أن أفعل شيئاً ما، أن أبقى منشغلة بأي شيء. أحتاج أن أطرد عني قلقي. هكذا تذكرتُ عندئذٍ حديقتي، خضروات الشتاء التي زرعتها. الآن وقد ذاب الثلج، وتراجع البرد قليلاً، ربما أطلت خسةً برأسها من التربة. وماذا بشأن نباتات الملفوف؟ هل لا تزال على قيد الحياة؟ أمسكتُ بمصباح يدوي، وبلوزة بنجامان القديمة التي كانت بحاجة إلى غسيل، وخرجتُ تحت جنح الليل.

بقيت أنفاقي في مكانها. رفعتُ القماش المشمع بعناية، وأنا أدرك جيداً بأن مهاراتي المتواضعة في البستنة ربما لم تثمر. في الواقع، ظل خط الهندباء فارغاً تماماً. تلة تراب قاحلة. ليس هناك ورقة واحدة، لا شيء. أعدتُ إنزال القماش المشمع وأنا أكظم خيبة أمني. سأتصرف بشكل أفضل في الربيع. سأعيد قراءة مفكرات السيدة هيوغ بعناية أكبر. لم يُعطِ الخط المخصص للثوم، نتيجةً أفضل، ولكن السيدة هيوغ كتبت عن ذلك: يتم حصاد الثوم في شهري يونيو ويوليو. اللفت أيضاً لم ينبت. لكن الوقت مبكر جداً. عندما بدأتُ أشعر باليأس، كانت تنتظرني مفاجأة سارة تحت المشمع الأسود الذي يغطي صفّ الملفوف: إنها هناك، الأوراق الخضراء الكبيرة المليئة بالضلوع. خمس نباتات من الملفوف تجاهد لكي ترى ضوء النهار، وتخرج من التربة، وتمد أوراقها نحو السماء. قلب المنظر كياني. أنا التي أنجزتُ ذلك، هذا من عمل يدي. أنا التي غرستُ البذور وأعدتُ تأهيل تربة قاحلة مهجورة منذ زمن

طويل. لقد نجحت. ظهرت خمس نباتات ملفوف. خمس نباتات ملفوف في طور النمو. لم أستطع الامتناع عن المقارنة مع ميني بوس التي كانت في هذه اللحظة، تخرج إلى النور على بعد عشرات الكيلومترات من هنا. لا شك أن هذا قدر كبير من الحيوانات في ليلة واحدة. وها هي عيناى تتسعان مجدداً، في مزيج من السعادة والمفاجأة، وقد تبين لي بأن خس الحمل ينمو بشكل رائع، مترفاً ومزدهراً. ثلاث نباتات خس جميلة سأتمكن من قطفها هذا المساء وتناولها مع صلصة الخل. وكما هو الحال دائماً، لم يلبث ذهني أن شرد بعيداً. جوليا. ستكون جوليا سعيدة حين تعلم أن حديقة والدتها أنتجت الخضروات الأولى. يجب أن أتصل بها. هل أدعوها للعشاء؟ على طبق من غراتان البطاطا نأكله مع أول خسة من زراعتي؟ استيقظت حليماثُ التذوق لدي. لقد نسيْتُ قلقي لفترة من الوقت، حين أذهلني ميلاد خضرواتي وتصورُ هذا العشاء. عدت إلى منزلي، فقد كنت بحاجة إلى سكين وكيس بلاستيكي لوضع خساتي. أوشكْتُ أن أتعرّ بالقطعة التي كانت قد عادت إلى المطبخ واستلقت هناك بكامل طولها.

«حصلنا على خَسَاتنا الأولى، يا قطة.»

بقيت مسترخية غير مبالية. أعتقد أن الأمر لا يعينها. أحضرتُ ما أحتاجه لحصادي الأول، من الخزانة التي تعلو حوض الغسيل، وخرجتُ في جَوْ نهاية يناير، معتدِل البرودة.

جثوثُ على الأرض دون أن أقلق بشأن ملابسى بعد الآن.

«مرحباً، أيتها الخسة.»

بسبب الإثارة، كانت الطبقة الحادة هي التي هيمنت على صوتي. خَسْتى، خَسْتى الأولى على الإطلاق.

«تعلمين أنني أنا التي زرعتكِ»

وجهت ضربة سكين إلى قاعدة النبتة، ثم قطفتها بعناية. ليت بنجامان كان يراني... كررت العملية على الاثنتين الأخريين، واستقمتُ بفخر. هل كانت السيدة هيوغ تشعر بهذا الرضا وهي ترى الحياة تنمو وتتكاثر وتزدهر بفضل رعايتها؟ عدت إلى منزلي بخطى بطيئة، وكيس البلاستيك يتأرجح في يدي. لقد نسيت كل الهموم، ولم أعد الآن أفكر إلا بشيء واحد: كيف سأغسل خستي الأولى وكيف سأعدها. فكرت أيضاً ب ميني بوس: بالشمعة التي سأضعها لها على حافة نافذتي.

وبينما كنت منشغلة باهتمام بالغ بغسل أوراق خستي الخضراء، لم تكن كاسندرا تفارق ذهني. وكان يتأرجح على حافة النافذة، لهبُ الشمعة التي ستجلب لها الحظ الطيب، كما أقنعتُ نفسي. حاولت أن أتخيل وجه ميني بوس، فيما كان الماء البارد يسيل على يدي. وجه صغير، أحمر، مجعد قليلاً بالضرورة. شعر بني خفيف جداً. لكل من يان وكاساندرا شعر بني. أي من بيجامات مانون سيختاران؟ أراهن أنهما سيختاران الصفراء المزينة بالزرافة الضاحكة. إنها البيجاما التي كنت سأختارها لو أتيح لي تجهيز حقيبة ولادة، لو لم يُقتل بنجامان في ذلك اليوم. أغلقت الماء والتقطتُ مجففة الخُضار.

بقي هاتفي صامتاً طوال وجبتي التي تكونت فقط من أوراق خس مع عجة بالفطر. كان أثر الأوراق على لساني حلواً مخملياً طرياً. أغمضت عيني لكي أساعد حليماتي الذوقية على امتصاص المذاق اللطيف الذي يذكر قليلاً بالبندق.. أنا التي زرعتها. بمفردي.

حاولت أن أبقى مستيقظةً في مطبخي، حتى وقت متأخر من الليل، وأنا أضع شموعاً جديدة فوق بقايا الشموع التي تذوي. كانت عطور البرتقال والورد تختلط برائحة الشمع الساخن. على حافة نافذتي، انطفأت الشعلة، لكنني لم أعرها اهتماماً. في منتصف الليل، ومع عدم وجود أخبار من آنا، أجبرت نفسي على الذهاب إلى السرير، محاولةً إسكات قلقي. ميني بوس قادمة. يستغرق الأمر بعض الوقت، وهذا عادي جداً. ليس هناك أي سبب لأن تسير الأمور على نحو سيء. ليس الليلة... الدليل... لقد عاشت خسائتي.

في الصباح، أيقظني خيطٌ من أشعة الشمس. كانت القطعة الرمادية تغفو عند قدمي. وعلى طاولة سريري، كان هاتفي المحمول يُظهر لي ثلاث مكالمات فائتة ورسالة نصية من يان، عبارة عن بضع كلمات، وصورة فوتوغرافية. رأت ماي النور في الساعة الخامسة من صباح اليوم. الأم وميني بوس بخير. نقبلك. وجهها متجدد، وعلى رأسها زغب أسود، وعيناها داكنتان. أصبتُ بشأن الشعر، ولم أصبِ بشأن البيجامة... إنها ترتدي البيجامة الوردية، تلك المزينة بثلاثة دبة صغار.

كانت القهوة تسيل بهدوء من ماكينة القهوة وأنا أتمطى واقفة أمام النافذة. كان صباحاً مشرقاً والسماء زرقاء زرقاء ساطعة. كان ذلك أول يوم أرى فيه الشمس منذ عدة أسابيع. شمس ليوم 29 يناير، لأجل ميلاد ماي.

سيتعين علي لاحقاً الاتصال بكاسندرا ويان وكذلك بـ آنا وريشار، لكي أهنئهم، وأخبرهم كم أنا سعيدة، وكم هي جميلة أيضاً. ولكن في وقت لاحق، وليس على الفور. أحتاج أن آخذ وقتي. لذا بقيتُ أمام النافذة. الضوء يجدد النشاط. منذ أيام طويلة لم تغمرني هذه الأشعة،

وهذا الضوء. رحت أحرق إلى زرقة السماء، وقمم أشجار الصنوبر، وأغصان الصفصاف الباكي، التي تهزها الريح. نعم، إنه صباح عاصف، لم أدرك ذلك إلا الآن. كانت أشجار الصنوبر تتمايل وأغصان الصفصاف تهتز، وغطاء أنفاقي المشمع، يرتعش. تتسرب الحياة إلى كل مكان في هذا الصباح.

توقفت جلبة آلة صنع القهوة. بات المشروب جاهزاً. ولكنني لم أتحرك. لم يحن الوقت بعد لتناول وجبة فطوري. لم يحن أيضاً للاتصال بكاسندرا. في هذا الصباح، ولدت ماي. في هذا الصباح، ظهرت الشمس من جديد، ولم تكن السماء زرقاء إلى هذا الحد من قبل. هذا الصباح، الريح ترقص الأغصان وتُميل مظلة ورد السيدة هيوغ، المتعبة. رحت أتأمل هذه الصورة الحية وأفكر بأنها لا تزال تفتقر إلى القليل من الألوان. حفل تقديم القرايين الهندوسي، بزهوره ذات الألوان المشرقة، وأقمشته الملونة، وأغانيه. حفل الاحتفاء بالحياة. نعم، هناك نقص في الألوان. أعلم ما يجب علي فعله.

استيقظت القطعة الرمادية مفزوعة عند دخولي المباحث إلى غرفتي وقد جاءني إلهام فجائي. لم أفهم جيداً. لكن كل ما يهم هو أنني كنت بحاجة إلى ألوان. فتحت الأبواب الثقيلة لخزانة ملابس، وأنزلت منها، بشكل عشوائي، بعض الأغطية. ملاءة سرير بلون أخضر بحري. غطاء لحاف بلون أزرق داكن. غطاء وسادة أحمر. حملت كل شيء، تحت النظرة الفضولية للقطعة.

في المطبخ، أضفت إلى كومة الملاءات، منشفة برتقالية باهتة. ثم أخرجت المقص من أحد الأدراج وبدأت بكل حيوية أقطع الأقمشة إلى شرائح رقيقة. كنت أقطع، وأمزق، وأكوم على الطاولة، ثم أبدأ من

جديد. جلست القطعة كالمعتاد فوق الثلاجة، وراحت تراقبني بقلق. حتى بنجامان تدخّل. ما الذي تفعلينه يا بوبيت؟

أصنع شيئاً من الحياة، من الألوان، احتفالاً بولادة ماي وولادة خساتي. توقفت عندما لم يتبق من القماش سوى قطعة مثلثة رقيقة غير قابلة للاستخدام. على طاولتي توجد كومة رائعة من الشرائط الملونة بالأخضر البحري، والأزرق الداكن، والأحمر القرميدي، والبرتقالي الفاتح، والتي سوف تتراقص قريباً في مهب الريح.

نظراً لعدم وجود سلم، كان علي أن أقف على كرسي. كانت الأرض غير مستوية، ووجود الحفر وكتل التراب لم يسهّل عليّ مهمتي. رحت أحاول تعليق شرائط القماش حول الأغصان العارية لشجرة الصفصاف الباكي، وأنا أقف فوق كرسي، مرتديةً معطف الصوف. لم يكن الأمر سهلاً مع هذه الرياح التي تضرب وجهي وتجمد عظامي، ولكن لحسن الحظ، كانت الشمس حاضرة تدفع أصابعي المتجمدة. كنت أنقل الكرسي بانتظام، لأقوم بربط شرائط أخرى أبعد، على الأغصان المتدلية حول جذع شجرة الصفصاف. بوبيت، احترسي من الحفرة... فات الأوان، ولم أرها. انقلب الكرسي أثناء صعودي فوقه، وعلى الرغم من محاولة التمسك بأغصان الشجرة، لكن الأمر انتهى بي وأنا ملقاة على الأرض ويدي ممدودتان أمامي. أفلت مني أحد الشرائط وطار بعيداً، تاركاً وراءه مساراً أحمر جميلاً في السماء ذات الزرقة الساطعة. نفضت الغبار عن بنطالي الذي اصطبغ عند الركبتين بلون أخضر، وعدت إلى العمل. من غير الوارد بحال من الأحوال أن أسمح بتشتيت انتباهي بسبب سقطة. لدي ألوان يجب أن أعلقها على شجرة بول.

فقط عندما أصبحت في مطبخي، في منأى عن الرياح، سمحت
لنفسي بتأمل عملي.

كانت فروع الشجرة تهتز، والشرائط تتطاير. خطر لي سريعاً أن كل
ما ينقص هو الصوت. رنين جرس ناعم سأعلقه على الأغصان، ولكن
لم يعد الوقت مناسباً للعمل. يشير هاتفي إلى أننا اقتربنا من منتصف
النهار. يجب أن أتصل بكاسندرا ويان، وأهنتهما على المولودة الجديدة،
وأقول لهما كمّاً من الكلمات المتوقعة وغير المبتكرة، وأتلقّى الشكر
منهما. لا يهم، لأن الشرائط في الخارج تتطاير في سماء يناير الزرقاء
الساطعة، احتفالاً بميلاد ماي دون كلمات أو خطب.

«نبات خس؟ حقاً؟ في حديقة أمي؟»

علا صوت جوليا حاداً. عرفتُ بأن الخبر أثار دهشتها وفرحها.

«نعم، خس. والملفوف سوف يحين قطافه قريباً»

«هكذا إذن! ليت أمي كانت حية لكي ترى ذلك»

ساد صمت قصير على الهاتف، ورحت أتخيل جوليا وسط شقة
حديثة، ترتدي بدلةً من ملابسها الأنيقة، وتنتعل حذاء بكعب عالي.

«أخبريني، يا أماندا...»

«ماذا؟»

«أعتقد أنني أستطيع القدوم لرؤية هذا؟»

«طبعاً. اتصلتُ بك بالضبط لكي أدعوك على العشاء... لتتذوقي

أولى خساتي..»

دوت ضحكة مرحة في السماعه.

«ولمَ لا يكون ذلك ظهر الغد؟ سيكون يوم أحد.»

لم أخطط لوجبة غداء، لكن الفكرة راقّت لي. سوف نتمكن من
التنزه في الحديقة إذا بقي النهار مشمساً.
«موافقة. لا بأس أن يكون الموعد غداً»
«عظيم»

ساد صمت جديد مليء بالابتسامات، ذلك ما كنت أتخيله على أية
حال. ثم دوى صوت جوليا المرح مجدداً:
«أنا سأتكفل بإحضار التحلية»
«حسناً»

«لقد تملّكني هوسٌ جديد، هذا الشتاء... بعد هوسي بالشموع
المعطرة...»
«وما هو؟»

«كعكات عيد الغطاس. عشرات منها. هل تحبين كريما
الفرانجيبياني⁽¹⁾؟»
هذه المرة، أنا التي ضحكْتُ بتلقائية فاجأَتني.
«أعشقها»

يبدو أن الشمس أرادت أن تشد عزمها منذ بضعة أيام. منذ ولادة
ماي. وبقيت عالية في السماء التي بدا لونها الأزرق يزداد نقاءً كل
يوم. كانت الشرائط الملونة تتطاير مع الريح، بشدة في بعض الأحيان،
وفي أيام أخرى بهدوء. لقد أضفْتُ البهجة على حديقتي، وحتى القطة

(1) نوع من الكريما مكون من ثلثين من كريما اللوز، وثلث كريما المعجنات. وتستخدم
في حلوى الملوك، أو كعكات عيد الغطاس.

أحببتها، وكانت قادرة أن تبقى ساكنة لساعات في مراقبتها وهي تتراقص. لم أغض النظر عن مشروع أجراس الريح التي سأعلقها على شجرة صفصاف بول. ولأول مرة منذ انتقالي إلى منزلي البعيد عن كل شيء، أصبحت أرغب بسماع أصوات موسيقية. أرغب بسماع لحن خفيف من عمل الرياح. هذا هو العمل الذي أريد التركيز عليه اليوم. ستأتي جوليا لتناول الغداء غداً وأود أن يكون كل شيء يضحج بالحياة ترحيباً بها. أحتاج إلى مواد مختلفة لإنتاج ألحان مختلفة، أفرغْتُ محتويات خزانتي وأدراجي على الأرض. تساءلْتُ بتشكك إن كنت سأبدو مثل امرأة مجنونة تتدلى شرائطها من شجرة. هذا شيء وارد. أدركت بسعادة أنني لا أكرث إذا حدث ذلك. والأسوأ هو أنني كنت أبتسم وأنا وحدي في مطبخي.

وضعتُ أمامي كومة من الشوك، ومن أزرار المعاطف القديمة، والمفاتيح غير القابلة للاستخدام، وجريسات الأقراط أو المجوهرات التي لا أستعملها أبداً، وثلاث قواقع وجدتها في قاع حقيتي - تذكّار من البرازيل -، وألّسنة صفائح كونسروة، بالإضافة إلى عدد من صفائح الكونسروة ذاتها. رحت أنظر إلى أغراضي الصغيرة، وأنا راضية إلى حد ما. لم يبق أمامي الآن سوى تلوين هذه الآلات الإيقاعية. سوف أضيف إلى شجرة بول بعضاً من اللون الأصفر. وكذلك بعضاً من اللون الوردي...

اعتنمتُ فرصة خروجي لشراء الألوان الزيتية من السوبر ماركت، فاشتريتُ معها المواد اللازمة لصنع طبق غراتان البطاطا بجبن ريبيلوشون من أجل الغد. كان السوبر ماركت مزدحماً بعد ظهيرة هذا السبت، لكنني بدأت أعتاد على الزحام من جديد...

عدت إلى المنزل بقلب خفيف ومبتهج، ويدين محمليتين بالأكياس. يمكن لجبن ريبلوشون والقشدة الطازجة، الانتظار بضع ساعات. الآن يجب أن أصنع أجراس الريح.

أعتقد بأنني، في ذلك اليوم، نسيْتُ تماماً أن أكل أي شيء. في كافة الأحوال، لا يوجد طعام أفضل من ثمرة يوسفى بين ضربتين من الفرشاة. قمتُ بتلوين الشوك والأزرار والأصداف والجريسات المرتجلة الأخرى، ثم جففتها في الشمس، على درجات العتبة، قبل أن أقصّ خيوطاً لتعليقها. غربت الشمس ببطء في الأفق عندما قررت تعليقها على أغصان شجرة الصفصاف. عادت القطة من صيدها وجلست أسفل مقعدي. تلك كانت طريقته في المشاركة في صنع أجراسي.

«اسمعي يا قطة، اسمعي...»

هذا المساء، خفّت الريح وتحولت بالكاد إلى نسيم. إلا أن الصوت البلوري لاصطدام شوكةٍ بقوقعة، كان يدوي مع أقل اهتزاز، ومثله، في تكامل تام معه، صوتُ الأقل نعومة، للاصطدام بين زر معطف وعلبة صفيح.

لاحقاً، عندما حل الليل ونظفت الطاولة بعد تناول عشاءني، عدت للوقوف أمام شجرة الصفصاف. كانت ليلة بدون ضوء قمر، كما يحدث أحياناً في نهاية دورة القمر. القمر الأسود، هكذا يسمونه إذا لم تخني الذاكرة. وقفت أمام شجرة بول وأغمضت عيني. هبت عصفه من الريح. منحّني جريسات الأقراط والمفاتيح والأصداف لحناً خفياً يُعزف في الليل المظلم، فوق قمم أشجار الصنوبر وتلال أوفيرن.

احتفلت الليلة بالريح. الريح ونباتات الملفوف المقبلة.

بات كل شيء جاهزاً: كان غراتان البطاطا ناضجاً، والطاولة مرتبة وشعري مربوط، عندما اقتحمت السيارة الزرقاء ساحة منزلي. لحقت القطة بي للقاء جوليا. أظن أنها أصبحت أقل خوفاً. تزينت جوليا بأحمر شفاه. كان بين يديها باقة كبيرة من الورود البيضاء.

«مرحباً، سيداتي وسادتي»

بالكاد أتاحت لي وقتاً لرد تحيتها حتى اندفعت في الردهة نحو الداخل، مداعبةً القطة الرمادية التي لم تتراجع. على العكس من ذلك، فقد أغمضت عينيها بسرور. الخائنة الصغيرة...

«خذي مني الورود، يجب أن أحضر الكعكة من سيارتي»

وجدت نفسي أحمل الباقة الضخمة بين يدي فيما اختفت جوليا تاركةً وراءها شيئاً من عطر بودرة الياسمين.

وصلني صوتها مكتوماً وهي منحنية ورأسها في صندوق السيارة:

«هل يمكننا أن نزور الحديقة قبل الغداء؟»

كما في المرة الماضية، شعرت بالبهجة لرؤية حذاء جوليا الأنيق ذي الكعب العالي يغوص في التربة الطرية. يبدو أنها لم تلاحظ ذلك، وأخذت تصرخ من النشوة.

«لو كنت أعلم أن حديقة أمي ستعود للخدمة! بعد أن تُركت ثلاث

سنين! ثلاث سنين! هل تدركين الأمر؟»

«أعدتُ تغطية الأنفاق بعناية بالقماش المشمع. الليالي لا تزال

باردة. ولا أريد أن أرى نبتاتي الثمينة التي أحميها، ميتة»

«هل جعلتِ من هذه الشجرة شجرة عيد ميلاد لك؟»

أخذت تضحك وهي تشير إلى شجرة الصفصاف الباكي المحملة

بشرائط ملونة وأدوات نقر متنافرة.

« بطريقة ما »

« كنت أفضل الاحتفاظ بأهوائي لنفسي. من يحتفل بالريح بنبتات
الخس والملفوف؟ »

« هل كنت تعلمين بأنها شجرة أبي المفضلة؟ »

تظاهرتُ بالاندهاش. كنت أعرف عن عائلتها أكثر مما يجب أن
أعرفه. فضلتُ السكوت عن هذا أيضاً. إنه سري الصغير.
« كان يجد فيها، بأغصانها المتدلية، مسحةً كثيفة. كانت تذكّره
بكلمات فيكتور هوغو: الكتابة هي سعادة أن تكون حزيناً. »
راحت تنظر إلي، بوجه مشع، فابتسمتُ.

« لم تعد شجرة صفصافه كثيفة الآن. لقد أضفيت عليها لوناً... »
نبرة صوتها جعلتني أشعر بأنها تعتبر ذلك شيئاً جيداً.

ومع رنين صوت أجراسي المعلقة، تناولنا سلطة الخس وطبق
الغراتان، في المطبخ الذي أبقينا نوافذه مفتوحة. تكلمت جوليا عن
عملها الجديد بوصفها مندوبة وكالة سفر تنظّم رحلاتٍ لمجالس العمال
في المنطقة، إلى آسيا، الوجهة التي تخصصت فيها.
« هل سافرتِ إلى آسيا؟ » سألتها.

« بالطبع. أقمتُ في تايلاند وفيتنام وكمبوديا ولاوس. وبقية بلدانها
على قائمتي. »

ابتلعتُ بضع قضمات من الغراتان قبل أن أسألها عن الموضوع الذي
أحب الخوض فيه، أي الاحتفالات البهيجة، الألوان، الأغاني...
« تعلمتُ هناك الكثير عن الديانة الهندوسية والبوذية. وتحولتُ
أساساً إلى البوذية. »

أمام اهتمامي الصادق، تكلمت جوليا عن دورة الولادات الجديدة، وليس التناسخات، لأنه بالنسبة للبوذيين لا توجد روح، بل هناك ولادات جديدة للإنسان، تسمح له، خلال حياته المختلفة، بالارتقاء من أجل بلوغ اليقظة كما بلغها بوذا نفسه، ثم النيرفانا، والانتهاه نهائياً من المعاناة الأرضية.

توقفتُ أثناء تناول طعامي، وشوكتي معلقة بين الطبق وشفتي:

«لا توجد روح؟ حقاً؟»

«لا، لا توجد روح. هذا ما يعبر عنه المصطلح السنسكريتي أناثا،

الذي يعني غياب (الأنا)، ال إيغو، غياب الروح»

«لست متأكدة من أنني أفهم...»

«وجود الإنسان بوصفه فرداً هو وهمٌ من صنع العقل. لو كانت

(الروح) موجودة حقاً، وأعني بذلك أجسادنا، تصوراتنا، أحاسيسنا،

وعينا، واختلاقاتنا العقلية - ما يعرفه بوذا بأنه كومات التعلق الخمس،

التي تُشكِّلنا -، عندها يمكننا أن نعلن عسى ألا يشيخ جسدي، ولا

يمرض، ولا يموت! في حين أننا لا سيطرة لنا على شيء، ولن نخضع

(ذاتنا) لإرادتنا أبداً. أليس كذلك؟»

كنت أعرف شيئاً عن ذلك... لذا أومأت وتابعت جوليا بفخر:

«لهذا السبب لا يستطيع أحدنا أن يقول بأن هذا الجسد هو جسدي

أو هذه الذات هي ذاتي أو هذا الكيان هو كياني الخاص. فهمتني؟»

«أظن ذلك»

«تُنكر البوذية أي وجود ل ذات مستقلة ودائمة، وبالتالي لا وجود

ل ذات خالدة»

خيل لي بأنتي بدأت أفهم هذه المرة. تركتني جوليا أشرب بضع جرعات قبل أن تضيف:

«ليس هناك روح ولكن هناك شيئاً يستمر في حيوات متعددة»
ها قد شعرت بالاطمئنان. «اللا أنا» شيء يدعو للقلق بالنسبة لي.
«وما هو هذا الشيء؟»

«الكارما، التي يمكن تلخيصها بهذه الكلمات القليلة: يجني الفرد عاقبة ما فعله في إحدى حيواته السابقة.»

ها قد انطلقت في الحديث من جديد، بحيوية أشد من أي وقت مضى. تركت الكارما لتحدثني عن الأنیکا، مفهوم عدم الثبات: «لا شيء ثابت أو أبدي، كل شيء يتلاشى أو يتغير. التعلق بأشياء هذا العالم هو الذي يسبب المعاناة، لأن كل شيء مقدر له أن يختفي. يقول ثيت نات هانه، راهب الزن الفيتنامي، بأن عدم الثبات هو الذي يجعل الحياة ممكنة. لولا عدم ثبات حبة القمح، لما أمكنها أن تتحول إلى ساق قمح، ولولا عدم ثبات ساق القمح، لما أمكنه أن ينتج السنبلة التي نأكلها. أترين؟ ليست الحياة إلا سلسلة من أحداث وقتية، من المتغيرات المحتمدة. حتى الشمس، والجبل، والأرض التي نعيش عليها، كلها في تغير مستمر.»

بدأنا نُخلي الطاولة معاً. كنت أفكر، وأطرح الأسئلة:

«وما علاقة المعاناة بفكرة عدم الثبات هذه؟ لست متأكدة من أنني فهمت تماماً...»

«المعاناة مرتبطة برغبتنا في الأمن والاستمرارية. والخطوة الأولى نحو إنهاء المعاناة هي القبول بعدم وجود شيء ثابت ودائم»

«أجد أن هذا كله نظري. أن يكون الموت جزءاً من الحياة، وأن يكون علينا تقبله بوصفه كذلك، أنا أوافقك. ولكن ماذا عن فقدان؟ كيف يمكننا أن نتجاهله؟ هل نعتبر أنه لم يحدث؟»

لحسن الحظ، وضعت جوليا حداً لتأملاتي وهي تقول فجأة:
«معي شيء لك»

اختفت، وتركتني وحدي أمام حوض المطبخ الممتلئ بصحون متسخة. وبعد لحظات قليلة، عادت ومعها ألبوم أسود جميل وقديم جداً، من الجلد.

«ما هذا؟»

فهمتُ في اللحظة التي فتحت فيها الغلاف المغبر، وظهرت صورة حفل زفاف بالأبيض والأسود تمثل شاباً أسمر بحاجبين كثيفين ونظرة لطيفة، وشابة ذات ملامح مماثلة لملامح جوليا.

«أُعِدِّي القهوة وأنا أقطع الكعكة، سنشاهد هذا أثناء تناول التحلية»
أسعدني التمكن أخيراً من التعرف على أصحاب منزلي السابقين.
«ما اسمها؟»

طرحت هذا السؤال وأنا أمرر إصبعي على ذيل فستان زفاف السيدة هيوغ الطويل.

«لوسي»

«أوه... اسم جميل...»

لوسي. لوسي. أخذ الاسم يدور في رأسي. أعتقد بأنه يناسبني، وبأنه ينطبق تماماً على الشخصية. لوسي هيوغ. السيدة صاحبة التقاويم المليئة بالحواشي. لوسي و بول هيوغ.

«كم كان عمرها في الصورة؟»

«تسعة وعشرون عاماً. التقيا في وقت متأخر من حياتهما. وتزوجا في العام الذي التقيا فيه»

أخذت رشفة من القهوة قبل أن تُواصل.

«كانت أمي خياطة عند عمّة بول. كانت تدير متجر أقمشة في كليرمون فيران. كانا قد التقيا عدة مرات في المتجر. أمي كانت تقول دائماً بأن ما يعجبها بشكل خاص في أبي هو مظهره اللطيف... والحزين قليلاً، مثل الصنّاف الباكي؟» ابتسمت جوليا.

«بالضبط»

شربت جرعة أخرى من القهوة ثم قلبت الصفحة.

هنا، الزوجان عند خروجهما من الكنيسة، مستقيمين تماماً، ومتيسين قليلاً.

«كان أبي يحب هدوء أمي وقدرتها على التركيز لساعات على أقمشتها. كانت مجتهدة للغاية...»

«هل توقفت فيما بعد عن العمل؟»

«أوه لا، بقيت طوال حياتها تخطط ستائر وأغطية أسرة وفساتين. كانت تعمل هنا، وتضع ماكينة خياطتها في العلبة. كانت تذهب إلى المدينة مرة واحدة في الأسبوع لتسليم إبداعاتها إلى المتاجر، وتعود من هناك وقد حصلت على شيك»

قلبّت جوليا صفحة جديدة. لوسي وبول يمسك كل منهما بيد الآخر أمام سيارة جميلة من طراز ذلك العصر، أيضاً في يوم زفافهما.

«أترين فستانها؟» سألتني جوليا «إنه أحد إبداعاتها.»

عبرت عن إعجابي برفع حاجبي.

«توقفت عن الخياطة حين توفي أبي. وهنا بدأت تهتم بالبستنة»

قلبت صفحة جديدة. هنا نرى لوسي وبول، بعد انتهاء حفل الزفاف، أمام منزل، وهو المنزل نفسه الذي نحن فيه اليوم. لوسي بشعرٍ معقوص بأناقة، بينما يرتدي بول سترة مزودة بكتافيتين.

«استقرا هنا بعد زواجهما. لمدة ست سنوات تقريباً. وبعد ذلك، عندما حملت أمي أخيراً، وكان الأمر طويلاً وشاقاً، أرادا الانتقال إلى مكان أقرب إلى المدينة، والعثور على منزل أكبر»
«لقد غادرا إذن؟»

«باعا المنزل واستأجرا فيلاً على بعد حوالي عشرة كيلومترات من كليرمون. لكن المكان لم يعجب أمي أبداً، وأمضت حياتها وهي تنتظر العودة إلى هنا»

«هل خططا للعودة؟»

«تعهدَ أبي بذلك لأمي: سوف نمضي أيام شيخوختنا هناك»
بقيت معلقة بشفتي جوليا، فهي تروي قصة منزلي. منزلي والحيوات المختلفة التي مرت فيه.

«هل أعادا شراؤه إذن؟»

«مهلاً! لم يكن الأمر بهذه البساطة»

«حقاً؟»

«تقاعدَ أبي في الربيع، ثم تواصل في الصيف مع مالكي المنزل، لكنهم لم يرغبوا بالبيع. كانوا سعداء هنا»

في اللقطات التالية يظهر مولود ملفوف بغطاء أبيض، رأس أصلع، وعينان نصف مغمضتين. إنها جوليا. عندها استأنفت جوليا، الراشدة، المتواجدة بلحمها وشحمها في منزلي، سرد روايتها.

«أصاب اليأسُ أبي، وحزنتُ أُمي بشدة. تخيلي أن تنتظري حياةً كاملة للعودة إلى منزلك، ثم تضطري في النهاية أن تتخلي عنه؟»
أوماتٌ مؤيدةٌ، وقد أسرتني قصةٌ والديها.

«عندها لم يبق أمام أبي سوى حل واحد: أن يرفع السعر لكي يقنع المالكين بمغادرة المنزل. للأمانة، لم يكن ذلك البيت النموذجي... كان يقع في محيط جميل، أما المبنى فقد كان عتيقاً ولم يكن متسعاً حقاً. أدرك المالكون أنها فرصتهم السعيدة وغادروا المنزل محققين ربحاً أعلى بكثير مما توقعوا»

قلبت صفحة أخرى من الألبوم، لكنني لم أنظر إلى الصور، بل رحت أحرق إلى وجه جوليا التي ختمت مبتسمة:

«وهكذا انتهى بهما الأمر في هذا المنزل، بعد ثلاثين عاماً من الوعد بالعودة إليه»

أنهيتُ قهوتي في رشقات صغيرة. كانت قصة جميلة. فهمت لماذا أرادت جوليا الحفاظ على هذا المنزل، ولماذا تأثرت جداً بعودته إلى الحياة.

واصلنا تصفح الألبوم. تابعنا فيه السنوات الأولى من حياة بول ولوسي، المشتركة، بالإضافة إلى الخطوات الأولى التي مشتها جوليا في هذا العالم. يبدو أنهما شكلا زوجين متحدين وعائلة تتسم بالهدوء. «فشلا في إنجاب طفل ثانٍ. كانا قد تقدما في السن. ولكنني أعتقد أنهما لم يكثرنا للأمر. حتى أنا غادرتُهما. كان أحدهما مكتفياً بالآخر.» وفي وقت لاحق، أغلقت الألبوم بحزن لم أراه على وجهها من قبل.

«رحل أبي بعد عام فقط من عودتهما إلى هنا، إثر هجمة التهاب رئوي حاد. لا أعتقد أن أمي كانت لتتغلب على الأمر أبداً لولا وجودها في منزلها الحبيب. تمكنت من الوقوف على قدميها مرة أخرى. بفضل حديقتهما.»

ساد الصمت من جديد في مطبخي. حركت جوليا القهوة القليلة المتبقية في قاع فنجانها. نظرتُ إلى الألبوم بتأثر. شعرتُ أنني أصبحت الآن أحب منزلي أكثر قليلاً، بعد أن عرفت قصة الحب التي احتضنها. فكرتُ بالطفلة في الصورة ونظرتُ إلى جوليا بالحجم الطبيعي بجانبها. وجهها الشاب المبتسم، حيويتها، حبها للحياة، سعادتها بالحديث عن والديها. لذا تساءلتُ... هل كنا أنا وبنجامان سنترك مثل هذا الأثر الجميل على الأرض لو أن الأمور جرت بصورة مختلفة، لو بقي بنجامان ومانون على قيد الحياة؟ أحب أن أجيب عن سؤاله هذا بـ نعم، بكل تأكيد.

مكتبة

t.me/soramnqraa

قادتني سلسلة من القرارات السريعة، إلى قبر بنجامان في ذلك الصباح الجليدي من شهر فبراير. كان يوم أحد والمقبرة مهجورة، لكن القداس كان قد بدأ والمؤمنون جالسون حالياً على المقاعد الباردة والقاسية في الكنيسة، وأيديهم متشابكة أمامهم، وأنا وحدي بين القبور. وحدي مع بضعة غربان كثيبة المظهر. الهواء يلفحني، ويداي المتجمدتان تحملان باقة من زهور الخرق، تلك الزهور الهشة ذات البتلات الوردية الفاتحة الجميلة، والمرقطة بالأرجواني الساطع.

«مرحباً، بن»

ها قد قلت الكلمة الأولى، الكلمة الأصعب.

«أردت أن أفاжئك. لم أجلب لك زهور قرنفل الشاعر، ولا القرنفل العادي. نصحني البائع بزهور البانسيه التي تتحمل البرد جيداً، لكنني وقعت في حب هذه الزهرة. إنها تسمى زهرة الهيليور. أنا متأكدة أنك تعرف ذلك، أليس كذلك؟»

لم أفهم أبداً لماذا يخاطب الناس موتاهم أمام حجر بارد وخشن ذو أشكال هندسية حادة. لماذا لا يتحدثون إلى موتاهم في أي مكان، وفي أي وقت، عبر الأفكار؟ هذا ما كنت أحاول القيام به حتى الآن. كنت أحاول تجنّب المقبرة، الهرب من الحجر البارد، كنت في الحقيقة أحاول الحديث إلى بنجامان في ذهني، وسط حديقتي أو في غرفة معيشتي، في أي مكان.

وبعد ذلك، ها أنا ذا، في النهاية، مثل أي شخص آخر، أتحدى
البرد كي أذهب لمقابلته جسدياً، تقريباً. أنا هنا أمام شاهدة قبره، في
يوم أحد شتائي، أمام زهور ذابلة وبعض اللوحات الجنائزية. كُتِبَ فوق
هذه: *إلى أخي*. لوحة يان التي رُسمت فوقها حمامة تطير، وفي منقارها
غصن من زنبق الوادي. لوحة سوداء بخطوط بيضاء ولا أجدها جميلة
بشكل خاص. لا أجد طقوس زيارة المقبرة، ممتعةً بشكل خاص أيضاً.
كنت أشعر بالبرد، وقدمي تؤلمني بسبب السير فوق الخصى، والوقوف
أمام حجر الشاهدة الأبيض. لماذا أنا هنا إذن؟ وضعتُ الباقة فوق
الحجر، بين لوحتين قبيحتين ومجردتين من الحميمية، وأخذت أحاول
أن أتذكر تسلسل الأحداث التي قادتني إلى هنا هذا الصباح.

أولاً كاسندرا التي كررت لي بأنهم أنهوا كل الترتيبات ولا ينتظرون
سواي، وأني أستطيع المجيء بالقطار، وسوف يكونون بانتظاري
لأأخذني من المحطة.

«إنها تتغير بسرعة كبيرة، يا أماندا. إذا تأخرت كثيراً، ستكون كل
أسنانها، قد ظهرت، وتكون قد تعلمت المشي»

أردتُ المجيء طبعاً، وكانت كاسندرا تعلم ذلك. لكن المشكلة كانت
في قيادة السيارة إلى مكان بعيد بهذا الشكل، في الخروج من شرنقتي،
والمرور عبر الباب الأمامي لمنزل العائلة لوزان، والدخول إلى غرفة نوم
بنجامان، وإلى غرفة المعيشة التي أخبزنا الجميع فيها قبل عام، بأنني
حامل.

كانت كاسندرا ترسل لي صور ماي. إنها تتغير بالفعل. باتت عيناها
الآن مفتوحتين، مفتوحتين حقاً، وزرقاوين زرقاً داكنة وجريئة. وفي
مكان الزغب، حلَّ شعرٌ حقيقي أسود وكثيف.

ثم أقحم يان نفسه أيضاً:

«أماندا، كاسندرا بحاجة إليك»

كاسندرا... تحتاج إليّ؟ حقاً؟ كنت متشككة لكن صوت يان أصبح أعمق:

«أختاها بعيدتان عنها. ولا تأتيان لزيارتها كثيراً. أعتقد أنها بحاجة إلى نوع من الدعم النسائي، لكي تشعر بأنها محاطة... وتنال الاعتراف بأنها أم»

كان ذلك كلاماً فارغاً. كنت متأكدة من أن يان لا يصدق كلمة واحدة مما قاله لي، بل وأنه قد أعدّ هذا الكلام مع ريشار. إنه كمينٌ رُتب جيداً لإغرائني بالمجيء إلى هنا، كي أكون بقربهم.

ثم إن نباتات الملفوف وصلت منذ أسبوع إلى مرحلة النضج، واحدة تلو الأخرى. كانت جوليا في رحلة عمل إلى غرونوبل، فلم تتمكن من المجيء لتأخذ منها. مع من سأقاسمها إذن؟ لمن سأعطيها؟ الفخر الذي كنت أشعر به عند حصاد خضرواتي الأولى لم يكن شيئاً مقارنةً بفكرة تقاسمها مع الآخرين.

أعلم جيداً بأن الأمر يشير الضحك. لقد تطلّب مني الذهاب إلى قبر بنجامان أن تنمو لدي ثلاث ملفوفات وأن تولد ابنةٌ لعائلتي الجديدة. ثلاث ملفوفات وابنة.

«تعالى يوم الأحد» قالت كاسندرا «سيكون يان حاضراً بالإضافة إلى آنا وريشار. سنأتي لأخذك من المحطة»

الذهاب بالقطار لم يكن وارداً. بينما إذا ذهبْتُ بالسيارة، فساكون حرة في التحرك كما أريد، وسأتمكن من العودة إذا أصبحت الأمور

تفوق قدرتي على التحمل. وربما أقرر في اللحظة الأخيرة ألا أغادر أصلاً، أو أن أعود أدراجي عند وصولي إلى ليون. لماذا قد أفعل ذلك؟ انطلقت قبل الموعد بساعتين ونصف، وأنا أعلم جيداً أنه لن يكون هناك حركة مرور كثيفة، ومعى في صندوق سيارتي أجراس الريح، التي صنعتها، وطلبتها باللون الوردى. ليس فيها شوك أو أدوات قاطعة، لإبعاد أي احتمال بتعرض ماى للأذى. مجرد أعواد خشبية - الأعواد الأجل التي عثرتُ عليها - مطلية بطبقة خفيفة من اللون الوردى. ستمكن ماى من تمرير يديها الصغيرتين من خلالها والابتسام للملائكة عند سماعها صوت تصادم العصي الخشبية ببعضها.

ونظراً لأن ريشار وأنا سيذهبان لحضور القداس، فقد طلبت منى كاسندرا ألا يكون موعد وصولي قبل الساعة الثانية عشرة والنصف. ولكن الساعة كانت بالكاد تشير إلى العاشرة عندما توقفت سيارتي أمام منزلهم. ما العمل؟ سأذهب لزيارة قبر بنجامان. ألم يحن الوقت لذلك بعد ثمانية أشهر من دفنه؟

«لا أعلم إن كنتُ قد نصبتُ كميناً لنفسى» قلتُ لشاهدة القبر الأصم «يمكن للإنسان أن يتوقع أي شيء من لوعيه، أليس كذلك؟» على أية حال، مع تقدمي بساعتين ونصف، كان لدي الوقت للوصول إلى المقبرة سيراً على القدمين. توقفت عند بائع الزهور في الطريق.

«لأى غرض تريدان الأزهار يا سيدتي الصغيرة؟» سألني بائع الزهور.

«لم أكن أعلم، يا بن، أن لقب سيدتي الصغيرة⁽¹⁾ لا يزال في القرن الحادى والعشرين يُطلق على السيدات»

(1) تسمية «سيدتي الصغيرة» هي نوع من التعالي على السيدة المخاطبة.

أنا متأكدة من أنه كان سيبتسم. على أية حال، لقد ابتسمت أنا، لوحدي، أمام قبره.

«إنها لزوجي. أريدها باقة جميلة. إنه يحب القرنفل، لكنني أردت أن أفاجئه هذه المرة» وحين طلبت منه نوعاً من الزهور يقاوم البرد والصقيع، أجابني باستغراب: «هي لقبر؟ اضطرت للإقرار. لماذا أكذب عليه؟ مع ذلك أحببت أن أتصرف كما في السابق، عندما كنت لا تزال موجوداً، وكنت أشتري لك باقات الزهور»

في المقبرة المقفرة، امتدت بضع ثوان. كانت تصلني نغمات الأرغن من الكنيسة.

«والداك، يا بن، موجودان هناك بالداخل... في الكنيسة.... نعم، كنت ستضحك لو أنك علمت. ومن أجلك أيضاً، أصبحا يذهبان إلى هناك من جديد، كل أحد، لحضور القداس... يقولان بأن هذا يساعدهما في التغلب على الألم وفي إيجاد معنى للأشياء. لكن لا تضحك كثيراً، فالأمر عسير عليهما، كما تعلم، ثم إنني أنا أيضاً أقوم بمختلف الأشياء الغبية لإعادة بعض الألوان إلى حياتي. يبدو منزلي مثل كوخ امرأة عجوز مجنونة. أوه، ولدي قطة يا بن، وهذا أيضاً يجعلني أبدو مثل امرأة عجوز مجنونة، أليس كذلك؟»

بدأت أجد مخاطبة حجر أبيض، امرأة أقل غرابة. أعتقد أنني تركت كلماتي تتدفق على سجيتها، ووجدت بعض المتعة في ذلك. رحت أضحك بصوت خفيض واضعة يدي فوق فمي.

«يا إلهي، بن، لقد انخرطت في البستنة، وبدأت أعد الكومبوت وفطيرة تاتين، وأصنع الشموع المعطرة... كما ترى، فإن الذهاب إلى الكنيسة ليس بالأمر الأحق في نهاية الأمر...»

بعيداً، أخذ رجل عجوز ذو معطف أسود وقبعة رمادية، يدفع بوابة المقبرة. عمدت غريزياً إلى خفض صوتي، على الرغم من أن الرجل العجوز لا يستطيع سماعي من مكانه، وأنا أقول لك:

«الحقيقة هي أنني لم أخطط لزيارتك، وأن سبب قدومي إلى هنا، هو رؤية ماي. ابنة أخيك. لم تعلم أبداً أنه سيكون لك ابنة أخ...»
لبثت صامته للحظات وكأنني أردت إعطاءه الوقت لتسجيل المعلومات.

«عمرها شهر، وتتغير بسرعة كبيرة... لقد رأيته في الصورة، وشيء لا يصدق كم بدت لي كبيرة الحجم. كبيرة وقوية مقارنة بـ مانون. أنت لم ترَ مانون. لقد كان الأمر صادماً، كم كانت صغيرة... كان وزنها بالكاد رطلين وكانت عيناها مغلقتين تماماً. ماي مختلفة. إنها طفلة حقيقية. أنا متأكدة من أن من يحملها لن يخاف أن يكسرها.»

علقتُ حقيبتَي اليدوية على كتفي ورحت أراقب الرجل العجوز وهو يتوقف أمام قبر مغطى بالزهور.

«أتشوق لرؤية يان مع الطفلة. إنه أخرق جداً في بعض الأحيان كما تعلم... أنا متأكدة من أنه يرتدي قفازات بلاستيكية عندما يحملها، كيلا يخدشها. على أية حال، هذا ما كنت ستقوله لكي تضحكني وتناكده. أنت مختلف، فقد كان الجميع يعتقدون دوماً بأنك ستعرف كيف تتعامل مع مانون. كان يكفي أن ننظر إليك كيف تتعامل مع الأولاد في بيت الشباب والثقافة. كان هؤلاء أكبر حجماً بالتأكيد، لكنك كنت تمتلك تلك المهارة المتأصلة فيك، ولا يستطيع أحد انتزاعها منك. كنت في مكانك الطبيعي مع الأطفال. الجميع قالوا بأنك ستكون أباً رائعاً. هذا أساساً ما قالته والدتك، عندما أخبرناها بأنني حامل. اغرورقت عيناها

بالدموع ورحت تسخر منها، وتربت على ظهرها وتناديها بالجدة. وهي لم تفكر حتى في معاتبك، كانت في مكان آخر تماماً، وأنت كنت تناكدها حتى لا تحمر خجلًا من إطراءاتها ولا تبدو شديد التأثر. نعم لقد رأيت ذلك، وراه ريشار أيضاً. لم ننخدع يا بن... هل تعلم بأن عاماً قد مرّ بالفعل. لا أدري هل مرّ الوقت بسرعة أم ببطء. أشعر أحياناً كأنها سنوات، ولكن هذا لأن الحادث الذي تعرضت له قذفني بعنف ليلقي بي في عالم آخر. انتقلت إلى زمان آخر ومكان آخر وحتى إلى مجرة أخرى. ويبدو لي، في أحيان أخرى، أنني لا زلت قريبة، قريبة إلى درجة أنني أستطيع الإحساس بقدمي مانون وهما تصارعان داخل بطني.»

أطلقت تنهيدة طويلة ونظري سارح في الفراغ. إنه شعور مريح أن أتحدث معه على هذا النحو. سألت نفسي لماذا لم أفعل ذلك من قبل. «أندري يا بن، لحسن الحظ أنهم هنا، جميعاً... والداك وشقيقك وكاسندرا... أنت لا تتخيل إلى أي درجة هم حاضرون... لا أندم على زواجي بك. لا شيء في العالم يجعلني أندم على ذلك. كان ذلك مهماً لمانون بالطبع، لكي نحمل ثلاثتنا الاسم نفسه، ولكن ذلك مهم الآن أيضاً، بعد رحيلك فأنا أيضاً أحمل اسم لوزان.»

ابتسمت من خلال دموعي.

«لم يعد ممكناً انتزاعه مني، أليس كذلك؟»

انصرفت لاحقاً تاركةً شاهدة القبر، بعد أن ربتُ بقربها باقة أزهار الهيليور. لن يطول الأمر حتى ينتهي القداس، وليس لدي رغبة بمصادفة رواد الكنيسة، ورغبتني أقل بمصادفة آنا أو ريشار. كنت أرغب بالسير وحدي، لأمنح نفسي فاصلاً بين المقبرة وبيت عائلة لوزان. لا أعلم إن كنت سأعود إلى هنا في وقت قريب، لكن الأكيد هو أنني أشعر بالتخفف هذا الصباح، وبأن ذلك أفادني بشدة.

عند الباب، استقبلتني رائحةٌ شواءٍ في فرن، بنكهة الزعتر، وكاسندرا بعينها الجميلتين الزرقاوين المتسعتين على وسعهما من السعادة، وبطنها الذي انكمش.

«أماندا، خِفْتُ ألا تأتي!»

وجدتُ بشرتها مرتاحة. كيف يكون هذا ممكناً بوجود طفل حديث الولادة؟ بدتُ أكثر نضجاً، بكتفين مستقيمين، ووضعية عنقٍ أكثر ثباتاً. لقد تقدمت في السن عشر سنوات منذ عيد الميلاد. هل هذه هي الأمومة؟

«تعالِي، ادخلي» تولى يان مسألة إعداد الوجبة «كانت الصغيرة تطلب الرضاعة طوال الصباح»

قالت هذا وهي تغلق الزر الأخير من بلوزتها الخضراء الفستقية. كانت جميلة، وحتى أجمل من المعتاد بصدرها الضخم وسعادتها المشعة.

«ضعي معطفك هنا، يا أماندا»

وضعت معطفي على الأريكة وعلبة الهدية التي تضم جرس الريح على الطاولة. سلمتُ كاساندرا مباشرةً باقة الزنابق الوردية التي ذهبت لشرائها من بائع الزهور في طريق عودتي من المقبرة. بدا مندهشاً لرؤيتي للمرة الثانية، ذلك الصباح، من دون باقة زهور الخريق:

«هل أحبُّ باقة الخريق؟» سأل وهو يبتسم بحياء.

أسعدني مزاحه وضحكُ بصوتٍ مرتفع قليلاً.

«نعم أحبُّها. أحتاج الآن إلى زهور فرحة وحلوة، لمناسبة ولادة»

لم يطرح أي سؤال، لكنني أضفتُ:

«ابنة أخي»

كان سعيداً وهو يشكل لي باقة ذات طابع خاص. خليط من زنباق وردية فاتحة وسكرية وفوشيا.

«ريشار وأنا لم يعودا بعد. لا بد أنهما مرا بقبره بعد القداس. لن يتأخر وصولهما. تعالي، تعالي لرؤيتها»

أخذتني إلى الطابق العلوي، حيث غرفة نوم يان القديمة، والتي أصبحت الآن غرفتهم.

«هل استقرتما هنا بشكل نهائي؟» سألت وأنا أصعد الدرج.

«لا، ليس بشكل نهائي. كل ما في الأمر أن الحل الأبسط كان أن نتواجد هنا أثناء الحمل، بعد بقاء ريشار وحيداً ومغادرة آنا إلى دار الرعاية. أردنا العودة إلى شقتنا بعد ولادة ماي، لكن آنا أصرت على تمديد إقامتنا لبعض الوقت. كانت سعيدة بوجود حفيدتها في بيتها...»
بإيماءة من رأسي أظهرت لها بأنني أفهمها.

أكملت: «سوف ننتظر حتى تبلغ شهرين من العمر ثم نغادر. هذا سيوفر لآنا الوقت لتهيئة نفسها للفراق، وسيوفر لنا نحن الوقت للراحة. الأمر هنا أسهل، مع كل هذه الأيدي التي تتناوب معنا على العناية بالطفلة.»

وصلنا إلى الطابق العلوي واستقبلنا يان، وهو لا يزال يرتدي بيجامته تحت رداء البيت.

«أهلاً أماندا»

«أنت لم تبدل ثيابك؟» سألت كاسندرا محتجةً.

«كم الساعة؟»

«إنها ساعة استقبال ضيفتنا»

«مرحباً يان»

قبلني سعيداً بالتغيير الذي أحدثه حضوري.

«جئت بالسيارة في نهاية الأمر؟»

«نعم. اغتنمتُ الفرصة وذهبتُ إلى المقبرة»

لم يعلّق أحد بشيء. مرت بضع ثوان، ثم أشار يان إلى باب غرفتهما المغلق، وقال هامساً:

«إنها نائمة. يمكنك الذهاب لرؤيتها، ولكن لا توقظها، وإلا فإن

كاسندرا ستعاتبك...»

أمسكتني كاسندرا من ذراعي وقادتني نحو الغرفة.

كانت الغرفة غارقة في العتمة لكن خيوطاً من أشعة الشمس، متسللة عبر الأباجورات، سمحت لنا بتمييز سرير مانون الذي أصبح لـ ماي، وبداخله ينام الجسد الصغير. كانت تنام على ظهرها، ويعلو بطنها وينخفض ببطء على وقع أنفاسها. قبضتها مغلقتان ومرفوعتان إلى جانبي وجهها. كم تبدو هادئة... تنفسها خفيف، بطيء، جفناها كثيراً الارتعاش بسبب أحلام الطفولة. بماذا يحلم الأطفال حديثو الولادة؟

راحت كاساندرا تحديق إلى وجهي، وقد امتلأت عيناها بالحب، بانتظار حكمي. ابتسمتُ لها. لم أجرؤ على لمس ماي، خشية إيقاظها. اكتفيتُ بمراقبتها من فوق السرير.

«لها وجه ملاك، أليس كذلك؟»

«نعم يا كاساندرا، بالطبع لها وجه ملاك. من يجرؤ على قول يخالف

ذلك؟»

«بعد قليل ستحملينها بين ذراعيك»

قالت هامسةً وهي تشير نحو الباب لكي نترك ماي الملاك، نائمة بسلام.

حين نزلنا إلى الصالون في الطابق السفلي، كان ريشار وأنا قد عادا. استقبلاني دون خلع معطفيهما، بأذرع مفتوحة، وقد توردت خدودهما من البرد. كان من الواضح أنهما سعيدان برؤيتي.

«باقة زهور الهيليور، منك؟»

سأل ريشار مقطب الحاجبين.

«نعم، مني»

«ألم أقل لك! هتفت أنا. لم يكن ممكناً أن تكون من أحد سواها، كانت زهوراً طازجة، تعود لهذا الصباح بالذات»

«إنها زهور جميلة جداً، جميلة حقاً. هل ذهبت لزيارة القبر أثناء القداس؟»

«نعم»

خلعنا معطفيهما، وارتيديا خفي البيت، ثم حدثاني عن قس الكنيسة الجديد، القادم من باريس، الذي سيتولى من الآن وصاعداً رعاية قداس الأحد.

«كان يعظ في نوتردام! هل تدركين أهمية ذلك؟»

لا، أنا لا أدرك أهمية ذلك، لكنني أومأت برأسي. ظهر يان من جديد، هذه المرة مرتدياً الجينز وقميص بولو وخفين. الزي المثالي للصحف المثالي، كان بنجامان ليسخر منه.

«اجلسوا» وجهت أنا الأمر مصفقةً يديها «سيتولى ريشار تقديم المشروبات. اجلسي في مكان الصدارة، يا أماندا...»

أشارت لي نحو مقعد ريشار، الذي يتميز بسطح ارتكاز ثقيل ومريح معاً. يبدو أنني ضيفة الشرف اليوم بالفعل.

استقرت أكواب المارتيني والبورتو والنبيد الأبيض الحلو بين أيدينا في غرفة المعيشة. جلست كاساندرا على الأريكة، نصف مستقرة، وكأنها على وشك القفز عند سماع أدنى صرخة من الطفلة. بدا ريشار مرهقاً بعض الشيء. وجدتُ لونه شاحباً.

«هل أنت بخير؟ وماذا بشأن عملك؟...»

تجرات على طرح السؤال بصوت منخفض، بينما كان يان وآنا منخرطين في نقاش حول أعمال الطريق، والتي كان من المفترض أن تنتهي يوم الجمعة المقبل وفقاً لأحدهما، ويوم السبت وفقاً للآخر.

«أنا بخير»

شعرتُ بأنه يحاول التهرب من سؤالي.

«أظن بأنني التقطتُ فيروساً. لا شيء خطير»

«هل ذهبتُ إلى الطبيب؟»

«لا. ليس هناك داعٍ حقاً»

من جهتها، كانت آنا في حال أفضل. بل إنني لاحظتُ بأنها عادت إلى وضع المكياج على وجهها.

«أماندا، كيف حال قطتكِ إذن؟» سألتني كاساندرا.

«بخير. لقد ازداد وزنها الآن ثلاثة كيلوغرامات...»

«ثلاثة؟ حقاً؟»

«حقاً»

«بفضل العصيدة الصباحية حتماً»

«ربما، بالفعل»

في تلك اللحظة، انضم يان وأنا إلى حديثنا.

«وماذا عن حديقتك؟»

«لدي شيء أريكم إياه...»

لحقوا بي بأنظارهم وأنا أذهب لإحضار حقيبة يدي من المدخل. أخرجتُ منها الملفوفة التي أحضرتها لهم. أجمل الملفوفات الثلاث. كانت قد انزلقت من الغلاف البلاستيكي الذي وضعتها فيه، وانتشر التراب في حقيبة يدي.

«أوه...» هتفت كاسندرا.

«ما هذا...؟» سألت أنا قبل أن تتوقف.

«ملفوفة؟» قال يان بخجل.

هزرتُ رأسي وأنا أحملها لتقديمها لهم. أخذ كل منهم يمررها إلى الآخر بعناية شديدة. نظرت كاسندرا إلى ملفوفتي غير مصدقة، كأنها لم ترَ في حياتها شيئاً مشابهاً، ونظرت أنا بابتسامة تأثر - فهي حتماً تذكرها بخضرواتنا التي كانت تزرعها في بيتهم بمنطقة جورا. بينما كان الرجلان أكثر رزانة وكبحاً لعواطفهما.

«هل لديك الكثير من هذه الأشياء؟» سأل يان.

«لا، الأمور في بدايتها. زرعْتُ الخس أيضاً. أما بقية الخضار فتحتاج إلى وقت. نباتات الهندباء ماتت، لم تتحمل الصقيع. اللفت لن ينمو قبل أوائل الربيع، والثوم سيبرعم في يونيو»

«أوه، هكذا إذن؟» قالت كاسندرا معبرةً عن دهشتها لنجاحي في

إنبات هذا الكم الكبير من النباتات.

«إنجاز جميل» أعلنت أنا.

أعادوا لي الملفوفة، لكنني هزرتُ رأسي:

«إنها لكم»

عندها، انضمت ملفوفتي إلى باقة الزنبق الوردي، والعلبة الحمراء التي تضم جرس الريح.

أفرغنا، دون استعجال، أكواب مشروباتنا الفاتحة للشهية، مصحوبة ببعض حبوب الفول السوداني. رحت أسأل عن أحوال كل منهم. لم أكن مخطئة، فقد أصبحت أنا في حال أفضل، وعادت إلى وظيفتها التدريسية بدوام كامل في يناير. وقد أظهر تلاميذها قدراً غير مألوف من التفهّم والهدوء، حتماً بسبب مديرة المدرسة التي أبلغتهم بالوضع. لم تعد تتناول مضادات الاكتئاب بناءً على نصيحة طبيبها النفسي، وأصبحت تنام بشكل أفضل، وتحاول الآن التركيز فقط على تنظيم دروس الشاطئ في شهر يونيو.

«كل شيء في وقته. خطوة بخطوة، هذا ما أخبرني به طبيبي النفسي.» كانت أنا إذن قد مضت قدماً من أجل دروس بحرية. وماذا عن الآخرين؟ مضى يان قدماً من أجل ماي وكاساندر. وبما أن الأشياء الجيدة لا تأتي فرادى، عُين على رأس مشروع جديد في العمل، لكن ذهنه لا يزال منشغلاً عنه

«ليتك ترين كل هؤلاء الموظفين، في أقفاصهم الزجاجية، بابتساماتهم الغبية وهم يسخرون عندما أغادر العمل في الخامسة بعد الظهر: هل أخذت استراحة بعد الظهر، يا زميل لوزان⁽¹⁾؟ مما يُضحك هؤلاء الأغبياء»

«لكنه يغادر ولا يكثر بهم» أضافت كاساندر بفخر.

(1) عبارة تهكُّمية، مرتبطة بثقافة العمل (في فرنسا)، وتعني ضمناً بأن من يغادر العمل باكراً مستفيد لأغراض شخصية، من منظومة العمل.

نعم، كان يان يغادر عمله يومياً في الخامسة بعد الظهر، أي قبل ساعتين من الوقت الاعتيادي، ويحل محل كاسندرا في العناية بـ ماي. يحمّمها، ويقرأ الكثير من الكتب حول كيف تصبح أبا، ويطهو العشاء. لقد تغير. لم أكن الوحيدة المذهولة من ذلك، كان باستطاعتي أن أرى نظرات آنا الفخورة إليه.

ولم تكن كاسندرا بحاجة للتحدث كثيراً حتى أستشف مقدار سعادتها بذلك. كانت سعيدة للغاية. وماذا عن عملها كطبيبة؟ لم تكن تفتقده على الإطلاق. كانت تمضي هنا وقتاً ممتعاً طوال اليوم، في العناية بمخلوق صغير لا يريد سوى أن تلقمه ثديها وتضمه إليها باستمرار. وكانت هي أول المتفاجئين من ذلك. وماذا ستفعل بعد ذلك؟ كانت تفكر بالاستقرار في الريف وممارسة عمل حر، لكي تتحكم بجدول أعمالها، وتخصص وقتاً كافياً لرؤية ماي وهي تكبر.

«في أي ريف؟»

«لا أعلم... في محيط ليون. ربما في إقليم آن.»

ذهب يان لإطفاء القرن، وأشار لنا بالانتقال إلى المائدة. تركتُ مقعد الصدارة بشيء من الثقل، فقد كان رأسي يدور بعد كل هذه الشهادات. وهنا قلت لنفسِي... ها نحن في شهر فبراير، بعد ثمانية أشهر من الحادث، وقد استأنفت الحياة مسارها أخيراً. لقد تعافت آنا، وعادت إلى وظيفتها من جديد، وها هي تضع الماكياج على وجهها، وتدلّل حفيدتها. نجحت كاسندرا في دورها كأم، وأصبح يان يقوم، مرغماً، بدور الابن البكر، وأصبح أعظم مصدر فخر لوالدته. لقد عادت الحياة إلى طبيعتها رغم الألم، ورغم الشعور بأن شيئاً لن يعود كما كان من قبل، وأن العالم توقف. ليس بالنسبة لي... لقد بقيت بعيدة

عن كل شيء، عن الضوضاء، عن الاضطرابات، عن نمط حياة البشر العاديين. بقيتُ في منزلي، أنظر إلى الكتابات المجنونة التي ألصقتها على حائطي، والشرائط الملونة التي علقتها على شجرة صفصافي. هذه ليست هي الحياة العادية، بل هي حياة أخرى أعمل جاهدةً على صنعها، حياة على قياسي، تناسب خطواتي الحذرة وتترك حيزاً لفقيدي.

وريشار؟ هل استعادت الحياة مجراها بالنسبة له؟ لقد بدا ساكناً جداً قبل قليل، لست متأكدة من أنه كان يستمع إلينا...

انتهى بنا الأمر بالضرورة إلى الحديث عن ماي أثناء الغداء، عن نومها، عن قبضتيها الصغيرتين المشدودتين، وعن ابتسامتها الأولى. كان ذلك شاقاً بالنسبة لي. وشعرتُ بالإقصاء. وماذا عن بنجامان؟ لقد ولت الأيام التي كان فيها محورَ حديثنا الوحيد. هذا شيء أنااني وجدتُ صعوبة في هضمه لطرد كل ذلك القهر من جوفي.

ثم تردد صدى صرخة في الأعلى. نبّهتني كاساندرأ وأمسكت بيدي: «تعالِي»

لم تطلب مني، بل فرضت علي أن أحمل طفلتها الدافئة، على صدري، وأحيطها بذراعيّ قلبيتي الخبرة. ارتيمتُ جالسةً على سرير كاساندرأ ويان، مع الحرص على عدم إسقاطها.

«نعم، هكذا، احرصي على سند رأسها. ممتاز. أنت ممتازة» ابتسمت لي كاساندرأ، وبقيتُ صامتةً عاجزةً عن النطق بكلمة واحدة، وقد كبّلني كل هذا الحب العنيف مثل موجة تسونامي. «إنها تبحث عن الحلمة» قالت.

«أعرف. يجب... يجب أن تأخذها»

كنت بحاجة إلى لملمة شتاتي. مانون، تولد ضئيلة، كتلة بلا حركة، بلا حياة، بينما تهتز ماي بلطف ملاك. اضطرب قلبي، وكنت بحاجة لقليل من الهواء.

«سأعيدها لك لاحقاً» أعلنت كاسندرا.

أخذت ماي من بين ذراعي، وتركتني مترنحة ومرتبكة. ابتسمت من جديد وهي تفك أضرار قميصها، وتخرج ثديها، وتقدمه لـ ماي، مثل أمر بديهي. كانت لا تزال تبتسم، وعندما بدأت الصغيرة بالرضاعة، وضعت فوق رأسها يداً حانية.

«هل الأمر مؤلم؟»

أرغمت نفسي على قول ذلك لكي أحطم الصمت، وأخفف توتري الشديد.

رحت أراقب خيطاً من أشعة الشمس، يتسرب عبر الأباجورات، وسرير الزوجية الذي نجلس على طرفه، والمنبه فوق طاولة سرير يان، الذي ينشر ضوءاً مخضراً. رحت أصغي إلى صدى الأحاديث في الأسفل. إلى صوت المصّ الصادر عن ماي، وخرخرة السعادة التي تصدرها. أعتقد أنها كانت لحظة حميمة تقاسمناها أنا وكاسندرا، ولم أعد أعرف ماذا أقول من بعد.

«بماذا تفكرين؟»

فاجأني سؤال كاسندرا. رفعتُ كتفي بشيء من الغباء.

«لا أفكر بشيء»

«تفكرين بـ مانون؟»

احتجتُ إلى ثوانٍ لكي أمتص الضربة وأهز رأسي بالنفي.

«لا... لم أفكر بها الآن...»

سوٲ كاسندرا وضعية رأس ماي بهدوء شديد، لكي تسهّل عليها
الرضاعة، وقالت بلطف:

«أنا أفكر بها كثيراً»

من جديد، لزمني وقت لكي أبتلع غصتي وأتنفس.

«حقاً؟»

«نعم. كان يفترض أن تولدا بفارق ثلاثة شهور. كان يفترض أن
تكبرا معاً. كانت تلك الخطة»

لم أرغب بالرد. وكي أكون صادقة، كنتُ أفضل لو أن كاسندرا لم
تتكلم عن الموضوع. الآن أصبحتُ غاضبة إلى حد ما. غاضبة من
الحياة، منهم، من الخطة التي لم تسر وفق ما كان متوقعاً، على الإطلاق،
غاضبة من الجميع.

«أنا متأكدة من أن مانون كان من شأنها أن تكون الأكثر عقلانية
بين الطفلتين. كنا سنكرهكما، أنتِ وبين، لأنكما أنجبتما الطفلة ذات
الأوصاف التامة. طفلة جميلة شقراء هادئة وحسنة التربية من شأنها أن
تشير حسد كل الأهالي.»

ارتعشت شفتاي رغماً عني، وقلت:

«أنت حمقاء...»

ابتسمت كاسندرا، وتألقت عيناها.

«أراهن بأنك كنت عاقلة طيّعة وهادئة جداً»

«هذا صحيح»

«أراهن بأن مانون كانت سترث صفاتك»

«وماذا لو أنها ورثت صفات بن؟»

فكرت كاسندرا قليلاً.

«التهور والجرأة؟»

«نعم»

«ممم... في هذه الحالة كنا سنواجه أوقاتاً عصيبة يومياً. لكنني أظن بأنها كانت ستشبهك. أعتقد أن الطفل يشعر بكل انفعالات أمه أثناء فترة الحمل... وأنه يتطّبع إلى حد ما بشخصيتها»

«وماذا بعد؟»

«وأنت كنتِ مثلاً للهدوء. لم أرا امرأة حامل بمثل صفائك وهدوئك»
«لم أكن خائفة من شيء... كنت مطمئنة»

«بينما كان الغضب يعصف بي. كنت أغضب بشكل جنوني إذا رأيت ثلاث كسرات من الخبز فوق السجادة، وألاحق يان بالاتصالات عندما يتأخر دقيقة»

«إنها الهرمونات...»

«الهرمونات وميلى للكلام بدون تفكير. سوف ترين. ستكون ماي مجنونة»

«فترة حملك أيضاً كانت مليئة بالاضطرابات... الحادث الذي أودى بحياة بنجامان... ذهب آنا إلى دار رعاية المسنين... لم يكن ذلك سهلاً»

«لا، قالت كاسندرا مقاطعةً بحزم. كان الأمر شاقاً عليك أنت، ولم يكن شاقاً علينا. نحن، ليس لدينا أي حق بأن نشتكى»

لزمّت الصمت حين لم أعرف ماذا أقول. أضافت كاسندرا:
«بالنسبة لنا، حتى في هذا السياق، كان هذا الحمل أفضل شيء يمكن أن يحدث لنا. ماي أنقذت يان. وأنقذت آنا أيضاً، جزئياً»

راقبتُها وهي تبعد جسد ماي الصغير عن صدرها، وتعيد ثديها،
وتقفل قميصها بيد واحدة.

«هذا لن يعيد لنا بن أبداً، لكنه يذكرنا بأن الحياة تأخذ ولكنها تعطي
أيضاً»

مع هذه الكلمات، وضعت كاسندرا جسد ماي الصغير بين ذراعي،
ولبثت متسمة، أفكر بكلمات كاسندرا وكلمات جوليا وخضروات
حديقتي وبالسماذ الذي تركته يتعفن، كي أعيد تغذية تربتي به. لولا
عدم ثبات حبة القمح، لما أمكنها أن تتحول إلى ساق قمح، ولولا عدم
ثبات ساق القمح، لما أمكنه أن ينتج السنبله التي نأكلها

أصبح الجسم الصغير أثقل، وانتفخ بالنوم. انغلقت أصابع ماي حول
قلادتي، وهي عبارة عن سلسلة فضية رقيقة أهداني إياها بنجامان في
ذكرى زواجنا الأولي.

في الغرفة، تلاشى شعاع الشمس الرقيق. وفي الخارج، ربما بدأ
النهار يتلاشى. في غضون ساعات قليلة سوف يحل الليل. بدأت
الأصوات القادمة من الطابق الأرضي تبدو لنا أبعد. ربما كانوا يتكلمون
بصوت خفيض.

غفت ماي، بوجهها الملائكي الذي يعبر عن سكون تام.
على طريق العودة، في ذلك الأحد، فكرت بقطتي الرمادية التي
لا بد أنها تنتظرني في مقعدها. لقد حل الليل، وأضواء السيارات كانت
تعميني. فكرت بقبر بنجامان، الذي عرجت عليه قبل الانطلاق في
طريق العودة، لكي أخبره عن لقائي مع ماي، وعن أجراس الريح التي
علقتها كاساندرا فوق سريرها، وفطيرة التين التي أعدتها آنا، ووجه
ريشار المتعب، الذي لم يشأ أن يخبرني بالمزيد حول الأمر.

«سأحاول العودة لزيارتك سريعاً»، وعدته عند انصرافي.

هبّت الرياح حين غادرتُ الطريق المتحلق وراحت تشتد كلما ابتعدتُ عن الطرق الرئيسية وأضواء الشوارع والسيارات واتجهتُ إلى عمق الريف. ضبطتُ الراديو على محطة إخبارية بثت تحذيراً من رياح قوية في أوفيرن رون ألب، مع احتمال تساقط الثلوج. فكرتُ بأنفاق حديقتي وشرائطي المعلقة على أغصان الصفصاف. وأعادني ذلك إلى منزلي ذي الطراز القديم، إلى مقعدي الرمادي، إلى مطبخي ورائحة القهوة فيه، إلى غرفة نومي المطلة على أشجار الصنوبر. شعرت عندها بأنني ابتعدت عن بيت العائلة لوزان، عن ذلك الأحد المشمس، عن لحم العجل المشوي، عن ماي... شعرتُ بأنني بعيدة، لكنني لن أنسَ ما وعدتُ به بنجامان: أن أعود للتحدث إليه عند قبره.

«مرحباً يا قطتي»

جاءت القطّة الرمادية تستقبلني في الردهة المعتمة. كم تبدو سعيدة برويتي! أخذت تخرخر، وتحك نفسها بساقي، وتطلق مواءً ضعيفاً شاكياً لكي تحصل على مداعبة.

«هل أحسنتِ التصرف؟»

دخلتُ مطبخي قبل خلع معطفي. تأملتُ بِحُبِّ، ديكوري الصغير: طاولتي الخشبية القديمة، والمقاعد الأربعة، وحوض المطبخ الذي يقبع فيه فنجانِي المتسخ منذ الصباح، والمصفاة التي تضم ملفوفتين كبيرتين خضراوين، والورقة المعلقة على الحائط، «احتفلي». كانت الرياح تهب مهتدة في الخارج. كنت سعيدة بعودتي. لم أغب سوى نهار واحد، أول نهار منذ انتقالي إلى هنا، واشتقتُ لمنزلي. نمتُ تلك الليلة

بمزاج جيد. محادثتي الأولى مع بنجامان، لقائي مع ماي، العودة إلى منزلي وقطعتي. سعادة مرَّقة، ولكنها سعادة.

بعد ذلك بدأت أتحرق شوقاً إلى الربيع، بدأت أنتظره بجنون.

العاصفة التي هبت على المنطقة، جلبت إليها الثلج. تراكمت حوالى عشرة سنتيمترات منه فوق الحديقة والنفق والخضار التي تصارع لكي تبقى على قيد الحياة. حرمني الثلج من النشاط الوحيد العزيز على قلبي في هذه الأيام الأخيرة الصعبة من شهر فبراير: زيارة بنجامان في المقبرة. لقد وعدته بذلك، وأحتاج إلى ذلك.

جرت عدة أحداث أدت إلى إضعاف الشعلة الصغيرة التي كانت تنوهج في صدري منذ بعض الوقت: الحدث الأول هو مكالمة من والدتي.

«مرحباً عزيزتي. هذا أنا. سأصل في الأسبوع الثاني من شهر مارس لقضاء بعض الوقت معك»

الشيء الذي صدمني هو أن مكالمتها لم تكن على سبيل الاستئذان. وبما أنني لبثت صامتة، يسيطر علي الفزع، أضافت لكي تزيد الطين بلة: «لقد اشتريت تذكرة الطائرة. سوف أكون سعيدة بالتعرف على منزلك»

الحدث الثاني هو الثلج الذي لا يذوب ويؤخر زيارتي لقبره والفضفضة أمامه لكي أخبره كيف جلبت القطة الرمادية فأر حقل إلى باب منزلي، والكتب، كتبنا، التي جمعها ريشار من شقتنا، وأصرت أنا أن تسلمني إياها عند زيارتي لهم الأحد الماضي. لكي أخبره عن مذاق

نبات الملفوف التي صنعتُ منها طبق غراتان، عن الزمن الذي لم يعد له النكهة نفسها هنا، والحلم الذي حلمت به الليلة الماضية وبدا كأنه واقع... كان هناك، قريباً جداً، في منزلي ذي الطراز القديم، مستلقياً فوقى على سريري ويضع يده على بطني، في موضع الندبة. وبشكل قسري أيقظني من نومي شعور بالنشوة، كان عنيفاً، وحشياً، ومفجعاً. كنتُ قد نسيت ذلك الشعور. بكيت في سريري، مصدومة من تلك المتعة التي أثارها مجردُ ظهوره في نومي. بكيت وأنا أشعر بالإهانة لأنني لا أزال أملك القدرة على الانتشاء. اعتقدت أن كل شيء انطفأ بموته... كان يجب أن ينطفئ كل شيء. كيف استطاع جسدي أن يبقى محتوياً على أدنى نبضة من الحياة؟ عاتبْتُ نفسي. عاتبْتُ عضوي الذي لا يزال ينبض وقلبي الأخرق الذي يدق بعنف دون أن يعرف ما حدث له للتو. فكرتُ بأن هذا منافٍ للعقل. أردت أن أخبر بنجامان به، لكن الثلج كان لا يزال هناك...

أخيراً، حادث سقوط سوارى البرازيلي. هذا السوار الذي كان كل منا يرتدي نسخة منه: كان يحمله في معصمه، وأنا في كاحل قدمي. بقي السوار صامداً طوال عامين، وسقط اليوم أثناء نزع الجزء السفلي من بيجامتي. نظرت إلى السوار بلونه البني والأحمر، على بلاط غرفتي، وفكرت: كل شيء يذهب أدراج الرياح. استغرق الأمر مني فترة ما بعد الظهر لكي أتجاوز هذه الخسارة. شعرت وكأن أحد الروابط الأخيرة التي لا تزال تربطني بـ بنجامان، قد انقرط للتو.

كنت أفكر بذلك عندما نظرت من النافذة، وابتسمت. كان هناك في الأعلى، مخلصاً لنفسه، جميلاً كما في المرة الماضية، بديراً مكتملاً، ينشر ضوءه الفضي على المنظر الطبيعي.

«ها أنتَ ذا...»

كان يطل علي كلما شعرتُ بالضياح. حاولت أن أتذكر ما الذي فعلته في المرة الماضية عندما أضاء لي؟ كنت قد احتفلتُ بشجرة الصفصاف الباكي، أشعلتُ شموع الشكر والعرفان، ابتكرتُ شيئاً جميلاً وقديماً، ورسمتُ

صلةً وصل بين عالمي وعالم فقيدتي الحبيبين. عندها فهمت. لو لم تكن بطارية مصباحي الجبهي، فارغة، أظن بأنني كنت سأخرج في الحال. لكن المكان بين الأشجار الكثيفة سيكون معتماً جداً بدون مصباح. كان من الأفضل الانتظار حتى الغد. غفوتُ ويدي تُطبق على حبات السوار البرازيلي المنفرط.

وقفتُ هذا الصباح، بملابس دافئة، عند عتبة منزلي، أحمل كيساً بلاستيكياً مليئاً بأشياء صغيرة عديمة القيمة، متحدياً الثلوج، لتنفيذ المهمة التي أوحى لي القمرُ بها

اتجهتُ بشجاعة نحو الجانب الخلفي من المنزل. لم ترغب القطة باللحاق بي، وبقيت نائمة، تلك الكسولة. بسبب الطبقة السميكة من الثلج الناعم، كان كشفُ الدرب الصغير المؤدي إلى قلب الدغل انطلاقةً من الجهة الخلفية للمنزل، أصعب مما هو متوقع. وخوفاً من أن أضيع الطريق، كنتُ ألقي في خط سيرِي، وعلى نحو منتظم، بأغطية فلين أو حلقات مناديل أو كل أنواع الأشياء عديمة الفائدة التي جمعتها في كيسي البلاستيكي. دقتُ النظر بعناية في أشجار الصنوبر المحيطة بي. يجب أن أجد الشجرة المختارة. تلك التي ستصبح شجرتي المقدسة. شجرة الصنوبر التي سأختارها سيكون في جذعها، حسب تصوُّري، تجويف يمكن أن أضع فيه السوار ومحبس الزواج. أشك أن تكون هذه

الشجرة موجودة، ولكنني كنت أجتهد في البحث. ابتعدتُ هائمة على وجهي... نفدت الذخيرة من الكيس ولكنني كنت سعيدة: نعم، أشجار الصنوبر المزودة بصندوق كنز في جذعها موجودة بالفعل... كان الدليل ماثلاً أمام عيني. لبثتُ أول الأمر متسمة، كتفاي متدليان قليلاً وأنا واقفة بتواضع. شجرة الصنوبر مذهلة، فما بالك إذا كانت المختارة. الشجرة الماثلة أمامي كبيرة وقوية، ومهيبة أيضاً بطبيعة الحال. لكن ما أذهلني هو نسيج جذعها، وخشونته الواضحة، والمئات من حراشف لحائنها المتداخلة على أكمل وجه، والتي تبدو كأنها تتنفس بشكل مستقل، وتتجلى في طيف بديع من تدرجات اللون البني. رُسِمَت كل منها بدقة بالغة فبدت لي إعجازاً في الإبداع... بوبيت، أنت تبالغين. لقد جعلني أعبس. لا أبالغ يا بن... أنت من قلت بأنني سأحب الطبيعة... تردد صوته ساخراً: لا تنسي أنكِ أنتِ مَنْ تخترعين أجويتي، و أنني لستُ سوى الصوت الداخلي لفتاةٍ شقراء صغيرة مخبولة.

«حسناً»

لكي أتوقف عن هذياني وأبدأ بالعمل كان عليّ أن أتكلم بصوت مسموع. قفزتُ نحو الأعلى قفزة صغيرة مكنتني من الوصول إلى حافة التجويف. أودعت السوار البرازيلي في مخبأ آمن داخل صندوق الشجرة. ترددتُ لحظات قبل أن أقرر خلع محبس زواجي. انعصر قلبي، ولكنني اقتنعت أن المحبس أيضاً سيجد في شجرة الصنوبر المقدسة مكاناً أفضل...

رحت أتلوى وأتنفس بصوت عالٍ وأنا أقفز، إلى أن نجحتُ أيضاً في إيداع المحبس في تجويف الشجرة. أخرجتُ من كيسي البلاستيكي وعاء طلاء وردي متبقّي من تلوين أجراس الريح التي صنعتها لأجل

ماي. لم أرغب بإزعاج شجرتي، لكن كان من الضروري وضع علامة عليها لكي أتمكن من تمييزها حين أعود إلى هنا... سأقوم بتلوين حرشفة صغيرة واحدة فقط من لحائها.

جلستُ القرفصاء في ثلج الغابة الناعم، ولونتُ الحرشفة بالطلاء الوردي، دون أن يمتد الطلاء إلى ما حولها. عندما نهضتُ، أعجبتني النتيجة: سوف تبدو الشجرة عادية تماماً بالنسبة لعين بريئة، أما من سينظر إلى الأسفل من جذعها، فلن يخفى عليه الألقُ الوردي.

مكأنُ تَعْبُدِي، بسيط، لكن هذه مجرد بداية، لأنني سأقوم لاحقاً بتزيين المكان بالورود، وسأضع فيه شموعاً، وربما هدايا... عدت إلى المنزل متبعةً العلامات التي تركتها في وقت سابق على الأرض. لم أستعدها من نقاطها. لن أفعل ذلك على الفور. لأنها ستمكّني بمرور الوقت، من العودة إلى المكان مغمضة العينين. لكنني في الوقت الحالي كنت لا أزال بحاجة إلى بعض نقاط الاستدلال.

أتيتُ على ظفري إبهامي قضمًا، وانتقلتُ الآن إلى الجلد المحيط بهما. لطالما حملني انتظارٌ والدتي في محطة القطار، على ذلك. وقفتُ متبسةً في القاعة، بجانب لوحة القادمين.

لم تتوفر لي شجاعة ولا مخيلة خلاقة تكفي للإفلات من زيارتها لي. فقد كان الأمر يحتاج إلى إيجاد عذر استثنائي لم أتمكن من إيجاده... فضلاً عن أنها كانت قد استلمت التذكرة. أذعنْتُ للأمر. على أية حال، الربيع قادم والحديقة تحتاج إلى عمل كثير، وهو ما سيجبني ملازمتهَا وملاحقتها لي، كونها تكره التربة وديدان الأرض والرخويات الأخرى. نعم، ما أن ذاب الثلج، حتى استيقظت الحديقة... حصدتُ نبات اللفت في نهاية شهر فبراير. حوالي عشرة منها. كانت جوليا لا تزال

على سفر، لذا أعددتُ وجبات من الفطائر والغراتان واللفت المكرمل، وخبزتها في الثلاجة. حفظت بشكل خاص درساً كتبه السيدة هيوغ أسفل صفحة في إحدى مفكراتها، وفاتني ذكره: يجب غرس الشتول على فترات متباعدة لتحقيق هدفين: الحصول على خضروات طوال العام، وتجنب الحصاد بكمية كبيرة حيناً ثم لا شيء لاحقاً. لقد تعلمت من أخطائي... وسيكون أدائي أفضل في المرة القادمة.

ارتفع صوت في الصلاة يعلن وصول القطار القادم من ليون بار-ديو إلى الرصيف رقم 2. وضعتُ حقيتي اليدوية على كتفي ووقفتُ مستقيمة. حان الوقت.

إنها مشمرة، ذلك كان أول انطباع كوَّنته عندما رأيتها مقبلة تجر حقيقتها خلفها. بدت بشرتها، التي تزداد سمرة مع كل زيارة، مدبوغة بعناية. لا شك أنها تعيش الآن حياة بطالة هائلة. كانت ترتدي بدلة سوداء أنيقة وحذاء أسود بكعب عالي أيضاً. شعرها الأشقر مقصوص إلى مستوى الذقن. لقد استطاعت دوماً أن تجد قصة الشعر العصرية، ومن الواضح أنها اختارت موضة الشعر القصير.

ابتسمتُ لها ابتسامة أخشى أنها لم تكن مقنعة جداً. علت جلبة كعب حذاءها، وكانت رائحة عطرها الشانيل 5 تدغدغ أنفي، وها هي تنقُص عليّ، وتطوّق جذعي المتخشب.

«مرحبا عزيزتي، إنني سعيدة برؤيتك، تبدين بحال جيدة»

وبما أنني أعرف كيف تنظر إلى الأمور أوليتُ عناية خاصة بمظهري للترحيب بها.... ربطتُ شعري الأشقر، الذي نما حتى وصل إلى أسفل كتفي، ووضعت لمسة من أحمر الخدود على وجنتي، بحيث أبدو في

أحسن حال. وارتديت أحد تلك البناطيل السوداء البسيطة والرصينة التي كنت ألبسها وقت الذهاب إلى العمل، مع كنزة وردية ذات ياقة مدوّرة، وحذاء بكعب عالي... كعب عالي... لا أستطيع أن أصدق أنني كنت أسير بهذا النوع من الأحذية قبل بضعة أشهر. إنها اليوم تسبب لي الأذى وتبدو لي سخيفة. لقد أصبح الحذاء البلاستيكي هو حذائي المعتمد بشكل نهائي، كما أعتقد... لأنني عند ارتداء حذاء الكعب العالي، أصبحت أشعر وكأنني في زي تنكري، ولكنه الثمن الذي يجب أن أدفعه حتى تقنع والدتي نفسها بأنني سعيدة، وتخفف من شعورها بالذنب كأُم - أو كأُم سيئة - وتغادر في أسرع وقت ممكن.

«هل كانت رحلتك ممتعة؟»

«إنني مرهقة بعد كل تلك الساعات الطويلة من السفر، لن تستطيعي أنتِ، القيام بشيء مماثل، أليس كذلك؟»
كتمتُ في نفسي رداً مريراً. لم أكن أنا من قرر الهروب إلى مسافة آلاف الأميال... أشرتُ لها نحو بوابة الخروج وسألتها بأدب:
«هل أساعدك في حمل حقيبتك؟»

ارتبطتُ أُمي برجل. كان هذا هو الخبر المذهل الذي كاشفَني به في الطريق إلى المنزل. أنا التي طوال حياتي لم أعرفها إلا امرأة تعيش حياتها بمفردها، مدافعة عن استقلالها وداعية للصراع بين الجنسين، وجدتُ هذا الخبر صادماً، أو مضحكاً، لو أنني استطعت الضحك، لكنني لم أستطع.

«إنه متقاعد»

«حقاً؟»

كانت معرفتي الجيدة بأمي، تجعلني لا أستغرب لو أنها تعرفت على شاب أصغر منها عمراً. ربما بمثل عمري.

«نعم. تولى ابنته الفندق الذي كان يديره. شاب رائع»

«لا أشك بذلك»

«أنت تهكمية جداً»

«إنه مجرد تعليق بسيط لا غير»

فضلت أن تدير وجهها نحو النافذة، وأن تبقى متجهمة لحظات قبل أن تستأنف كلامها:

«في البداية، اقترحت عليه أن أعمل كموظفة استقبال في الفندق، ولكنه رجل في غاية النبل... لقد أجابني: هذا غير وارد يا كريستين»

ضحكت. وتبين لي أنها بعد كل هذه السنوات من الشعارات الجميلة، ترضى العيش مع رجل ينفق عليها.

«ما اسمه؟»

لم يكن يعنيني اسمه حقاً، ولكن ربما كان من شأن سؤالي هذا أن يجنبني أسئلتها عن أحوالي...

«دانييل، لكن الجميع يسمونه دان.»

«هل مضى وقت طويل على لقاءكما؟»

«بعد فترة قصيرة يكون قد مضى عام. أردتُ أن أكلّمك عنه من قبل، ولكنك كنتِ دوماً مستعجلة على الهاتف.»

حملتُ لها حقيبتها إلى المنزل. كنت قد اشتريت بمناسبة وصولها، مقعداً طويلاً يمكن تحويله إلى سرير، مصنوعاً من قماش بوليستر بنسبة 100%، بلونٍ أزرق بترولي. كان هذا هو اللون الوحيد الذي لا

يزال متوفراً في المخزن. إنه غير منسجم جداً مع ورق الحائط الوردي السلموني، والمطبخ الخشبي الداكن، والمقعد الرمادي، ولكنه سيتيح لي النوم في سرير مزدوج بعيداً عن والدتي.

«سأترك لك غرفة نومي، لكي تكوني مرتاحة، وستبقى القطة في الصالون»

«القطة؟»

كانت تلك صرخة هستيرية وليست تعجباً أو استغراباً.

«أي قطة؟»

«لقد تبنيت قطة»

«هل تمزحين؟»

«لا. سأعرفك عليها.»

كنت مبتهجة بشماعة غير أنني حافظت على هدوء بارد.

«ولكن القطة قادرة، إنها مليئة بالبراغيث والجراثيم»

«لهذا السبب تركت لك غرفتي. ملأأتك نظيفة. سوف نبقي الباب مغلقاً كيلا تدخل القطة إلى هناك»

لكن هذا لم يطمئنها، بل أخذت تنظر حولها كأنها تستعد للهرب عند اقترابها.

«إنها لا تقترب من البشر، ولن تزعجك.»

وضعت حقيبتها عند قدم السرير، وتجولت في الغرفة، ثم توقفت أمام النافذة، وبدأ عليها الاضطراب بشكل واضح. من هنا يمكن رؤية التلال المحيطة، ومساحات لا نهاية لها من أشجار الصنوبر.

«لا أستطيع أن أصدق أنك تعيشين هنا»

«مكان يتميز بالأصالة، أليس كذلك؟»

عليّ الاعتراف بأن اضطرابها أبهجني.

«إنه بعيد. معزول»

«يسود الهدوء هنا. ثم هناك أشياء أخرى لم تريها بعد. لدي الآن حديقة.»

ذهبتُ لخلع حذائي ذي الكعب العالي، كيلا أسمعها تشهق من الصدمة.

«ألا تريدین مشاهدة بقية المنزل؟»

الأمر المؤكد هو أنها لم تشعر بالكثير من الارتياح هنا. أخذت تتحرك مثل شخص يمشي على حبل مشدود، تلتصق بالجدران، وتتجنب لمس أي شيء.

«يذكّرني بمنزل جدّيك»، قالت ونحن ندخل المطبخ.

«لم يكن يعجبك؟»

«كان من نمط بناء قديم...»

دعوتها للجلوس ووضعتُ فنجاناً أمامها.

«ماذا أجلب لك؟ شاي أم قهوة؟»

«قهوة»

«حسناً. كيف هو منزل دان؟»

أخذها هذا السؤال إلى مكان آخر عزيز على قلبها. ابتسمتُ.

«إنه منزلٌ مهندس معماري، عصري جداً، له شرفة هائلة تطل على المسبح، الذي يعتبر هناك شيئاً لا غنى عنه»

ها قد انطلقت. لم أعد أصغي إليها، لكنني كنت أعرف بأنها سعيدة بالثرثرة.

شربنا قهوتنا، ولم تظهر قطتي. أنا متأكدة من أنها تمقت رائحة شانيل 5. علمتُ أن دانييل يبلغ الثامنة والستين من عمره، لكنه يبدو بالكاد في الستين، وأن طليقته سرقت ماله عند الطلاق، لكنه تجاوز الأمر بفضل فندقه، وأن ابنه في مثل عمري. هنا، شعرت بأن هناك شيئاً يحاك، لكنني تظاهرت بأنني لم أفهم.

«كيف تمضين الحِداد؟»

جاء هذا السؤال بعد ذكر ابنِ دانييل. تسلسل منطقي. والدتي تفكر في إعادة توجيهي نحو جزيرة لا ريونيون، على ما أعتقد.

«كيف أمضي الحِداد؟» كررتُ بتهكم.

«نعم أنا... هل تمضين قدماً...؟»

«تسأليني إذا كنتُ بخير، أليس كذلك؟»

«نعم. إذا كنتِ بخير، وإذا كان لديك مشاريع جديدة...»

ليس هناك شيء يجعلها تتأثر. أرادت أن تعرف إذا ما استعدتُ وظيفتي، وإذا كنت أفكر في لقاء رجال آخرين.

«نعم، لدي عدد لا بأس به من المشاريع»

«حقاً؟»

«بالطبع. حديقتي إنها تأخذ من وقتي الكثير. سوف يتعين علي أن أزرع شتول الخس والهندباء والشمندر والبصل والكراث. أما شجرتي التفاح، فيجب تقليمهما عما قريب. سأحاول إزالة الأعشاب الضارة أيضاً، وذلك بغرض تنظيف التربة ورفد حوض التخمر بمواد إضافية للسماذ. قد يتعين علي أن أجز العشب. ثم أود أن أقوم بإنشاء صالة حديقة باستخدام ألواح العزل. يمكن أن تزودني جوليا ببعض

منها. هي ابنة صاحبة المنزل السابقة. ونحن على تواصل عبر الهاتف بشكل منتظم. إنها تحب المجيء إلى هنا»

لبثت والدتي مذهولة. وأنا أستمع برؤيتها مصعوقة. كان لديها اللياقة الكافية لتومئ برأسها دون أن تقول شيئاً. أنهيت قهوتي بابتسامة على وجهي.

وفي وقت لاحق، اقترحتُ عليها زيارة أرضي، وبينما كنا نسير على طول أنفاق الخضروات، تجرأت أن تطرح السؤال الذي أخفّته لفترة طويلة:

«وبخصوص عملك؟ متى تخططين أن تعودتي إليه؟»

هزرت كتفي. ليس لدي أدنى فكرة. أشعر أنني عاجزة عن الانخراط من جديد بهذا المجتمع الجشع، البارد، وغير المعني بالأفراد. الشيء الذي كان يجعل ذلك المجتمع إنسانياً ودافئاً وملئاً بالمعنى هو بنجامان، الوعد بتأسيس عائلة، والرباعي الذي شكلناه مع كاساندر ويان وفتية بيت الشباب والثقافة واجتماع أفراد عائلة لوزان حول الطاولة، هو الوعد بعائلة سعيدة.

«أنا بخير هنا» هذا ما قلته لأمي.

لم أقل لها بأن هذا ليس مجرد منزل، بل عالم قائم بذاته، بنيته نفسي، عالم من شرائط ألوان معلقة في الأشجار وشموع توقد عند اكتمال القمر وشجرة صنوبر مقدسة وطقوس جنازة بسيطة وبهيجة. لم أخبرها بأن كل ما أفعله هنا محمّل بالمعنى: الطقوس الخاصة بفقيدي والحياة التي أنبتُها في حديقتي كما فعل البشر قبلي منذ آلاف السنين.

«مع ذلك، سوف تحتاجين إلى راتب في يوم من الأيام»
«أعرف»

لقد جعلتني أشعر بالخآبة. لا أريد التفكير بذلك. ليس الآن.
«أنا في إجازة بدون أجر، كما تعلمين. بإمكانني العودة إلى عملي في
البلدية في أي وقت أريده»
«من الأفضل أن لا تتباطئي. قد ينسونك...»
فضّلتُ أن أركز على ظل القطة الرمادية التي تتسلل هناك بين أشجار
الصنوبر.

اعتباراً من اليوم التالي، انتظمت الحياة بطريقة ما، مع أمي. في الصباح، وبحكم معرفتي بأنها تحب النوم حتى وقت متأخر، كنت أغتني الفرصة لتناول إفطار هادئ، ملتصقة بالنافذة، والقطعة في حضني. كنت أستمع بقهوتي ثم أذهب للعمل في الحديقة. حفرْتُ كي أزيل الأعشاب الضارة، ثم رششتُ مزيج الخل والماء والملح لتهيئة أرضي لإنتاج خضروات جديدة. حين عدت إلى المنزل لمعرفة كم بلغت الساعة، وجدتها عند باب غرفتي، بشعر أشعث وعينين لا تزالان منتفختين من النوم. «استيقظت»

«نعم. هل تأخر الوقت؟»

«إنها الساعة الحادية عشرة تقريباً»

«بدت متفاجئة»

«لم أنم جيداً بهذا الشكل منذ وقت طويل»

«هذا ما قلته لك. المكان هادئ هنا»

أشرت لها إلى ماكينة صنع القهوة، والخبز المجمّد، والشواية، والمرّي.

«البيت بيتك. يجب أن أنهي شيئين أو ثلاثة أشياء صغيرة، سيستغرق الأمر مني نصف ساعة على الأكثر»

عند ذلك هربتُ مثلما تفعل تلميذة تغيبت عن مدرستها. مضيتُ عبر الدرب المؤدي إلى الغابة، الذي يمر من الجانب الخلفي للمنزل، مرتديةً حذائي البلاستيكي وبلوزة بنجامان القديمة. لقد اختفت الفلينات والعلامات الأخرى، لكنني الآن حفظتُ الطريق عن ظهر قلب. كل ما أنا بحاجة إليه هو العثور على الحرشفة الوردية لتحديد شجرة الصنوبر التي اخترتها من بين كافة أقرانها. الآن، أصبح مكاني الخاص بالتعبُّد أقل اقتضاباً. لقد زودتهُ بإكليل صنعته بنفسي من أكواز صنوبر متشابكة مع اللبلاب، وأيضاً بكرسي صغير بدون مسند ظهر، كان ملقى تحت الحوض ولم أجد له أي استخدام. اليوم يوجد فوقه وسادة زرقاء رقيقة، تسمح لي بالجلوس أمام شجرة الصنوبر. يوجد أيضاً، بين جذرين كبيرين، فأرة في حالة متقدمة من التحلل، وقد أكلتها الديدان. هل كان ممكناً أن أرفض قرباناً من القطة الرمادية، لـ بنجامان؟

«مرحباً بن»

جلستُ فوق كرسيي الصغير، واضعةً يديّ فوق ركبتيّ. لا أزال أشعر بالسعادة نفسها عند المجيء إلى هنا.

«حسناً... كما أخبرتك، والدتي عندي في المنزل... لكن لا بأس. الأمور تسير حالياً بشكل جيد. أحاول تقبُّل الوضع، وأتخيل بأنها تحاول الشيء نفسه. لم ألاحظ ما يدعو للانزعاج الشديد، الحياة تمضي قدماً.» ابتسمتُ للجذع، وبشكل خاص للحرشفة الوردية.

«سأحتاج الآن إلى تنظيم وقتي بطريقة مغايرة لكي آتي لزيارتك. سأحتاج أن أوجد ذريعة، وأتمكن من التواري عن الأنظار. ليس وارداً أن أخبرها بما أفعله هنا، وإلا فإنها ستضعني حتماً في مشفى الأمراض العقلية»

ضحكنا، نحن الاثنان، هذا ما أحببتُ أن أتخيله على أية حال.
«قبل عام، أنا نفسي كنت سأعتقد أنها مجرد مزحة... ولكننا جميعاً
تغيرنا كثيراً. هل أخبرك بأغرب خبر؟ أمي ارتبطت برجل! دانييل. أم
عليّ أن أقول دان، فهي تتمسك بذلك. هل أخبرك؟»
شجرة الصنوبر المقدسة تصلح لهذا الأمر أيضاً، أن يتمكن أحدهما من
السخرية بلطف من أمه.

«ماذا تريدان أن نأكلي؟»

«لا أدري...»

«لدي قرعة طويلة. يمكن أن نصنع منها طبق غراتان»

«حسناً»

كنت أرى بأن أمي ضجرت هنا رغم عدم مضي أكثر من أربع
وعشرين ساعة على وجودها هنا. ليس لدي تلفزيون ولا راديو، لدي
فقط بعض الكتب التي بدأت تتصفحها.

«إذا ضجرتِ تستطيعين مساعدتي في الحديقة»

لم تقل شيئاً، لكنني أعرفها عندما تستاء. لحسن الحظ، أن تحضير
طبق القرع استغرق منا ساعة ونصف كاملة. تناولنا وجبة غداء متأخرة.
سألتني أمي بأدب عن حديقتي فقط لتملأ الصمت، وتظاهرتُ أنا بعدم
ملاحظة ذلك.

«هل لديك جيران؟»

«حتماً، ولكنهم بعيدون، إلى الأسفل»

«هل تصادفينهم أحياناً؟»

«لا»

«أليست هذه العزلة عسيرة جداً؟»

«لا، ليست كذلك»

نظفنا الطاولة وأعلنْتُ لها أنني، بعد ظهر هذا اليوم، سيتعين عليّ المرور لشراء الخضروات من بستاني السوق. قالت بأنها ستبقى هناك، وستجلس في الشمس لكي تحافظ على لونها البرونزي.

أبقت كل منا على مسافة بينها وبين الأخرى، وهذا جيد. لكن فترة المساء هي الوقت الذي تتضح فيه صعوبة التعايش، حيث نتناول العشاء بصمت، ونبحث عن موضوع للحديث لا يكون شائكاً، ثم نجلس في المقعد الرمادي والمقعد الطويل، الأزرق البترولي، ويبد كل منا فنجان من الشاي. وعندها يتعين حقاً أن نجد شيئاً نقوله أو نفعله. عادةً ما أنام باكراً وقد أنهكتني تقليب التربة. لكنها هنا هذا المساء، وتهز قدمها بعصبية. عندها تذكرتُ لعبة الورق التي تركها لي ميكا.

«هل تودين أن نلعب معركة كورسيكا بالورق؟»

«معركة كورسيكا؟ ما هي؟»

«إنها سهلة، سأشرحها لك»

كنت أشعر بالنشوة وأنا أرى أن استجاباتي⁽¹⁾ في اللعبة أفضل من استجابات والدتي، وأني أهرمها هزيمة ساحقة كلما احتاج الأمر للضرب فوق كومة البطاقات. لم يكن هذا المساء سيئاً للغاية...

(1) لعبة معركة كورسيكا تعتمد على سرعة الاستجابة بالضرب فوق كومة الأوراق قبل أن يسبقه اللاعب الآخر إلى ذلك، ويربح كومة الأوراق بدلاً منه.

اعتقدت أنها لن تطيل المكوث هنا، وأنها ستختلق أول عذر ممكن للعودة إلى جزيرتها. منزل في عمق الريف ليس فيه سوى بعض الكتب وقطة مليئة بالبراغيث. لكن أياماً أربعة مرت وهي لا تزال هنا.

كانت تستيقظ متأخرة جداً، صباحاً، فأمضي الوقت باسترخاء بصحبة قهوتي وقطتي الرمادية، وأشكر السماء بصوت خفيض، على زرقتها، وألوح لشجرة صفصاف بول، التي ترسم لنا قوس قزح مع كل هبة نسيم، وأخطط لفترتي الصباحية في الحديقة. تقلب تربة الإسكارول⁽¹⁾ الذي لم ينبت، كي تُستخدم للكراث. زراعة شتلات الشيكوري. سقاية الزهور ونباتات الفراولة. جمع بعض الهندباء. أريد أن أصنع منها تاجاً أصفر لامعاً لشجرتي المقدسة، شجرة الصنوبر. في تقديري، لا زال ينقصها بعض الألوان.

كنت أمضي فترة الصباح في الهواء النقي بالخارج. حتى عندما تكون الرياح قوية، وحتى عندما تمطر، وأذهب دائماً لأتحدث إلى بنجامان بين الأشجار، قبل العودة إلى المنزل. إنها لحظة استرخائي.

ثم نقوم كلتانا بإعداد وجبة الغداء، والتي تكون دائماً أطباقاً معقدة وتحتاج إلى وقت طويل، مما يسمح لنا، في غياب قواسم مشتركة كثيرة بيننا، بالعثور على شيء يشغلنا معاً. نبدأ بتحضير أطباق تحتاج إلى صلصات تحتاج إلى ساعات من الطهي على نار هادئة. نعطي ملاحظتنا على سير عملية الطهي، ونشرب كأساً أو اثنين من النبيذ، ونكشف القدر بانتظام، ونحن نتظاهر بنفاد الصبر. ما أجمل أن نشعر بالملل معاً. أعتقد أنني بدأت أستعذب ذلك الشعور.

(1) نوع من الخس

لا يزال الجو بارداً جداً لتناول الغداء في الخارج، لذلك كنا نأكل وجبتنا في الداخل، ثم نحتسي قهوتنا على الشرفة المشمسة في هذا الوقت. وعندما نهض تكون فترة بعد الظهر قد بدأت. ذهبْتُ يوماً برفقة والدتي إلى متجر خردوات لشراء بعض مقصات التقليم، وسلم، وكتاب كامل عن البستاني المثالي (أخطط لتطوير مهاراتي أكثر). وفي يوم آخر ذهبنا للتسوق وشراء بعض المواد الغذائية وسحبتي رغماً عني إلى صالون لتصفيف الشعر.

«يجب تقليم أطراف شعرك وتنشيطه»

أجرينا إذن عملية تنشيط لشعري. كل مساء كنا نتناول عشاءً سريعاً ثم نعمل على تحسين مهارتنا في لعبة معركة كورسيكا. لم تحدث صدامات. ولا أزمات.

«هل لا تزالين تلتقين بعائلته؟»

نزل عليّ هذا السؤال نزول شعرة فوق الحساء أثناء العشاء.

«عائلة بنجامان؟»

«نعم»

لم تنشأ روابط صداقة أبداً بين عائلة لوزان ووالدتي، بل تفاهم ودي على الأكثر.

«نعم، التقيت بهم مؤخراً. زوجة شقيقه يان، وضعت مولودها»

«حقاً؟»

«بنت صغيرة»

شعرتُ بأنها اضطربت. لقد كفت عن المضغ. هل هو حزنٌ ما يبدو في عينيها؟ يبدو الأمر كذلك.

«تعليمين» قالت بعد ثوان «إذا حدثت الأمور بهذه الطريقة، فلا بد أنها كان يجب أن تحدث بهذه الطريقة»
لقد سمعتُ عباراتِ مواساةٍ أفضل، ولكنني سأرضى بهذه. كانت والدتي تبذل جهدها على طريقته.

تحدثت بعد ظهر اليوم في مكالمة هاتفية مع دانييل. ذهبت إلى الحمام وأغلقت بابي على نفسي. سمعتها تضحك. وعندما خرجت، كان خداهما متوردين وعيناها لامعتين، كأنها مراهقة. خطر لي عندئذٍ بأننا عكسنا الأدوار إلى حد ما. كنتُ أنا السيدة العجوز التي تعيش مع قطتها، وتكرس نفسها لحديثها، وهي المرأة العاشقة واللاهية.
في يوم آخر، اعترضتني بعد عودتي للتو من جلسة التأمل تحت شجرة الصنوبر.

«إلى أين ذهبتِ؟»
«لم أذهب إلى أي مكان. كنت أبحث عن القطة. ظننت أنها في الغابة»

«إنها في الصالون...»
«حقاً؟»
«إما أنني كنت بارعة في الكذب، أو أن عقلها كان شاردًا بعيداً.»
«كنتِ تبحثين عني؟» سألتها حين رأيتهَا قلقة.
«نعم... يوجد بالداخل سيدة، تقول بأنكما تعرفان بعضكما...»
ذهبنا إلى الجهة الأمامية من المنزل. كانت السيارة الزرقاء تلمع في الشمس. جوليا هيوغ هنا، مرتدية زياً أحمر بالكامل.
«مفاجأة، لقد عدت من السفر»

توليتُ مهمة تعريف إحداهما على الأخرى مع شعوري بأن والدتي منزعة قليلاً: جوليا، أعرفكِ على والدتي كريستين. كريستين، هذه جوليا.

مدت كل منهما يدها للأخرى بخجل، ثم انتهى بهما الأمر بتبادل قبلات الود.

«جئت لكي أزور حديقة الخضروات والبستانية المستجدة» قالت جوليا.

«جئت في وقتك»

«حقاً؟»

«أريد تقليم شجرتي التفاح ولكنني لم أفعل ذلك أبداً من قبل»

«هل لديك مقص تقليم؟»

«نعم. مقص جديد تماماً»

«سأريك إذن»

أضافت وهي تشير إلى سيارتها:

«لقد أحضرتُ وجبة لحم بقري بالجزر من أجل الغداء. يفترض أن

تكفي لثلاثة أشخاص»

عندما رأت والدتي بأننا نتجه إلى شجرتي التفاح في الجانب الخلفي

للمنزل، اقترحت:

«هل أسخن الوجبة ريثما تنجزان العمل في الخارج؟»

«فكرة جيدة» ردت جوليا «إنها في مقعد الراكب»

صعدتُ على سُلَّمي الجديد، لكي أتولى الفروع الأعلى، فيما وقفت جولياً في الأسفل وتكفلت بالفروع الواطئة، وهي تشير لي إلى الأغصان التي يجب قطعها، وتثرثر معي قليلاً مع كل إشارة.

«لم أعلم بأن والدتك هنا...»

«هي مثلك إلى حد ما، لأنها لا تخبرني مسبقاً بقدموها...»

«أصبتني في الصميم! ليس هذا الفرع، بل ذاك الذي يمتد إلى الأعلى»

«عموماً تشرفني والدتي كل سنة بزيارة. إنها تعيش في مكان بعيد»

«أين؟»

«في الريونيون»

«كونها بعيدة عنك بهذا الشكل، ألا يجعل الأمور أصعب عليك؟»

«لا. هكذا أفضل. هذا يجنبنا الشجار. ماذا عن هذا الغصن؟»

«اقطعي قسماً منه. على ماذا تتشاجران؟»

«سوء فهم متبادل»

«آه...»

«أنا وهي امرأتان متناقضتان تماماً، يصعب علينا أن نفهم كيف

خرجت إحدانا من رحم الأخرى.»

ابتسمت جولياً، وقامت، دون قصد، بإفلات أحد الفروع ليصطدم

بوجهي.

«آسفة، آسفة»

أصبحت وجبة اللحم البقري والجزر، ساخنة. أعدت الطاولة بشكل جيد. كانت أُمي تنتظر وهي تتصفح إحدى الروايات. قفزت عندما رأتنا مقبلتين.

«الأمور جاهزة»

كانت الوجبة أكثر بهجة من المتوقع، واللقاء وجهاً لوجه بين جوليا وأُمي، كان مفاجئاً. امرأتان جميلتان تتنافسان في الأناقة، إحداهما غير مرتاحة في هذا العالم الذي لا تنتمي إليه، والأخرى مثل سمكة في الماء، أخذت تستحضر ذكريات عن لوسي وبول، وإناء تغذية الطيور، ووجبات غداء الأحد تحت شجرة الصفصاف. لاحظتُ بأن والدتي تلبث صامتة ومحرّجة.

من المبالغ به القول بأنني سأحزن لرؤيتها تغادر غداً صباحاً. سأكون سعيدة بالعودة مجدداً إلى عزلي، فلا أعود مضطرة للاهتمام بأي شخص، أو إشراكه في أنشطتي كيلا يشعر بالملل. سأستعيد غرفة نومي من جديد أيضاً. سأصبح سيدة وقتي مرة أخرى وسيكون ذلك ممتعاً. ومن ناحية أخرى، نعم، ربما سأشعر بالفراغ. بشيء من الضياع.

«لا أستطيع أن أطيل البقاء، يا بن. سنقوم الليلة بطهي وجبة خاصة بمناسبة يومها الأخير. إنها تصر على إعداد طبق سجق الروغاي، أحد الأطباق الخاصة بجزيرة ريونيون. يبدو أن دان خبير لا نظير له في سجق الروغاي، أوه! كم أنت سافل بسخريتكَ... حسناً حسناً... أنا التي تسخر، ولكنني متأكدة من أنك لم تقصّر أيضاً»

حدثتُ لحظةً إلى الديدان التي تنغل داخل الهيكل العظمي لهذا
الفأر المسكين.

«اسمع يا بن، بمناسبة الحديث عن الأهل، يجب أن أتصل بوالديك.
مروقت منذ التقيتُ بهما... في المرة الأخيرة شعرتُ بالقلق على والدك.
يجب أن أتصل الليلة. سأفعل ذلك قبل عودتي إلى المنزل. بعد ذلك،
سوف تداهمني رائحة نقانق روغاي. ربما تكون رائحةً مثيرة للشهوة
الجنسية، من يدري؟... وهذا قد يفسر سبب إعجاب والدتي بِـ دان،
البالغ من العمر ثمانية وستين عاماً...»

أجريتُ الاتصال بعد أن مشيتُ إلى نقطة قريبة من المنزل.
ردت آنا، وفي الخلفية سمعتُ ميني بوس تصرخ بأعلى صوتها.
«هل أتصل في وقت غير مناسب؟»
«لا» ردت آنا «إطلاقاً. كل ما في الأمر أن ماي غاضبة وتتذمر»
«أردت فقط معرفة الأخبار...»

علمتُ أن يان سيأخذ كاسندرا الليلة إلى السينما، وأن آنا هي التي
كُلفت بالعناية بالطفلة، وأنها عثرت أخيراً على موقع لأجل دروسها في
الطبيعة، لشهر يونيو: قرية صيدٍ صغيرة على مشارف مرسيليا، في أبنيةٍ
مركز ترفيهي.

«أربع غرف مع خمسة عشر سريراً وملعب وكافتيريا. سيكون التلاميذ
سعداء هناك»

كانت تستمد سعادتها الصغيرة من عملها في التعليم. إنه أمرٌ مؤثر.

«أوه! ولم أخبرك! أنا وكاسندرا سنقوم بإنشاء حديقة صغيرة للخضروات في الجانب الخلفي من المنزل. نبتة طماطم من أجل الصيف كبداية. سيساعدنا يان في تهيئة التربة»
كنت سعيدة من أجلهما. وشعرتُ بأنها تتجنب الحديث عن ريشار، وهذا ما جعلني في النهاية أسأل بشكل مباشر:
«كيف حال ريشار؟ لقد بدا لي متعباً في المرة الماضية...»
الصمت الذي أعقب ذلك أكد لي ما كنت أشبه به: كانت تحاول إخفاء الأمر.

«مجرد اكتئاب طفيف»
«اكتئاب طفيف؟»
صمتٌ جديد. شعرتُ بترددِ أنا.
«إنه باختصار يعاني من الاكتئاب... يتناول حبوباً. لقد جعلوه يتوقف عن العمل لمدة أسبوعين»
«حقاً؟»

كان الأمر أخطر مما تخيلت. انقبض قلبي.
«كان ذهنه يشرد أثناء العمل، أعلنتُ أنا بصوت أخفض. كاد أن يقطع يده. قرار إيقافه كان أفضل»
«ما الذي جرى؟ هل هي الصدمة المؤجلة؟»
«نعم. هذا ما قاله الطبيب. صدمة مؤجلة»

لمتُ نفسي في تلك اللحظة لأنني لم أفكر بالأمر من قبل. ريشار الصخرة، الذي ساند زوجته عندما أصابتها نوبة انقباضات تكرر في أمام جسد ابنها البكر، المشوّه، وفي اللحظة التالية، ساندني في غرفة الولادة، وهو يشجعني كي أكون قوية، حتى بعد أن فهم بأن مانون لن تنجو. تولى

ريشار إدارة المنزل عندما انهارت أنا وأرسلت إلى دار رعاية المسنين، ثم ساند كاسندرا أثناء حملها، وساند يان الذي دمره الحزن، على القيام بدور الأب المقبل، دون أن ينسى الاتصال بي للتأكد من أنني بخير. لقد تمكن كل هؤلاء الأشخاص في النهاية من النهوض مجدداً. لا بد أن ريشار عَضَّ على جرحه طويلاً وفي اللحظة التي تراجعت فيها أعباؤه، انهار تحت وطأة الألم. إنه شيء بديهي. كيف لم نتوقعه؟

لبثتُ مقهورة لثوانٍ، أستمع إلى آنا وهي تؤكد لي أنه سيتعافى، وأنه رجل قوي. لكنني كنت أشعر بالذنب رغم عدم عقلانية الشعور.

«بإمكانه القدوم لبعض الوقت إلى هنا ليرتاح...»

اقترحتُ ذلك بصوتٍ خجول ومخنوق بعض الشيء.

«ستكون تلك فكرة رائعة يا أماندا، لكنه جعلني أتعهد بآلاً أخبرك شيئاً عن اكتسابه. لا يريد أن يسبب لك القلق...»

لم يفاجئني ذلك. كان ضميري يؤنبني عندما أنهيتُ مكالمتي مع آنا، ولم أستطع التخلص من ذلك الشعور بالإثم.

كانت أُمي من جانبها، في حالة معنوية مختلفة كلياً. بدت خفيفة في فستانها غير المناسب لبرودة المكان، وكانت تُحرِّك سِجِّق الروغاي، وهي تمسك بكأس من النبيذ الأحمر. لا بد أنها كانت سعيدة ببقائها القريب بـ دانييل.

«هل تمنيتِ لخضرواتك ليلة طيبة؟»

كانت تسخر، ولكن من دون سفالة. هل كان دانيال هو الذي غيرها إلى هذه الدرجة؟ كانت قد خففتُ من غلوائها خلال هذه الأيام العشرة. إنه أمر لا يمكن إنكاره.

«نعم. حرصتُ على تغطيتها بشكل جيد»

«تعالى دَخْنِي معي»

بقيتُ لحظاتٍ مستغرِبةً من اقتراحها.

«ظننتُ بأنك كففتِ عن التدخين...»

«فقط في الأعياد»

يبدو أننا كنا في يوم عيد... لبثتُ متشككة.

«هل تريدان مرافقتي؟ سيكون طبق الروغاي جاهزاً خلال دقائق»

«حسناً»

تبعتهُا إلى أمام الباب من الخارج، دون الكثير من الابتهاج في القلب. جلستُ ومددتُ ساقها الطويلتين المصطبغتين باللون البرونزي، في برودة شهر مارس. فعلتُ مثلها، بينطالي الجينز التالف.

«في أي ساعة يتعين أن أقلك غداً إلى المحطة؟»

«في الساعة الثامنة. ينطلق القطار في الثامنة والربع»

«حسناً»

نظرتُ إليها وهي تشعل سيجارتها وتسحب منها نفساً طويلاً قبل أن تمد لي يدها بسيجارة. لا أعلم لماذا قبلتها. لم يعجبني مذاق التبغ أبداً. لكنني رغبتُ في هذا المساء، أن أخفف أنا أيضاً من غلوائي. لذلك التقطتُ السيجارة، أشعلتها وسحبتُ منها نفساً.

«سيسير الأمر على ما يرام هذه المرة...»

احتفظتُ بابتسامة مريرة. نعم، هذه المرة لم أكن بحاجة لتكليف آنا بأخذها إلى المحطة. لبثنا صامتتين لحظة. غابت الشمس فوق أشجار الصنوبر. فكرتُ كم أنا محظوظة لوجودي هنا، وكيف جعل هذا المكان حياتي اليومية أسهل.

«إذا أحببتِ هذا المكان بهذا القدر، يمكنك أن تعملي من هنا»

«أعمل من هنا؟»

«أن عملي عن بُعد. هذا ممكن هذه الأيام»

عاد موضوع العمل ليُطرح من جديد.

«كان عملي يحتاج إلى بعض التنقل داخل ليون. كنتُ أنظم

فعاليات...»

«اعثري على عمل آخر»

«حقاً؟ وماذا سأعمل؟»

علتُ نبرةً صوتي قليلاً.

هزت كتفيها وهي تنفث دخاناً كثيفاً.

«لا أدري. لا يهم. المال مهم. لن يمكنك أن تعيشي على ميراثه إلى

الأبد. لم يكن الملك كرويسوس»

- «أعرف ذلك. كل ما أحтаجه هو الوقت، هذا كل ما في الأمر.

ليس من السهل تجاوز أمر مماثل»

«لقد مرت تسعة شهور يا عزيزتي. إلى أي شيء تحتاجين أيضاً؟»

شعرت بالاختناق؛ الدخان والسخط. لماذا كنت أدخن؟ لماذا

أناقش هذا الأمر معها؟

«لا أعرف. أحتاج إلى العطف ربما، إلى التعاطف»

«الكلمات الكبيرة على الفور...»

«ما المشكلة في ذلك؟ أنا لا أطلب نقوداً منك، ولا أطلب من أحد»

عندها خرجت كلماتي متجاوزةً أفكاري:

«لستُ أنا مَنْ يعيش على نفقة متقاعدٍ ثري، مَنْ أنتِ لكي تطلقني

الأحكام؟»

نهضت واقفةً. النيكوتين لم يُخلَق لي. إنه يجعلني في منتهى العصبية.
«عزيزتي، لا تفسدي كل شيء الآن، لقد أمضينا معاً أسبوعاً جيداً»
«عندما لا تتدخل أي منا بحياة الأخرى، تصبح الأمور جيدة»
«المسألة هي أنني قلقة من أجلك»

«ليس عليك أن تكوني قلقة، فمئذ زمن طويل، لم أشعر بهذا الشعور
الجيد»

أخذت تنقر فوق حَجَر العتبة لكي أعود وأجلس بجانبها على درج
الشفرة. امتثلتُ، ليس من أجلها ولكن لإنهاء أيام إقامتها هذه بشكل
صحيح، فلم يتبق لنا سوى بضع ساعات معاً.

«أواجه أحياناً صعوبة في فهم منطقك. ولكن إذا كانت الوحدة وقلة
النشاط مفيدين لك...»

«لست وحيدة دوماً، أما عن قلة النشاط، فأنا بعيدة عنه كل البعد»
«لم تفهميني...»

«بلى. أنت تعتقدين بأن الإنسان يكون أقل وحدة وهو بين أشخاص
لا يعرفهم، وأنه يمارس نشاطاً عندما يحقق منه دخلاً»
سحقتُ سيجارتها فوق الحجر ورفعت يدها فهزّت بها شعرها
الأشقر.

«كل ما أريده هو أن تشعرني بأنك على ما يرام»

«اعتبري أن هذا ما أشعر به»

«لا أزال أعتقد أنك تستحقين شيئاً أفضل من هذا...»

فضلت ألا أرد. لم أعرف ما هو الأفضل الذي أستحقه. منزل حقيقي؟
عمل حقيقي؟ زوج جديد؟ أن أسرع بإنجاب طفل لكي أنسى ألم الطفلة

التي فقدتها؟ أن أسمح لملك نقائق الروغاي بامتلاك جسدي؟ فضلتُ
الابتعاد قبل أن أقول شيئاً مهيناً.
«أنا ذاهبة لتفقدُ النقائق...»

لم يُتَح لها وقت لكي تمنعني من الذهاب. اختفيتُ داخل المنزل،
سيجارتني في يدي، وقلبي ينبض بقوة.

لحسن الحظ أن هناك القطة الرمادية، التي أتت على الفور لتستقر
في حضني. هناك القطة الرمادية والنبيد الأحمر.

بالطبع، كانت نقائق روغاي ذات مذاق مرير إلى حد ما، لكن
كريستين بذلت قصارى جهدها لكي ننسى خلافاتنا على الشرفة.
«لقد جلبتُ لك شيئاً...»

كنت قد تركتُ لها سيارتي أثناء انشغالي بعد الظهر بتقليم شجرتي
التفاح، فذهبتُ إلى أقرب مركز تسوق. نظرتُ إليها وهي تسير نحو غرفة
النوم وتعود بصندوق كبير من الورق المقوى، مغلف بورق أزرق ملكي.
«لستُ بحاجة لشيء هنا...»

كانت انتقاداتها لطريقتي في هدر التركة الهزيلة التي أورثني إياها
بنجامان، لا تزال ماثلة في ذهني.

«أما هذا الشيء، فأنت بحاجة له»
«أوه...»

فتحتُ العلبة الضخمة على مهل لأكتشف غلاف راديو محمول،
وردي اللون، مزود بمشغل أقراص مضغوطة وبطاقة ذاكرة.
«راديو؟»

«الجميع بحاجة لشيء من الموسيقى، أليس كذلك؟»
«نعم... أتخيل ذلك.»

ابتسمت لي بفخر مضيئة:

«إنه نقال. تستطيعين حمله معك إلى الحديقة.»

حسناً. إنها ماهرة عندما يتعلق الأمر بتصحيح حماقاتها...

مع اقتراب الربيع أخذ الطقس يتحسن ببطء. فكرتُ برِشار. مضيتُ قدماً في مشاريبي التي ازداد عددها أكثر فأكثر: بناء صالونٍ لحديقتي من ألواح العزل، وتركيب أرجوحة لماي. وضعت خطة لدعوته إلى هنا في الصيف. لقد أكدت لي آنا أن هذا سيكون له أثر إيجابي كبير على يان وكاسندرا، إذا أخذنا قسطاً من الراحة، وعليّ أنا أيضاً. أما بالنسبة للحديقة، فلم أعد أحظى بدقيقة واحدة من الراحة: أنثر البذار في أوقات متباعدة وأتخلص من الأعشاب الضارة وأروي وأكشف غطاء الأنفاق وأحرك السماد وأوزع مسحوق قشور البيض حول النباتات لطرد القواقع والديدان القارضة والحلزونات، وهي تقنية أخرى من تقنيات السيدة هيوغ السرية. فكرتُ بـ رِشار من جديد... قدّم لي الكتابُ الجديد الذي اشتريته حول البستنة، أفكاراً أخرى بهذا الشأن، بوصفي بستانية مبتدئة. هكذا تعلمت أن الأرض العارية هي حالة غير عادية في الطبيعة. ولعلاج هذه المشكلة، يوصي الكتاب باستخدام نشارة الخشب. لذلك، نشرتُ فوق التربة غطاء مكوناً من رقائق الخشب والأوراق الميتة ولحاء الصنوبر ونواتج جز العشب. قررت القيام بعملية الجز بنفسِي، كوني أعتقد بأن ميكا لن يظهر مجدداً وأنا أفهمه. لديه مشاغل أخرى أكثر إثارة للاهتمام بالنسبة لفتى في السادسة عشرة من عمره.

أشغل في الحديقة من الصباح حتى المساء. سأذهب لإلقاء التحية على بنجامان عندما يسعفني الوقت. لم أعد أفعل ذلك كل يوم، لكن هذا لا يمنعني من التفكير به، وأيضاً ب ريشار. كيف أجعله يأتي إلى هنا؟ أنا متأكدة من أن بضعة أيام في منزلي القديم ستمدّه ببعض الارتياح. كنت في بعض الأحيان أحمل جهاز الراديو الخاص بي إلى قرب شجرة الصنوبر المقدسة وأسمع بنجامان موسيقانا المفضلة، وأهز قدمي ورأسي وفق الإيقاع، والطيور تراقبني بغرابة.

في المساء، انشغل ذهني بمراقبة القمر. كان النجم في ربه الأول. وتبين لي بعد أن أحصيت الأيام، أنه يحتاج إلى ثمانية أيام أخرى لكي يكتمل. لقد أردت الاحتفال بهذا الحدث، فأغمضت عيني نصف إغماضة، وأنا جالسة في المقعد الرمادي، وتخيلت مأدبة تحت شجرة الصفصاف في ضوء القمر. خططت لنقل طاولة المطبخ إلى الخارج، وتغطيتها بمفرش أبيض ناصع مع شمعدان. سيكون هناك نبيذ، بطبيعة الحال، وفاكهة. أعتقد أنني قد أرتدي فستاناً أبيض أيضاً، تكريماً لضوئه الفوسفوري. وسيكون هناك موسيقى. لا أزال مترددة بشأن المقطوعات التي سأختارها: كلاسيكية على الكمان؟ أحب الكمان حقاً. أم على البيانو؟ ولم لا يكون هناك بعض أعمال إيلا فيتزجيرالد؟ لقد حظيت إيلا فيتزجيرالد دوماً بمكانة خاصة في نفسي...

هذا الصباح، عند عودتي من زيارة شجرة الصنوبر المقدسة، تعثرت بجذر كبير. كنت على وشك السقوط لولا أنني استندت إلى معصمي. لم يكن هناك وقت كافٍ لكي تلامس ركبتاي الأرض. لم أشعر بالألم إلا عندما اختفى مفعول الأدرينالين، وعاد قلبي إلى وضعه الطبيعي ونهضت. عندها شعرت بالألم، وانتشر إلى معصمي الأيمن الذي حاولت تحريكه. استطعت القيام بذلك دون كثير من الألم.

شعرت بالارتياح. كيف كنت سأواصل كل أشغالي بمعصم ملتوٍ أو مكسور؟ عندئذ ابتسمتُ وتناولتُ هاتفي.

«مرحباً أنا، معكِ أماندا. هل أستطيع أن أكلم ريشار؟»
مر صمتٌ متسائل ومليء بالخوف.

«ريشار؟»

من الواضح أنها خافت أن أكشف له القصة.

«أريد أن أطلب منه خدمة. أخشى أنني أحتاج إليه هنا في المنزل، لفترة من الوقت»

«أوه... حقاً؟ ما... ما الذي حدث؟»

«لا شيء خطير. سقطة سيئة. التواء في الرسغ»
«إنه أمر مزعج»

مر صمت آخر. هل شككتُ بكلامي أم أنها صدقت القصة؟ لا يهم في الحقيقة.

«هل رأيت طبيباً؟»

«نعم. قال بأن من الأفضل تجنب الجهد الزائد. لكنني لا أستطيع التوقف في المرحلة التي وصلتُ إليها في الحديقة. كما أن لدي أخشاب من ألواح العزل، ويفترض أن أصنع منها صالوناً للحديقة. ليس الأمر عاجلاً بالطبع، ولكن بما أن ريشار متوقف عن العمل...»

هذه المرة كشفتني. وكدتُ أسمعها تضحك في آخر الخط.

«معكِ حق. من الأفضل عدم ترك الحديقة هكذا. ثم إن ريشار

خبير بالعوازل الخشبية وبالخشب عموماً»

«هذا بالضبط ما قلته لنفسِي»

أعتقد أننا كنا نستمتع بالقدر نفسه بالمحادثة.

سمعتُ ريشار خلفها يسأل:

«ما الذي حدث؟ هل تحتاج إلى مساعدة؟»

وأنا تعلن:

«سأتركك تكلمها لكي تشرح لك بنفسها»

عندما ودّعني، كان صوتها مغلفاً بالمكر:

«إلى لقاء قريب يا أماندا. واعتني بنفسك جيداً»

ثم سمعت جلبة في الهاتف ودوى صوت ريشار جلياً وفرحاً على نحو مذهش.

«أماندا، كيف حالك؟»

«بخير. وأنت؟»

«أنا ممتاز»

آه! يا للكاذب الجميل... من يسمعه هل سيصدق أنه في إجازة مرضية من العمل بسبب حالة اكتئاب؟

«ما الذي حدث؟» سأل بقلق.

لقد نجحتُ في الإيقاع به. لأن نقطة ضعف ريشار وأكبر مزاياه، هي الإسراع للمساعدة.

«تعرضتُ للسقوط. لدي التواء في الرسغ. طلب مني الطبيب أن أريحه راحة تامة. المشكلة هي أن لدي أعمال باشرتُ بها في الحديقة وفي أمكنة أخرى... أعلم بأنك تبذل جهداً شاقاً، لكنني تساءلت إذا ما كان بمقدورك أن تأتي في إحدى عطلات نهاية الأسبوع...»

«أوه... أنا في إجازة حالياً»

«حقاً؟»

«نعم. لذلك يمكنني المجيء دون انتظار نهاية الأسبوع»

«كما تشاء...»

لبثت صامته بضع ثوان. يبدو أن ريشار كان يفكر.

«بعد ظهر الغد لدي موعد مع طبيب، لكنني أستطيع الانطلاق في

المساء نفسه»

«لا داع للاستعجال. لا يوجد شيء طارئ»

«بعد غدٍ إذن. أستطيع المغادرة في أول الصباح. سأكون عندك

حوالي الظهر. هل هذا يناسبك؟»

«بالطبع، سيكون ذلك مثالياً»

«هل أحضر لك أدوية؟ كريم مضاد التهاب مثلاً؟»

«لدي كل ما أحتاج إليه»

«حسناً. إذن سيكون الأمر كما اتفقنا»

أضفت على عجل:

«أحضر معك ملابس لا تتسخ بسهولة. قد يكون هناك عمل في

الحديقة»

«حسناً»

«ومنشار كهربائي إذا كان لديك. لدي عوازل خشبية أحتاج أن

تقطعها لي»

«سأحضر لك منشاري مع آلة جليخ»

«ممتاز»

«هل من شيء آخر؟»

«أحضر لنفسك بيجاما وفرشاة أسنان. قد يتطلب الأمر بضعة أيام.»

ضحك. لقد استطعتُ أن أضحك ريشار.

كذبتُ وعليّ أن أتحمّل المسؤولية. يجب أولاً أن ألفَ رَسْغَ يدي اليمنى بطريقة مقنّعة، وأن أعتاد على عدم استخدامها كثيراً، نظراً للألم الذي يفترض أن يسببه ذلك. ثم أخشاب العزل التي زعمتُ أنها بحوزتي في المنزل، عليّ أن أسرع لجلبها. أمامي يوم للقيام بذلك، لا أكثر. لحسن الحظ أن جوليا دلتني على معمل يبعد عشرين كيلومتراً من المنزل يمكن العثور فيه على أخشاب عزل. اتجهت إلى هناك منذ صباح اليوم التالي.

«كم تحتاجين منها يا سيدتي؟»

شعرت ببعض الارتباك:

«حوالي عشرين منها... على الأقل...»

«بسيارتك؟»

كان يسخر والسيجارة في فمه. معه حق.

«أستطيع القيام برحلتَي ذهاب وإياب»

«سيلزمك أكثر من رحلتي ذهاب وإياب»

لبثتُ مرتبكة، وشعر بذلك.

«هل تسكنين بعيداً؟»

«على بعد نحو عشرين كيلومتراً»

«بأي اتجاه؟»

«باتجاه سيسا»

بصق السيارة وحكّ جذعه.

مكتبة

t.me/soramnqraa

«ما سنفعله في هذه الحالة أنت ستحملين معك بقدر ما تستوعبه سيارتك من العوازل، وأنا أسلمك الباقي هذا المساء في طريق عودتي إلى بيتي. لدي شاحنة بضائع. أنا من سانتور. مكان سكنك يقع على طريقي»

لم أعد أعرف ما أقول. لكنه أصر:

«هل اتفقنا أم لا؟»

«شكراً لك... لكن القصة هي أنني لم أكن أرغب بالازعاج»

«قلت لك بأنك على طريقي»

«حسناً... أشكرك»

أشار بحركة من رأسه إلى سيارتي وأضاف:

«اطور المقاعد، سأجلب لك الأخشاب»

كدّسنا أربعة منها في الجانب الخلفي من سيارتي بعد طي المقاعد. أربعة منها لا غير.

«لقد قلت لك ذلك. سيارتك أصغر كثيراً من أن تنفي بالغرض»

«صحيح...»

«اكتبي لي عنوانك..»

كتبته له على قطعة ورق أخرجها من جيبه.

«لن يتم الأمر قبل عشرين ساعة» قال محذراً.

«لا بأس»

بدا وجه ريشار متعباً وملامحه مشدودة رغم الجهود الهائلة التي كان يبذلها لكي يثبت لي أنه بأحسن حال.

استقبلته عند خروجه من السيارة وساعدته على إخراج حقيبة سفره من صندوق السيارة الخلفي.

«هل كانت الرحلة جيدة؟»

«دعيني أحملها، ستؤذين نفسك»

نسيت أن رسني مصاب رغم وجود ضماد يوحى بأنه احترافي، أعدته أربع مرات لكي أحصل على نتيجة مشابهة.

«كيف تعرضت لهذه الإصابة؟»

«تعثرت قدمي بجذر شجرة»

«كان ممكناً أن تكون الأذية أسوأ. أن يفتح جبينك مثلاً»

«أنقذني معصما يدي»

أمسكت له الباب لكي يدخل. كانت القطة الرمادية هناك ترصد وصوله.

«يمكنك وضع حقبتك في غرفة نومي. ستنام هناك»

«وماذا عنك؟ أين ستنامين؟»

«في الصالون. لدي الآن مقعد طويل يمكن تحويله إلى سرير...»

لكن ريشار لم يكن يرى الأمر من هذه الزاوية.

«لا، هذا غير وارد. اتركي لي المقعد الطويل»

«فات الأوان. وضعت لك الملاءات هناك»

لكن ريشار لم يذعن. تتكون حججه من شقين: لا تدع امرأة تنام على المقعد أبداً. لا تدع امرأة مصابة تؤذي ظهرها على مقعد. لم يسألني أساساً عن رأيي، بل اندفع بالفعل نحو الصالون.

«وأعددت الطعام أيضاً، رغم إصابتك؟»

أخذ يتنشق رائحة الريزوتو الذي أعدت تسخينه على نار خفيفة. رسمت على وجهي، في اضطراري للكذب، مظهر المغلوب على أمره.

«هل كنت ستعمل ببطن فارغة؟»

أخذ يتفحص غرفة معيشتي: المقعد الطويل الجديد ذو اللون المتنافر مع الألوان المحيطة، الورقة البيضاء على الحائط، التي كتب عليها «/احتفلي»، والحديقة من خلال النافذة.

«شيء جميل، كل هذه الألوان...»

«نعم. أرايت...»

أخذ يحرق باتجاه شجرة بول ذات الألف شريط وشريط، وفوجئت بابتسامته. ابتسامة حزينة غير موجهة إلى أحد.

«هل أقدم لك مشروباً فاتحاً للشهية؟ لدي نبيذ بورتو ونبيذ أبيض

حلو...»

«نبيذ أبيض، بكل سرور. ولكن اجلسي أنت. أنا سأسكب لي ولك»

تركته يفعل. لفترة من الوقت على الأقل. بدا سعيداً جداً لأنه يقدم

لي هذا العون الصغير.

راح ريشار يتحرك في مطبخي. لم يكتف بتقديم المشروبات، بل

أراد تجهيز المائدة، وتحريك الريزوتو، وسقاية شجيرة التين.

«اجلس. الأمور جيدة وأنا لست مشغولة تماماً. لقد سقيت شجرة

التين هذا الصباح»

عندها توقفت محرجاً، فابتسمت له.

«هيا، تعال واشرب كأساً»

أعتقد أنني لم أخطئ. لقد كان بحاجة للشعور بأنه مفيد، لنسيان همومه في العمل.

شرينا نبيذنا الأبيض الحلو ونحن نتحدث بشكل رئيسي عن ماي. الصغيرة التي تنام مثل الملاك ولا تبكي أبداً تقريباً، والتي بدأت تكتسب شخصية، وبدأ صوتها يصبح مسموعاً. زعمت كاسندرا أنها، في العمر نفسه، كانت مثلها. تذكرتُ عندئذٍ الحديث الذي جرى بيني وبينها، في منزل عائلة لوزان. باشرنا بتناول اليزوتو بينما أخذ ريشار يناقش خططي للأيام القادمة بشكل مباشر: صالون الحديقة، الشتلات، السقاية، كل المهام الصغيرة التي سيمنعني معصمي من القيام بها، حسب اعتقاده.

«واجهة منزلك الغربية مغطاة بالبلاب» أضاف «لقد رأيتها قبل قليل، سأزيله عنها»

«لكنني أحب اللباب...»

«سوف يمتد في النهاية ليغطي كل المنزل»

«إنه عازل جيد»

«كما تشائين»

رأيتُ جيداً بأنه يبحث عن أي مهمة يشغل نفسه بها، لذا قلتُ على الفور:

«هناك تلك الأرجوحة التي أريد أن أصنعها لأجل ماي، لتتدلى من فوق أغصان شجرة صنوبر. هل تظن أن باستطاعتك مساعدتي بذلك؟»
«بالطبع»

«أفكر أيضاً بإعادة طلاء مصاريع النوافذ. إنها ذات لون بني حزين ومتقشر. ما رأيك باللون الأخضر، الأخضر التفاحي الجميل؟»

أوما ريشار برأسه، وهو يأكل حصته من الريزوتو.
«هناك أيضاً مظلة السيدة هيوغ، التي كنت أرغب في إعادة طلائها
بلون وردي. كما أود أن أصنع فزاعة لإبعاد الطيور عن الحديقة»
التمعت عيناه. أعتقد بأنه لن يغادر عما قريب.
«سنتهي الوجبة ونباشر العمل» أعلن.

جهزتُ الراديو الصغير المحمول. تمددت القطة الرمادية بكامل
طولها في ظل الصفصاف الباكي. كان الطقس مشرقاً بالجمال، والحرارة
ريعية. جررتُ عربة اليد الحمراء الممتلئة بكل معدات البستنة، أمام
احتجاجات ريشار:

«دعي عنك هذا، سوف تؤذين نفسك»
تناولتُ أكياس البذور وانحنيتُ أمام التراب المكوم. سوف نبذر
الفجل اليوم. كان ريشار يصغي بعناية إلى تعليماتي: يحفر الأرض
بعناية، ويصنع أخاديد طويلة يبعد كل منها ثلاثين سنتيمتراً عن الآخر،
ثم أقوم بإثرائها بسماد منزلي الصنع قبل أن يقوم ريشار بوضع البذور
المحمرة فيها، على شكل خط. كان ريشار يحفر ويجتهد في صنع
الأخاديد وأقوم أنا بخلط سماد طبيعي من الكومبوست الطازج وبقايا
القهوة وقشور البيض، ثم أصب الخليط، وينثر ريشار البذور.
«هكذا؟»

«ممتاز. الآن سنهيل فوقها التراب بسماكة سنتيمتر واحد ونضغطه
برفق. سوف نسقي بعد ذلك»

لقد استوعبتُ جيداً تعليمات دليل البستاني المثالي إلى درجة أنني
أشعر وكأنني كنت أقوم بهذا العمل طوال حياتي. تولى ريشار مسؤولية
ملء دلاء الري وحملها بين الحديقة والمزبل جيئةً وذهاباً.

«يجدر بك التفكير بشراء خرطوم مياه...»

معه حق بالطبع، لكنني أظن أنني أفضل الجانب المرهق قليلاً والأصيل للري اليدوي.

سأصنع لي ولك نقيعاً مثلجاً. في الخارج، وعلى وقع أغاني أرنافور، أخذ ريشار يسقي بقية الحديقة.

«والآن؟»

تركْتُ وعاء النقيع يبرد في الثلاجة، وفي أثناء ذلك فرشنا طبقة من السماد والأوراق فوق مواضع البذار، قبل أن نبدأ العمل على أخشاب العزل وعلى مشروع صالون الحديقة.

«هل في ذهنك مخطط؟»

أرسلت لي جوليا صورة، سأريك إياها، يظهر فيها مقعد له زاوية، مصنوع من أخشاب عزل مصقولة ومطلية باللون الأبيض ووضعت عليها وسادة بلون أزرق سماوي جميل. بخصوص الطاولة، الموضوع أبسط: كدست ثلاثة عوازل خشبية وألصق أحدها بالآخر، ثم ثبت لوح زجاجي فوقها. رأيت أن ريشار أعجب بالنتيجة وتحمس لهذا المشروع.

«أتظنين أن باستطاعتي المباشرة به الآن؟»

- أنت من يقرر...

- حسناً... سأخرج منشاري»

لم نثرثر كثيراً هذا المساء. ما أن جلسنا إلى المائدة، بعد أخذ حمام وارتداء ثياب نظيفة، حلَّ علينا التعب. كان الراديو يبث موجة أخبار استمعنا إليها بشرود. راح ريشار يتناول طعامه بنظرة سارحة في الفراغ. وعند تقديم كومبوت التفاح، خرج بغتة عن صمته:

«ألا يجدر بنا تركيب عجلات لطاولة الحديقة؟ هذا سيسهل عليك تحريكها»

كنت سارحة بعيداً جداً عن صالون حديقتي فاستغرق الأمر مني بضع دقائق لكي أرد.

«نعم... نعم، إنها فكرة جيدة»

أضفنا هذه المهمة إلى قائمة مهام اليوم التالي. بعد تناول القهوة، شعرت أنه أصبح مرهقاً أكثر فأكثر فاقترحت عليه أن يستخدم غرفة المعيشة كما يحلو له ريثما أعود إلى غرفة نومي، ومعى القطة الرمادية. حاولت الاستغراق لبعض الوقت في قراءة إحدى رواياتي القديمة، لكن ذهني الشارد لم يساعد على القراءة. أعتقد بأنني التقطت الليلة عدوى اكتئاب ريشار. أطفأت مصباح السرير وسحبْتُ الغطاء إلى أسفل ذقني. وعندما وضعت رأسي على الوسادة، فكرتُ ب ريشار في غرفة المعيشة، وباكتابه غير العادي الذي عرفته أنا أيضاً، قبل بضعة شهور، عندما كنت أنتقل على غير هدى، من غرفة إلى أخرى، محشوة بالحبوب المنومة، وقد أغلقت جميع مصاريع النوافذ. لكنني كنت أثق بمنزلي، بهدوئه، وسحره، أثق بشرائط الألوان في الأشجار، برنين أجراس الريح الناعمة في الصفصافة الباكية، برائحة الهندباء التي تجتاح العشب. سوف يشعر، مثلي، بالتخفف في نهاية المطاف.

ما الذي يمكن قوله عن أيام ريشار الأولى في منزلي؟ سيكون التقييم ملتبساً على ما أعتقد. كنا نتبع الطقوس نفسها تقريباً كل يوم: الإفطار في مطبخي الذي تغمره الشمس، ورائحة قهوة وخبز محمص تعبق في الهواء، والقطة الرمادية التي تلعق بقايا المربى على ملعقتينا، وعيوننا التي تشخص نحو الحديقة، والأشرطة التي تتراقص في الريح. نفحة من

السعادة الهادئة. في تلك اللحظة، كانت تراودني بشكل يومي، الفكرة نفسها: ريشار سيتعافى. وخلال تلك الدقائق كان حديثنا يدور دائماً عن بنجامان. هل أخبرتك عن اليوم الذي أجبرته فيه أن يقص شعره؟ ابتسم. قال بأنه لا يكثر، وأن شعره سينمو من جديد وأني لن أستطيع أن أقول له شيئاً.

بعد الإفطار ذهبنا إلى العمل. قمنا بزيارة إلى متاجر الخردوات. حددنا المواضيع التي يلزمها براغي ومثقاب كهربائي، أخذنا قياسات لوح الزجاج، اخترنا الوسادة لمقعد الحديقة. قمنا بتحميل لوح الزجاج الضخم مربع الشكل، وثبتناه بحبال في مؤخر السيارة، بعد فتح سقفها جزئياً. وفي اليوم التالي، بدأنا ببناء صالون الحديقة. منعي ريشار من حمل أي شيء، لذلك ركزت على مهمة طلاء المصاريح، التي استغرقت مني يوماً كاملاً. رحت أطهو وصفات طعام، وأعدّ نقائع أعشاب. عندما انتقل ريشار إلى مرحلة صقل الأخشاب، وافق أخيراً أن يشاركني في العمل، فكنّثُ أثبت الخشب، وهو يُعمل آلة الجلخ. قمنا بطلاء الأخشاب في أزواج. وفي فترة بعد الظهر، كنا نخرج دائماً للتنزه في الحديقة. نفتلح عشبة ضارة. نجسّ التراب. نسقي إذا لزم الأمر. نقوم ورقة نبات، أو ساق نبات آخر. نشجع كل هذه النباتات التي تتفتح برشاقة. كان ريشار منخرطاً في الأمر بقدر انخراطي. ومع غروب الشمس كنا نعود إلى المنزل. وكلما اقترب المساء، نصبح عموماً أكثر ميلاً إلى الصمت، وينغلق ريشار على نفسه. فكرتُ بشجرة الصنوبر المقدسة، وبالكلمات التي كنت أتمنى أن أهمس بها لبنجامان قبل العودة إلى المنزل لتناول العشاء. اختلف الأمر عما كان عليه مع أمي، عند تواجدها هنا. كانت كل منا تترك مسافة بينها وبين الأخرى. أما

ريشار، فلا أجرؤ على تركه بمفرده في الحديقة، ولو لعشر دقائق. أعتقد أنه قد يشعر بالقلق. كان يتوهم أنه يرعاني، وأنا أتوهم أنني أرحاه. عند المساء لم نكن نلعب الورق، كما كان الحال مع أمي. لأننا عندما ننتهي من شرب قهوتنا، حوالي الساعة الثامنة والنصف، يكون ريشار مرهقاً. كنت متأكدة من أنه يأوي إلى السرير على الفور. ربما لم يكن يستطيع النوم؟ ربما يحتاج إلى ابتلاع حبة منومة؟ أم أنه كان يتقلب في السرير لساعات؟ على أية حال ونظراً للصمت في غرفة المعيشة، كنت أفترض بأنه يطفئ الأضواء فور مغادرتي إلى غرفتي. كنت أقرأ وأعيد قراءة روايات قرأتها في السابق، فأجد فيها معنى مختلفاً، وكأن تصوراتي قد تغيرت، وكأنني لم أعد كما كنت. وقبل أن أغفو، أنظر إلى الليل في الخارج، إلى القمر الذي يقترب من اكتماله. كيف سأقدم فكرة المأدبة الليلية هذه إلى ريشار؟ لا أستطيع التراجع. لقد وعدت... في ذلك اليوم لاحظت حقاً بأن أعراض القنوط أصابته في وقت أبكر من المعتاد، مع وجبة الغداء التي نتناولها على عجل. اليوم سيكتمل العمل في صالون الحديقة، ولا يبقى أمامنا سوى عملية لحام اللوح الزجاجي العلوي من الطاولة. كنا نأكل طبقاً من المعكرونة مع صلصة الطماطم على أمل العودة إليها بسرعة، حين رأيت وجه ريشار يتوتر أثناء تناول طبقه.

«هل أنت بخير؟»

أجابني بابتسامة لم تكن لتخدعني.

«خذ استراحة بعد ظهر اليوم. لدينا كل الوقت. أستطيع إنهاء العمل

بمفردي»

نسيْتُ منذ يومين أن ألف رسغي من جديد بالضما، لكنني لست متأكدة من أن ريشار لاحظ ذلك.

«لا، سوف أتكفل بالأمر»

لم يصف حرفاً. واصلَ تناول طعامه، بينما اكتفيتُ من الأكل، ولم أعرف ماذا أقول. وعند تنظيف الطاولة، أُجريتُ مقارنة جديدة للموضوع:

«لم تعد يدي تؤلمني... إذا أردتِ العودة إلى آنا والآخرين، سأفهم الأمر»

هز رأسه وتشنجت ملامحه حتى شعرتُ بأنه على وشك البكاء.
«عندما طلبتُ منك المجيء، كانت رغبتني هي أن ترتاح لا أن تُرهق نفسك...»

«أعرف»

بدا صوته أجش، لكنه سيطر على نفسه.
«ظننتُ أن هدوء المنزل سيكون مفيداً لك. إنني آسفة...»
«أجد صعوبة في تقبل فكرة ابتعادي عن المقبرة»
«أنا آسفة»

ساد صمتٌ وحاولت ابتلاع غصّتي.
«ما كان ينبغي لي أن آتي بك إلى هنا...»
«لا، المشكلة تكمن فيّ. إنه شيء غبي تماماً، لكنني اعتدتُ على الذهاب إلى هناك كل يوم. وكان الأمر يريحني، مع أنني لم أكن أفعل الكثير. فقط أبقى هناك لحظة، واقفاً. شيء غبي»
«لا، ليس كذلك...»

« كان الأمر يُشعرني بالسلام، مع أنني لا أواجه غير لوح حجري أبيض... »

تركْتُ الأطباق المتسخة في الحوض. لمتُ نفسي. فكرتُ أنه كان يجب أن أفكر بذلك من قبل.

« تعال يا ريشار، سأريك شيئاً »

قطَّب حاجبيه، لكنني أشرتُ له نحو باب المنزل من جديد.

« أنا أيضاً أفعل أشياء غبية، تعال »

ارتديت حذائي البلاستيكي عند عتبة الباب، وارتدى ريشار حذاء رياضياً ملطخاً بالطين. بدا عجوزاً جداً بوجهه الشاحب. رجل عجوز.

« انتبه إلى الجذور. هذا هو المكان الذي سقطت فيه. »

ذهبتُ به إلى الجانب الخلفي من المنزل، وأنا أمشي بسرعة، ربما بسرعة كبيرة بالنسبة له. دخلنا في أول الغابة. أصبح الصمت أكثر غموضاً. لم يكن هنا ك شيء مسموع سوى صدى خطواتنا وأنفاسنا المتقطعة.

« إلى أين نذهب؟ »

« إلى شجرة الصنوبر المقدسة »

« شجرة الصنوبر المقدسة؟ »

أسرعتُ الخطى. لا توجد كلمة تصف هذا المكان وفق تصوري له. فضلتُ أن يفهم ذلك بنفسه. سنصل قريباً إلى الشجرة.

« أوه! » هتف ريشار حين اكتشف التيجان والأكاليل المصنوعة من أزهار مجففة، والكرسي الصغير المغطى بوسادة، والدمية المصنوعة من قماش، أسفل الجذع، وهي آخر لمسة شخصية من قبلي. « ما هذا؟ »

«هذا هو المكان الذي أتحدث إليه فيه»

أخذ ينظر، بعينين مبجلتين إلى شجرة الصنوبر، ثم ينظر إلي دون أن يفهم.

«الإنسان يعتاد على الأشياء كما تعلم. الشجرة أكثر حياة من الحجر، إنها تضج بالحياة، بالنسغ، بالنمل...»

بدا ضائعاً بعض الشيء أمام شجرتي. أخذ جفناه يرمشان. حاولت عيناها التقاط كل الألوان.

«هل ترى تجويف الجذع في الأعلى؟»

«نعم»

«لقد أودعته محبسي وسواري البرازيلي. كما لو أن بنجامان يرقد هنا، هل تفهمني؟»

لا أدري ما إذا كان ريشار يفهم. بدا في تلك اللحظة بهيئة أقرب إلى صبي صغير، لا إلى رجل عجوز. عندها بدأت أتكلم وأتكلم، دون أن أعرف سبباً سوى أنني، بعد أن كشفتُ له سري، لم يعد لدي أي سبب يجعلني أخفي عنه ما تبقى:

«اعتدتُ أن آتي إلى هنا للتحدث معه. أحياناً أحضر الراديو وأشغل قطعة موسيقية. ولكن هذا ليس كل شيء. فقد بدأت أحتفل بالريح في الأشجار بتعليق أدوات مطبخ وعلب كونسروة وأصداف بحرية، على أغصانها. احتفلت بمولد ماي ومولد ملفوفاتي بواسطة تقطيع ملاءاتي إلى شرائط وتعليقها في شجرة الصفصاف الباكي. بدأتُ أشعل الشموع في نافذتي لأي سبب. وأخاطب الخضروات ولحاء الجذوع وحتى أخاطب القمر. بالإضافة إلى ذلك، هل تعلم أنني الآن أصبحتُ أحتفل بالقمر عند اكتماله. لقد خططت لإقامة مأدبة للاحتفال بالبدر

القادم، والذي سيجري بعد ثلاثة أيام. وليمة في ضوء القمر، تحت شجرة الصفصاف الباكي. كنت خائفة من مفاتحتك بشأن ذلك. إنه شيء غبي، أليس كذلك؟ لكل منا إيمانه وطقوسه...»

توقفتُ برهة قصيرة لكي أرى نظرتَه. كان ريشار ينظر إلي بفم مفتوح، عاجزاً عن الكلام.

«أنت وأنا، لديكما الكنيسة والأمل بالجنة، أليس كذلك؟ أنا لدي هذه الأشياء: التراب والأشجار والنباتات التي تولد وتموت، ولكنها تعود وتولد ثانية. لدي الريح التي تغني وترقص شرائط الألوان المعلقة على الأغصان. أحتفل بالحياة بكل أشكالها، وأؤمن بأن بن مختبئ في جذع شجرة صنوبر. ليس لهذا أي معنى، وفي الوقت نفسه، له معنى كبير. كل ما أعرفه هو أن هذا، أقسم لك، يُشعرني بالراحة»

أخذ ريشار يضحك. هتفتُ محتجة:

«ما كان يجب أن أقسم أمامك»

ضحك أكثر. جاء عصفوران ليحطا على غصن فوقنا تماماً. زوج من طيور أبي الحناء، مكورين، صغيرين وفخورين، ينظران إلينا بفضول.

«لو لم تكن هنا، لتحدثتُ إليهما»

ابتسم ريشار. لمستُ تماماً أنه مذهول ولا يجد الكلمات، لذلك أعلنت:

«سأتركك هنا، اتفقنا؟ يمكنك الجلوس على الكرسي، فهذا هو الغرض منه. إذا كنت تخشى ألا تعثر على طريق العودة، يمكنكني وضع علامات استدلال من أقماع الصنوبر...»

لكن ريشار هز رأسه:

«يفترض أن أعثر عليه، شكراً»

عند ذلك انزلتُ على أطراف أصابعي، متخففةً من حملٍ هائل.
كنتُ أخمّنُ بأنه لن يعود في الحال. لقد مر عليه وقت من الحرمان
يجب أن يعوّضه بعد أن أمضى عدة أيام لم يتمكن خلالها من زيارة
القبر. ذهبت لكي أتفقد أزهارِي: الزنبق، الجاسنت، اللحلاح والنرجس.
ستفتح في غضون أسابيع قليلة. بل ربما لن يحتاج الأمر إلا لأيام. في
الوقت الحالي، لا تزال مغلقة وهشة، ولكن يمكن لمن ينظر أن يستشف
ألوانها، وخاصةً اللون الأرجواني الرقيق لزهرة اللحلاح. ماذا سأفعل
بكل هذه الزهور؟ بكل هذه الألوان؟ هل أصنع منها تيجاناً، أم سلالاً
صغيرة أدفع بها فوق ساقية ماء وأتركها تمضي احتفالاً بالربيع. أخذ
قلبي ينبض بسرعة. نعم، هذا هو. عيد الربيع. أسراب من الزهور التي
سوف تنجرف، فتسحر عيوناً أخرى. وصلتُ إلى المنزل بهذا الشعور
بالإثارة في صدري.

قمت بإعداد حساء، وقد فتحتُ أمامي أحد تقاويم السيدة هيوغ.
حساء اللفت القشديّ. كان الراديو يبث صوت جاك بريل. الوقت
نوعان: وقت للانتظار ووقت للأمل. ثم تداخل صوت ريشار مع صوت
بريل:

«لقد سُرِق محبس زواجك وسوارك»
التفتُ مدهوشةً وكدت أجرح إبهامي، لأكتشف وجه ريشار، مختلفاً
تماماً عن الوجه الذي رأيته قبل ساعة فقط. الدموع غسّلت عينيه وأشياء
أخرى كثيرة أيضاً.

«محبس زواجك وسوارك اختفيا» أضاف.
«حقاً؟»

«إنهما زوج أبي الحناء»

«كيف عرفت ذلك؟»

«دخلنا في الفجوة بعد انصرافك مباشرة. وعند ذلك نظرتُ، فلم أجد شيئاً. لا يوجد سوى عش عصافير»

لا شك أنه كان يُفترض أن أغضب أو أبكي، أن أحزن لضياح ما يربطني بشكل حميم بـ بنجامان، لكنني ابتسمت. ابتسمتُ وأعلنت:
«قلت لك ذلك... الشجرة أكثر حياة من لوح الحجر»
في المساء نفسه، أعددتنا الطاولة في الخارج. كان ريشار هو صاحب الفكرة.

«لماذا ننتظر اكتمال القمر؟» قال.

أصبح المقعد المصنوع من العوازل الخشبية جاهزاً للجلوس عليه، ولُحم زجاج الطاولة. ارتجل ريشار توصيلةً كهربائيةً لكي نتمكن من رؤية أدوات المائدة، لكنني حذرت: لا مجال لاستخدام الكهرباء في مساء المأدبة، لأن استخدام الإضاءة الاصطناعية، سوف يُفقد اللحظة قدسيّتها.

تدثرنا ببطانيات ومعاطف قديمة، لأن الهواء في المنطقة لا يزال بارداً، حتى قبل أيام قليلة من حلول الربيع.
«لدي فكرة لأجل احتفالِك باكتمال القمر» قال ريشار أثناء تناول الحساء.

«حقاً؟»

«يمكنني أن أنحت شيئاً تضعينه عند شجرة الصنوبر المقدسة. ربما طوطم، أو شيء آخر لا أعرف ما قد يكون بعد»
«هل جلبت أدواتك؟»

«إنها موجودة دوماً في صندوق سيارتي»

«ستكون فكرة جيدة...»

«سوف نحمل المنحوتة إلى هناك، أسفل شجرة الصنوبر، عند

اكتمال القمر»

وافقت بحماسة. لقد أعجبتني تلك الفكرة، وكنت سعيدة بمشاركة

سرّ تصرفاتي الجنونية مع شخص ما. وسعيدة سعادة مضاعفة أن يكون

ريشار هو ذلك الشخص.

كنا، هذا الصباح، في أوج استعداداتنا لحفل اكتمال القمر، عندما بدأ هاتفي يهتز.

«تستطيعين الرد، وأنا أكمل العمل»

تناولتُ هاتفي المتروك في زاوية من الحجرة، وابتسمت. رسالة نصية من شخص ظننتُ بأنه لن يعود إلى الظهور.

هل تحتاجين إلى مساعدة في جز العشب، يا سيدة لوزان؟

«ريشار»

«نعم؟»

«هل لديك مانع أن أدعو شخصاً لحضور وليمتنا هذا المساء؟»

«لا، لا، بالطبع لا مانع... لديك زوار؟»

«قد يكون الأمر كذلك... شخصٌ كان يعرف بنجامان جيداً...»

قطب حاجبيه، لكنني لم أفصح أكثر. عدتُ إلى شاشة هاتفي. كنت متأكدة أن ريشار سيكون سعيداً بالتعرف على ميكا.

أهلاً ميكا. العشب تم جزه. ما رأيك بعشاءٍ ممل برفقة كبار؟ عندي شخص أود أن أعرفك عليه. ستكون التعرّف هي تعرفُ المرة الماضية نفسها، وسأقلُّك إلى المحطة في آخر المساء لكي تلحق بقطار العاشرة والنصف.

وعلى نحو أخرق، أضفتُ وجهاً باسمًا وعدت للانضمام إلى ريشار الذي يُعمل المقص.

«هل علينا أن نعود لنشتري بعض النبيذ؟» تساءل.

«ممم، لا أعتقد...»

قاطعتنا هزة جديدة من هاتفني.

لا بأس، ولكن هل أستطيع اصطحاب صديقتي إلى عشائك الممل؟

رفعت رأسي باتجاه ريشار المنهمك بعمله وأعلنتُ بهدوء:

«في النهاية، سنكون أربعة أشخاص حول المائدة»

لم يطرح ريشار أي سؤال، كان أكثر تهديباً من أن يفعل ذلك. أوماً برأسه، وابتسمتُ. أعتقد أنني اتخذتُ الخيار المناسب.

في ذهني، كان من المفترض أن تكون وليمة ضوء القمر هذه، عشاءً على انفراد. لحظة تواصل روحي. فسحة مقدسة، تنطوي على شيء من الرهبة. ولكن الحياة قررت خلاف ذلك...

في نهاية اليوم ذهبْتُ بمفردي لاستقبال ميكا وصديقتي في محطة قطار كليرمون فيران. حرصَ ريشار على المضي قدماً في مشروع الأرجوحة. اختار شجرة صنوبر ذات أغصان ثخينة بما يكفي لحمل وزن ماي حتى تبلغ السادسة من عمرها على الأقل. عثر على لوح خشبي في عليّة منزلي، من بقايا مصراع نافذة قديم، وعمل على صنفرتي وتقطيعه. بدأت الشمس تغرب، لكن لا يزال أمامنا ساعتين كاملتين ننعم خلالهما بضوء النهار. وضعت الفواكه في أوعية فضية جميلة، عثرت عليها في خزانة السيدة هيوغ، ولكن زيارة ميكا وصديقتي، أوجبت عليّ أن أضيف إلى فاكهتي، أكياساً من رقائق البطاطس والبيتزا المجمدة وزجاجة كوكاكولا.

رأيتُهما على الفور وأنا أركن سيارتي أمام بوابات المحطة، الزجاجية. ميكا بشعره البني النحاسي الفوضوي، والذي يبدو أنه ازداد طولاً عشرة سنتيمترات أخرى، وبجانبه شابة جميلة ذات شعر أسود وبشرة فاتحة للغاية، ترتدي فستاناً أسود مكشكشاً من طراز قوطي معدّل. كان ميكا يضع يده حول وسطها، لكنه أفلتَها عندما رأيَني.

«مرحباً سيدة لوزان»

«مرحباً ميكا»

التفتُ نحو الشابة التي مدت لي يدها بخجل.

«هذه لولا» قال لي ميكا «مغنيّةٌ مجموعتنا»

أخذ يحدق إليّ بقلق، وابتسمتُ للشابة.

«سُعدت بلقائك يا لولا»

تذكرتُ تماماً ما قاله ميكا في المرة الماضية بخصوص لولا: كانت تريد المجيء، لكنها قالت أن هذا لا يصحّ... لأنها لا تعرفكِ. - كان ينبغي عليك أن تخبرني. بالطبع يمكنها أن تأتي. - كانت أيضاً مغرمة قليلاً بـ بنجامان

سرّني أن أرى أنها اليوم لم تعد خائفة من لقائي، وأنها وجدت في ميكا حبيباً جديداً.

«تعالا، اصعدا إلى السيارة. يمكنك وضع حقيبة ظهركِ في صندوق

السيارة...»

أصبح ميكا أكثر هدوءاً من المرات السابقة. أكثر هدوءاً، وأكثر نضجاً، لأنه الآن عاشقٌ جلس كلاهما في المقعد الخلفي، وتركاني في المقدمة أمارس دور سائق سيارة أجرة.

في المرآة العاكسة، رأيتُ يده فوق ركةِ الشابة، ونظراتهما التي تتقاطع بانتظام، وابتساماتهما المتواطئة. انقبض قلبي قليلاً. ليس لأنني غير سعيدة برؤيتهما عاشقين. إنه شيء آخر... ربما هو الوحدة التي يذكّرني بها هذا العشق.

«هل أنتما في إجازة؟ طرحَ السؤال لفتح حديث»
«لا، سيدة لوزان، نحن عائدان للتو من إجازة الشتاء»
«حقاً؟»

«نعم، إجازة فبراير. استأنفنا الدراسة منذ أسبوعين»
«كنتُ خارج الزمن كلياً...»
«هل تزلجتما على الثلج؟»
«لا. التزلج للبرجوازيين...»
«آه... بقيتما إذن في ليون؟»
«نعم»

«جهزنا لعرض عيد الموسيقى. هل تعرفين ماذا نُعدّ؟»
«لا...»

«نتمرن على مقطوعات لفرقة كرانبيريز. هل تعرفينها؟»
«قليلاً. إنها من أيامي...»
«حقاً؟»

بدا ميكا خائباً حين علم بذلك. كتمتُ ضحكتي. أما لولا فقد بقيت صامته. أظن بأنها لا تزال تتهيئني إلى حد ما.
«أنت تغنين إذن بالإنكليزية؟»
«بوغتُ قليلاً وعلتُ خديها بقعتان ورديتان.

«أنا؟»

«نعم»

«أه... نعم... أحاول ذلك في الحقيقة...»

«إنها تُظهر التواضع» تدخل ميكا بقوة «السيدة سميث قالت عنها بأنها موهوبة بالإنكليزية»

«السيدة سميث؟»

«أستاذة اللغة الإنكليزية»

أخذت لولا تهمس بشيء ما يشبه:

«هي لم تقل بأنني موهوبة، بل قالت ماهرة»
تلا ذلك شجار:

«كلمة ماهرة لا تعني شيئاً!» تعجب ميكا

«بلى، إنها تعني أنني أتكلم الإنكليزية بارتياح، ولا تعني بأنني أتكلم إنكليزية ممتازة»

«إنه الشيء نفسه»

«لا، ليس نفسه»

«أنت مزعجة عند الحط من قدر نفسك»

«أنا لا أخط من قدر نفسي»

«بلى، تفعلين. أنا أقول بأنك موهوبة. هذا كل ما في الأمر»

عاد ميكا للنظر إلى الطريق وهزت لولا رأسها، بخدين متوردين قليلاً، وشعور كاذب بالغيظ. قمتُ أنا خفية برفع صوت الراديو، وأخفيتُ ابتسامتي.

«من هو ضيفك؟» سأل ميكا بعد بضعة كيلومترات أخرى.

«أحسنَت السؤال... كدْتُ أنسى أن أخبرك»
شغلْتُ مؤشر الانعطاف وسلكتُ الطريق الصغير نحو الريف.
«إنه والد بنجامان»
«حقاً؟»

فتح ميكاً عينيه على وسعهما، متفاجئاً.
«ما الذي يفعله عندك؟»
«يرتاح. كان متعباً قليلاً»
«آها»

«يساعدني أيضاً ببعض الأعمال»
عاد الصمت ليخيم في السيارة. هز ميكاً رأسه بصمت، ولم تنبس
لولا بحرف.
خطر لي أنه سيكون سعيداً بلقائكما وسماعكما تتكلمان عن بيت
الشباب والثقافة.

«اطمئني من هذه الناحية. ستسمعين الكثير من الكلام»
في مرآتي العاكسة رأيت وجه لولا يؤيد بخجل.
سألت: «حقاً؟»

«الإشراف من سيء إلى أسوأ، كتبنا عريضة لطرد المشرف الجديد،
حصلنا على اثنين وأربعين توقيعاً»
«حقاً؟ ماذا فعل؟»

«لا يمكنك أن تتخيلي ما الذي اقترحه على مجموعة الكورال!»
أيدت لولا كلامه بهيئة مصدومة.
«هل أراد حلَّ الكورال؟»

«لا، أسوأ من ذلك»

«أسوأ! لا أفهم...»

«أراد أن تنشُد فرقة الكورال ترانيل كنسية خاصة بالقداس»

كررتُ وأنا أكبر بصعوبة أكبر، شعوري بالاستطراف:

«خاصة بالقداس؟»

عندها تدخلت لولا للمرة الأولى بصوتٍ مرعوب:

«يريدهم أن ينشدوا هلوليا، المجد لك»

وجّه ميكاً يده إلى صدغه، كمن يوجه فوهة مسدس. لم أعد أستطيع كبح الضحكة، فانطلقت مفلتةً من بين شفتي. رددتُ لولا كَمَنْ لا يصدّق:

«هلوليا، المجد لك.»

دوّت ضحكةً بنجامان بدورها في أذني. ضحكته التي أحبها كثيراً، والتي تنطلق من بعيد جداً، من عمق أحشائه. أ تسمعين يا بوبيت؟ أليس هذا تدنيساً للمقدسات؟ وأخذت أضحك معه، بينما بدا الشابان في الخلف، متجهمين.

خرجنا، نحن الثلاثة، من السيارة. جاء ريشار للقائنا، وفوجئ برؤيتي برفقة شابين مراهقين قائلًا:

«مرحباً»

مد لهما يده.

«هذا ميكاً وصديقه لولا. لقد عرفا بنجامان في بيت الشباب والثقافة. شاركنا في صنع فيديو مونتاج عنه في عيد الميلاد الماضي، ووضعنا لوحة باسمه على باب صالة الموسيقى»

صافح ميكاً يد ريشار برصانة. بدا لي ريشار مرتبكاً قليلاً، وقد عاد التأثير ليهيمن عليه. كان يجدر بي أن أحذره. كان يجدر بي أن أخبره بشأن اللوحة الأمامية لصالة الموسيقى، وكذلك بشأن الفيديو. لماذا لم أفكر بهذا؟

«مرحباً يا سيدي»

صافحته لولا بدورها، بخجل أكبر وبقبضة هشة. لبث ريشار عاجزاً عن الكلام. لا أعلم إذا كان غاضباً مني أم أنه متأثر وحسب. أفضل أن أترك له الوقت لكي يتمالك نفسه، لذلك دعوت الاثنين الآخرين للدخول وأنا أشير لهما نحو باب منزلي، وأعلنت:

«هل تريدان الدخول لوضع أغراضكما؟ سأسكب لكما مشروباً»

تبعني الشابان لكن ميكاً ظل ينظر إلى ريشار وحبلة الذي يترك في العشب أثراً مائلاً إلى البياض.

«ما الذي يخترعه؟»

«أرجوحة لأجل ماي»

«ماي؟ ومن تكون هذه؟»

«ابنة شقيق بنجامان. حفيدة ريشار»

«أوه... آسف، ظننتُ أن...»

بحركة من يدي جعلتُ ميكاً يكف عن التلعثم. دخلنا إلى غرفة معيشتي. تركت النوافذ مفتوحة للسماح لرائحة الربيع بالدخول إلى كل أرجاء منزلي.

«ماذا أصب لكما؟ كوكا؟»

وافقت لولا، لكن ميكاً ذهب للوقوف أمام النافذة المفتوحة، ومن هناك راح يراقب ريشار وهو يمرر الحبل في خشبة مقعد الأرجوحة، ثم يعقده عقدة متينة.

« كيف سيتمكن من تعليق الأرجوحة؟ »

« سيصعد فوق السلم ويعلقها على غصن »

« هل تظنين أنه سينجح بمفرده في ذلك؟ ألن يحتاج إلى مساعدة؟ »

« اظن أنك تستطيع أن تذهب إليه وتسأله... »

أوما ميكاً راضياً. ها قد خرج قفزاً عبر النافذة، متلهفاً للعمل، نافذ الصبر إلى درجة اختصار الطريق وعدم الحروز عبر منزلي بكامله. أثبتته لولا بلطف لكنه كان قد أصبح أساساً في الخارج.

« لولا، هل أسكب لك الكوكاك؟ »

« نعم... أشكرك »

قدمتُ لها كأساً، وعرضتُ عليها الجلوس، وعندما ألقينا نظرة نحو الخارج، رأينا ميكاً يقف على السلم، ويلتقط طرف الحبل الذي يمدّه ريشار إليه.

« إنه لا يطبق الثبات في مكانه »، قالت بخجل.

أشرت لها باتجاه عتبة النافذة إلى الخارج:

« هل تريدان الانضمام إليهما؟ »

هزت كتفها، بشعور واضح بالحرَج لفكرة تزكّي بمفردي في المطبخ.

« أنا سأنشغل بتجهيز المائدة »، أضفتُ لطمأننتها.

ولكي أثبت لها ذلك، بدأت بتكديس عدد من الصحون على منضدة العمل.

بعد لحظات من ذلك كانت لولا عند جذع شجرة الصنوبر، جالسة القرفصاء بفستانها الأسود، تقطف زهور الربيع وتربطها بطريقة غريبة، لتصنع منها سواراً تضعه في معصمها، قبل أن تبدأ بصنع سوار آخر.

كانت تصلني من حين إلى آخر، إحدى ضحكاتها الطفولية الخجولة، ثم أرى ميكا، فخوراً مثل الديك، ومن أعلى السلم، يقوم بتقليد مضحك لشخص لا ندري من يكون. وأجمل ما في هذه اللوحة هو ريشار، الذي يمارس دور رئيس ورشة مرتك ولا يفهم حقاً ما يفعله هناك، لكنه مع ذلك يبتسم، بسعادة إلى حد ما.

تم إعداد الطاولة، ووضع الشموع. ارتدت لولا معطفاً وينطالاً من ثيابي، بالإضافة إلى زوج سميك من جوارب رمادية أقرضتها إياها. كان ميكا يزعم أنه لا يشعر بالبرد في سترته الجينز، لذلك رفض عرضي لإقراضه سترة. راقبته وهو يسحب من حقيبة ظهره علبة بيرة وكيساً من التبغ القابل لللف، مبتسماً مجدداً للمفاجآت التي تخبئها لنا الحياة.

قال: «ألا نُشعل ناراً؟ البيتزا المشوية لذيذة جداً»

أيدت لولا الفكرة. همس بنجامان في أذني متضحكاً، ضعي أكوابك الفضية جانباً، لقد انتهى زمنها. نظر إلي ريشار نظرة استشارة متشككة، فأعلنت أنه إذا كان أحد مستعداً لصنع ركن شواء محلي، خلال بضع دقائق، فأنا موافقة.

«صنع والدي ركن شواء باستخدام سخان ماء قديم»، قال لنا ميكا بكل جدية.

أنقذنا ريشار باقتراحه أن نشعل ناراً نضع فوقها واحداً من رفوف فرن الطهي، مسنوداً بالحجارة. لم يكن هناك من حاجة للمزيد لإشعال حماس ميكا. سألني وفي يده علبة بيرة، «هل تريدان واحدة، سيدة لوزان؟»، وأخذ ينشط جيئةً وذهاباً باتجاه الغابة، مع سيجارة في زاوية فمه، حاملاً معه إلى ريشار أغصاناً وحجارةً يرصّها في ترتيب دقيق.

وتقوم لولا، التي اختفى خجلها مع مرور الوقت، بفتح أغطية زجاجات
بيرة، وتقديمها لي ول ريشار.

«نحتاج إلى ورق جرائد أسفل الأغصان»، قال ريشار.

عدت من المنزل ببعض الصحف القديمة. مزقت لولا صفحات
منها، وقمت أنا بتكويرها. استغرق منا الأمر ما يقرب من نصف ساعة
لإكمال عملنا، وذلك بفضل خطبات كبيرة حملها ميكا من الغابة.
عندما اشتعلت النار أخيراً، جلسنا جميعاً راضين، ورأينا بأن من
المناسب تناول جولة أخرى من البيرة.

هكذا بدت مآدبتي: نار مخيم غريبة مع اثنين من المراهقين، ورجل
سَيِّئِي يبدو سعيداً وامرأة ثلاثينية اصطبغ خذاها بالحمرة بسبب الكحول.
لا أعلم إذا كنت في حالة سُكر قليلاً، لكنني كنت أجد صعوبة في متابعة
الأحاديث. لم أكن أرغب بذلك على أية حال، وكنت أفضل أن أتأمل
القمر والنار والنجوم والوجوه الثلاثة من حولي. من وقت لآخر، كنت
أسمع كلمة، أو ضحكة مدوية، وأبتسم. بدا لي أن ميكا يحاول أن يشرح
لريشار عن الأنواع المختلفة للجيتار. كانت لولا تتشرب كلماته، تعيد
خصل شعرها إلى خلف أذنها، تبلل شفثيها. كنت أجدها لطيفة وحانية
وأتساءل عما إذا كان بنجامان قد لاحظ عشقها له.

وضعنا أقراص البييتزا على الشواية، لكنني نسيْتُها هناك، فأنقذها
ريشار من موت محقق بالحرق. وبعد ذلك شربنا المزيد من البيرة.
سألنا ميكا إذا كان بإمكاننا تشغيل بعض الموسيقى فأحضرَ الراديو
ووضعه تحت شجرة الصفصاف. تمكن من توصيل هاتفه المحمول
مع الراديو بواسطة شريط ناقل.

«هذا ما سنغنيه في يوم 21»

انطلقت أولى نغمات الجيتار من جهاز الراديو الصغير، تبعها صوت دولوريس أوريوردان، شديد الخصوصية، والتي قال عنه أحدهم: «كأن هناك عاصفة في صوتها». رحت أستمع إليها مغمضة العينين. بدا ميكاً كأنه يقرع طبولاً متخيلةً، بينما كان رأسه يهتز مع الإيقاع، وخيل لي أنني كنت أسمع همهمات تترنم باللحن، قادمة من فم لولا. عندما فتحت عيني بعد لحظات قليلة، كان ريشار يبتسم في الفراغ، وميكاً يلف سيجارة ولولا تريح رأسها على كتفه.

بعد ذلك، تحدثا عن ريمي دي لا غودبير، المرشد الجديد في بيت الشباب والثقافة الملقب بـ ⁽¹⁾ Rémi de la Serpillière، وعن أخبار المجموعة: عصام، الذي حطم له والدّه غيتاره عندما استدعاه مدير المدرسة الثانوية بسبب تغيب ولده. ناثن، الذي لم يعد يأتي إلى بيت الشباب والذي أصبح يتكبر عليهم. تيو، الذي يحاول التصرف كزعيم... أظهرَ ريشار اهتماماً، وطرح أسئلة. شعرتُ بأنه كان الليلة مختلفاً، مشرقاً. بعد ذلك حان بالضرورة وقت استحضار العصر المبارك، العصر الذهبي لبيت الشباب والثقافة. العصر الذي كانت فيه فرقة الموسيقى لا تزال متحدة، وكان بنجامان لا يزال هناك، وكانت إيليا تنفجر بالضحك وتأتي لمشاهدتهم وهم يعزفون، وكانت التدريبات تستمر حتى وقت متأخر من الصباح في غرفة الموسيقى الصغيرة، ويُحبس إلياس في خزانة النوتات الموسيقية عندما «ينحرف عن المسار»، ويوبخهم بنجي بشدة ولكنه يشتري لهم دفعات من حلوى هاريبو. مكتبة سُر من قرأ «كانت هاريبو بنكهة فراولة تاغادا، هي أفضلها»

(1) وتعني، ريمي المسحة.

بدا ريشار صامتاً على نحو غريب. كنت أعرف السبب. كان يسجل كل كلمة لكي يستطيع تذكرها لاحقاً.

ذهبتُ لأفتح زجاجة نبيذ أحمر، وحين عدتُ كان ريشار يستذكر الفرق الموسيقية في زمنه: فرقة رولينغ ستونز، بينك فلويد، كوين... ويقوم ميكاً بالبحث في هاتفه لتعلو من جهاز الراديو أغنيات «أناذر بريك إن ذا وول»⁽¹⁾، «بوهيميان رابسودي»⁽²⁾، «ستارت مي أب»⁽³⁾... «نعم... ليست سيئة بالفعل»

بدأت النار تنطفئ. نظر ميكاً إلى ساعته وانتفض بقوة. «سوف يفوتنا القطار يا سيدة لوزان! إنها الساعة العاشرة وعشر دقائق!»

أعتقد أننا لولا ريشار لما وصلنا إلى المحطة في الوقت المحدد. كان لدى ميكاً ولولا ثلاث دقائق فقط لشراء تذكرتهما، لكنهما لم يشعرنا بالقلق بشأن ذلك.

«سيكون كل شيء على ما يرام، سيدة لوزان، اطمئني» مددتُ له يدي بالورقة النقدية الموعودة، لكن ميكاً هز رأسه بصورة قاطعة.

«في المرة القادمة، اتصلي بي لمهمة جز العشب. أنت لا تجيدين هذا العمل»

لبثتُ متفاجئة لا أعرف ماذا أقول.
«أه حقاً؟»

(1) فرقة بينك فلويد البريطانية.

(2) فرقة كوين البريطانية.

(3) فرقة رولينغ ستونز البريطانية.

«نعم. لقد لاحظتُ ذلك... العشب ليس على سوية واحدة. من الأفضل أن تتصلي بي. احتفظي بورقتك النقدية للمرة القادمة»
أردتُ أن أجيب، ولكن لأقول ماذا؟ لا أعرف حقاً، ولم يتح لي ميكا وقتاً. لقد تحركت الساعة الكبيرة في المحطة دقيقة إضافية للتو، وسوف ينتهي بهما الأمر بتفويت القطار.

«شكراً على العشاء وعلى مرافقتنا إلى المحطة. نراك قريباً سيدة لوزان. نراك قريباً، سيد لوزان»

أرسلنا تحية احترام إلى ريشار، خلف عجلة قيادته. بالكاد شعرتُ بخديهما فوق وجنتي قبل أن يركضا بعيداً، وكل منهما يمسك بيد الآخر، ليختفيا خلف الأبواب الزجاجية.

بدا لي المنزل فارغاً تماماً حين وصلنا إليه بعد نصف ساعة. الجمر الذي انطفأ، شجرة الصفصاف، صالون الحديقة، الراديو المحمول، زجاجات البيرة الفارغة، الأطباق المتسخة، كل هذا المشهد يضيئه ضوء القمر فقط، ويغمره بوهج فضي. بالكاد سمعت ريشار يدخل إلى المنزل. بدأتُ أنظف المكان، وعلى وجهي ابتسامة واسعة. لم أرغب بذلك، ولكنني في نهاية المطاف شاركتُ وليمة اكتمال القمر هذه، مع آخرين، ريشار وكذلك ميكا ولولا، وإن لم يعرف هؤلاء بأنني لم أرِد ذلك. كومتُ الأطباق، وخطر لي أن هذا الاحتفال كان مختلفاً عن الاحتفالات السابقة. لم يكن محاطاً بالعزلة، ولم يكن مهيباً إلى هذا الحد... إلا أنه أفادني كثيراً مع ذلك. أعتقد أنه ربما حان الوقت للانتقال إلى هدف جديد... ورقة بيضاء جديدة ألصقتها على جداري. ماذا سأكتب عليها؟ لا أدري. أطلقتُ العنان لذهني. شاركي؟ أشرعي أبوابك؟ لأي شيء أشرعها؟ للعالم؟ للجديد؟ للآخرين؟

جعلتني خطوات ريشار وهو عائد من المنزل، أنتفض.

«أرجو أنك لم تنسي؟»

الآن بعد أن أصبحنا بمفردنا، عاد صوته ليصبح أعمق. أعطاني شيئاً يحمله بين يديه. وبسبب ضوء القمر الخافت، وجدت صعوبة في تمييز شيء أول الأمر، سوى نبات بني متسلق. ثم رأيت ملامح التمثال، شكله المتطاوّل، منحنياته. إنه عبارة عن ثعبانين ليسا في الحقيقة بثعبانين، يلتف أحدهما حول الآخر، وينصهر في الآخر، ويتحد رأساهما البشريان في قبة. إنه تمثال لزوجين، للحب، للاتحاد. ترك ريشار التمثال بين يديّ ووجدت نفسي فجأة عاجزة عن الكلام، وعاجزة عن أي فعل، سوى هز رأسي عدة مرات تعبيراً عن امتناني.

«الوقت متأخر. ستحملينه إليه غداً...»

وافقتُ مجدداً. وضع ريشار يده فوق كتفي برفقٍ شديد، ثم بدأ بإخلاء الطاولة فيما رحت أوجه في سري كل الشكر للقمر، لريشار، للمساء، لـ ميكاً ولولا المتحابين، للتمثال الخشبي، لموقد النار ولكل شيء جميل وغير متوقع لازال يحدث لي حتى الآن.

كان بمقدورنا أنا وريشار أن نعيش هكذا في منزلي القديم، أحدنا بجوار الآخر، إلى الأبد. نحن من الأشخاص الذين يتحمل أحدهما الآخر بلا مجهود لأن أياً منهم لا يقطع على الآخر فترات صمته، ويترك كل منهما مسافة بينه وبين الآخر، ولأن أحدهما يعكس للآخر صورته الخاصة. لقد مر الوقت دون ألم، دون صدمة. ولكن ريشار غادر في النهاية. لأن أنا اتصلت به لتذكيره بأن إجازته المرضية على وشك الانتهاء وأن رئيسه ينتظر وصوله يوم الاثنين المقبل. لأنه كان يتحسن. ولأن أنا وكاساندر ويان وماي الصغيرة كانوا بحاجة إليه أيضاً. لقد غادر وبحوزته شريحة ذاكرة صغيرة كنت قد أخفيته في درج السكاكين قبل بضعة أشهر.

«سأشاهد الفيديو فور وصولي إلى البيت»، وعَدَ.

كنت أعلم أنه سيبيكي عندما يرى الصور لكنه سيشعر بالفخر أيضاً. لهذا أعطيته الشريحة.

لقد غادر ريشار وتفتحت أزهاره، وأولها اللحلاح. زهوره صغيرة ولكنها قوية، ببتلات أرجوانية عميقة نابضة بالحياة تحيط بقلب مبطن بالذهب ومليء بالأسدية البرتقالية. سرعان ما تبعته زهور النرجس. كنت بالكاد قد خرجت من حالة دهشتي حين تفتحت البتلات البيضاء، كاشفةً عن بوق بلون أصفر عميق. النرجس، رسول الربيع...

في ذلك المساء، التقطت الهاتف لأتصل بـ جوليا، ثم غيرت رأيي، فما زال الوقت باكراً جداً. من الأفضل الانتظار حتى تفتح

زهور التوليب على الأقل. نزعْتُ عن الحائط الورقة التي كتب عليها
«احتفلي»، وألصقتُ واحدة جديدة.

شماره كى

لقد حسبت الأيام، وتركت خضرواتي ورائي، وبدأت أتخيل كيف
ستبدو تيجان زهوري أو طوافاتي. لم تتفتح الزنابق في اليوم التالي،
لكنني قررت الاتصال به جوليا.

«لدي مشروع خاص قليلاً. أتمنى أن تساعدني...»
أجابت بكل تلقائية:

«بالطبع، وما هو مشروعك؟»

لم أعثر بسهولة على الكلمات المناسبة:

«أريد الاحتفال بالربيع»

«الاحتفال بالربيع؟»

«نعم. الزهور التي تفتحت»

«هل أزهرت الحديقة؟»

«ليس تماماً. تفتح اللحلاح والنرجس حالياً...»

«يجب أن آتي»

«متى تعودين من السفر؟»

«نهاية هذا الأسبوع. هل تدعينني إلى الغداء؟»

«لا»

«لا؟»

«لدي فكرة أخرى»

كانت الفكرة لا تزال ضبابية في رأسي، لكن تحقيقها يحتاج إلى جوليا، فهي تعرف المنطقة أفضل مني. ثم إنني كتبتُ على حائطي: شاركي، لذلك لم يعد هناك حاجة أن أكون بمفردي لكي أحتفل.

«أود أن نتناول وجبة في الطبيعة عند ضفة جدولٍ مائي ما، قريب من المنزل. هل هذه الفكرة ممكنة؟»

«نعم... نعم، ممكنة. لكن الحديقة... أريد مشاهدة الزهور»

«ستشاهدين الحديقة عندما تأتين لاصطحابي»

«حسناً. اتفقنا»

«وسنحتفل بالربيع بجانب الجدول»

بعد فترة من الصمت دوى صوت جوليا، ساخراً بعض الشيء:

«أماندا، كان لديك دائماً هذا الجانب الغرائبي، ولكنني أتساءل إذا

ما كان الأمر يتفاقم بمرور الوقت...»

«لا»

«لا؟ هل أنت متأكدة؟»

متأكدة. عندما طرقتِ بابي أول مرة، وجدّتي شبه ميتة، بسبب

الحبوب المنومة التي كنت أتناولها طوال اليوم»

احتاجت إلى بضع ثوانٍ حتى تسجّل المعلومات وتستوعبها. ثم

سألت بصوت متوازن:

«والآن لم تعودتي كذلك؟»

«لا، الآن أريد فقط أن ألقى بأكاليل من الزهور في الماء»

ضحكت وضحكتُ معها قائلة:

« حسنًا، حسنًا. سأقرّ لك إذن بتحسن طفيف، لكنه ليس صريحاً جداً... »

« هل اتفقنا إذن على موعد السبت ظهراً؟ »

« سأتكفل بمفرش التزهة. إنه مفرش قميء وقديم الطراز إلى حد فظيع، ملون بالأحمر والذهبي، كان لأمي »
صدّقْتُ على كلامها وأنهينا المكالمة بعد تأكيد الموعد يوم السبت القادم.

لم ينتابني الملل وأنا أنتظر جوليا. قمت بتعليق تقاويم السيدة هيوغ، العشرة، على جدران غرفة معيشتي، فشكّلت إفريزاً جدارياً. فتحتُها كلها على شهر أبريل لأننا كنا في اليوم السادس من ذلك الشهر. عندما أوقفتُ تصفح أوراق التقاويم عند الشهر المطلوب، كان من غير المفاجئ أن الصور الفوتوغرافية لشهر أبريل في جميع التقاويم هي صور زهور. عرفتُ منها زهور النرجس واللحلاح، إضافةً إلى زهور جميلة تنمو على الأشجار، ولم أعرفها. ربما تستطيع جوليا أن تخبرني بالمزيد.

في الغابة، جمعت العيدان التي سأستخدمها لبناء طوافات صغيرة لزهوري. جلستُ في صالون حديقتي الجديد تحت ظل شجرة الصفصاف. استغرق جمعُ العيدان من الوقت أقل مما استغرقته محاولتي الذهنية لإعادة بناء الحياة اليومية لـ بول ولوسي. مع ذلك، كنتُ أتقدم، وتبدأ طوافاتي بالظهور. رتبت العيدان بحيث تشكل أرضية خشبية وربطتُ أحدها بالآخر بواسطة خيط أبيض، أحد الخيوط التي

أستخدمها في البستنة. سوف أستخدم هذا الخيط أيضاً لتعليق الزهور على الطوافات في اليوم الكبير.

وضعتُ دزينة من طوافاتي في غرفتي، أسفل سريري. هذا أكثر من كافٍ، كما قررتُ في يوم سابق. وبعد ذلك فكرت أن اثنا عشر هو العدد المثالي. اثنتا عشرة طوافة لكل شهر من شهور السنة الاثني عشر.

في عصر أحد الأيام، قررت طلاء مقعد الأرجوحة التي صنعها ريشار، باللون الأخضر التفاحي، وعلقت العشرات من أزهار الهندباء على طول الحبل الواصل بينها وبين شجرة الصنوبر. في ذلك اليوم لاحظت أول عنقود من الجاسنت. مجموعة جريسات أرجوانية صغيرة عطرة تنمو على جذع منفرد. رأيتُ فيها علامةً على أن الجاسنت سيفتح في الوقت المناسب لأجل احتفالي بالربيع.

قبل الساعة العاشرة، صباح هذا السبت، كنت قد انتهيت من تزيين طوافاتي بالزهور. قمت بإعداد الساندويتشات وسلطة الفواكه وغلفتها بورق السيلوفان. حتى أنني وضعت بعض الكؤوس والنبيد الأبيض الحلو على طاولة المطبخ. نعم، قبل ساعتين من الموعد، كنت أكثر من مستعدة.

جلست في صالون حديقتي، تحت شجرة الصفصاف، أتأمل طوافاتي الاثني عشر التي تتشابك فوقها زهور النرجس واللحلاح وعناقيد من الجاسنت والبنفسج البري. إنها طازجة، جميلة، برائحة طيبة للغاية. راحت القطعة تتشمم الكومة الصغيرة من الزهور المتبقية، تلك التي قطعتها ولم أجد لها مكاناً على طوافة، ثم انصرفت مضيئةً عينيها. كان عطر الزهور أقوى من أن تستطيع تحمله. بدأتُ أنا أتأمل

ألوان هذه الكومة الصغيرة، وملمسها، وأشكالها - التيجان والبتلات والجريسات، وأستنشق الروائح. أيُّ هدرٍ، فكّرت. ماذا أفعل بها؟ هل أحولها إلى خليط مجفف. لا، بالتأكيد، سيكون هذا نوعاً آخر من الهدر. هل آخذ شيئاً منها إلى بنجامان؟ لكنني سبق أن غمرتُ جذور شجرة الصنوبر بالبتلات الزرقاء والأرجوانية والبيضاء والصفراء.

مددت ساقِي واسترخيتُ سارحة الذهن على مقعدي المصنوع من عوازل خشبية. تذكرتُ لحظات تركيب أرجوحة ماي، منذ بعض الوقت. كان ريشار يقف إلى الخلف، يمسك بالحبل، وميكا فوق السلم، ولولا جالسة في العشب. كانت لولا بفستانها الأسود المكشكش، تقطف أزهار الربيع، وبحركاتٍ طليقة ولكنها أنيقة، تشكّل منها أساور. كانت أصابعها تتحرك بسرعة وعيناها تنظران إلى مكان آخر، باتجاه ميكا، محاولة التقاط نظراته. نعم، كانت تحيك خيطاً من الزهور، دون اهتمام كبير، لتضيف إلى معصمها الرقيق سواراً، ثم اثنتين وثلاثة وأربعة. طويتُ ساقِي ووقفتُ باستقامة. الآن أعلم ما سأفعله بالكومة الفائضة من أزهارِي المقطوفة.

فوجئتُ بصوت إطارات سيارة التوينجو الزرقاء خلال قيامي بتشكيل طوق طويل من النرجس..

توقفت السيارة أمام منزلي، برزت منها ساقان عاريتان، انغلق بابٌ وعندها ظهرت جوليا بكاملها أمامي، مرتدية فستاناً ربيعياً أبيض منقطاً بزهور الشقائق الحمراء، وشعرها البني يتطاير حول وجهها. كانت تتقدم بخطوات واثقة نحوي أو نحو شجرة الصفصاف، مطلقةً صيحات البهجة:

«أجريتِ تغييرات في المنزل أيضاً»

وضعت كلتا يديها فوق كتفي، وقبلتني قبلة عطرة ثم استأنفت بعينين لامتعتين:

«قمتِ بطلاء مصاريع النوافذ، وأنشأتِ صالون حديقة، وماذا أيضاً؟»

أشرتُ إلى الأرجوحة حديثة الطلاء، التي تتوارى في ظل أشجار الصنوبر.

«أنتِ من صنَّع هذا؟»

«والد زوجي»

«وهذه؟»

أشار إصبعها باتجاه مصوغاتي الخرقاء من مجوهرات الزهور.

«نعم... أحاول...»

- إنها جميلة، طازجة»

ثم التفتت نحو الطوافات.

«يا إلهي كم أنت مبدعة يا أماندا!»

«أنا فقط أحاول اللهو لتمرير الوقت...»

«هل تعلمين أنك تستطيعين عرض هذا الابتكار لمناسبات زفاف»

خيل إلي أنها تتكلم عن طوافاتي، لكنها التقطت الأساور.

«ليست متقنة...»

«شيء طبيعي ألا تكون كذلك، فليس لديك المواد اللازمة، لكنك

إذا اشتريت بعض الخيوط المطاطية والمشابك، بالإضافة إلى بعض

الخطافات، ستستطيعين القيام بعمل أنيق.»

تناولت الطوق الطويل ووضعتَه على صدرها، فوق فستانها المزهر.
«أنظري! أترين هذا؟ أنا لا أمزح. هل تتخيلين المفهوم؟ مجوهرات
زائلة مصنوعة من أزهار حقيقية؟ أنا متأكدة من أنها ستلقى رواجاً في
موسم الزفاف، والرائحة! إنها لا تُضاهى! رائحة بتلات طازجة»
أغمضت عينيها، أمسكت الزهور برفق بين أصابعها، واستنشقتها.
«أشعر وكأنني عدت إلى البيت السعيد، إلى زمن والدتي»
فتحت عينيها عندما جاءت قطتي الرمادية للترحيب بها. أخذ
الوحش الرمادي يخرخر بحب. لو حدث هذا مع شخص آخر غير
جوليا لشعرتُ بالغيرة تقريباً.
«حسناً... هذا ليس كل شيء، لأن أماننا مسافة نقطعها» قالت وهي
تنهض.

«هل وجدتِ لنا جدول ماء؟»

«بل أفضل من ذلك»

صعدنا في سيارة جوليا ووضعتُ سَلْتِي الممتلئة بالمؤن فوق ركبتِي.
كان الطقس جميلاً، بارداً إلى حد ما، ولكنه مشمس. أثناء انطلاقنا في
طريق ريفي صغير، لم أستطع منع نفسي من التفكير بأن تلك هي المرة
الأولى التي نلتقي فيها أنا وجوليا خارج منزلي، وبالنسبة لي بدا هذا
الخبر جيداً.

توقفنا بعد نحو ربع ساعة في فسحةٍ ليس فيها إلا سيارة واحدة
إضافةً إلى سيارتنا. أصرت جوليا ألا تفصح عن الموقع، لكنني رأيت
هناك لافتة كتب عليها «شلال سيه»، تظاهرتُ بعدم رؤيتها ولحقتُ بها
على الطريق المغطى بالحصى، حاملةً سلة المؤن.

عندما أصبح المسار صاعداً تتخلله حجارة كبيرة مغطاة بالطحالب، لم يعد التقدم سهلاً ونحن محمليتين بالأغراض. اضطررنا أن نتبع استراتيجية جديدة: تتسلق جوليا أولاً تاركة الأكياس في الأسفل، أرفع إليها الأكياس ثم أتسلق بدوري. بعد أن تم الالتفاف على القسم الصعب من المسار، يجب أن أعترف بأنه أصبح ممتعاً مع الطحالب الخضراء الطرية، وصوت الجدول الذي نحاذيه، وضوء الشمس المتسرب من بين الأغصان، ووقع خطواتنا مع جلبة الحجارة المتدحرجة. مررنا باثنين من المتزهين، ألقيا علينا التحية بأدب، ثم وضعت جوليا، التي كانت أمامي، حقيبتها عند قدميها.

«وصلنا»

كان صوت الماء أعلى هنا، والسبب وجيه هو أننا كنا مقابل الشلال، في أعلى نقطة من الموقع. كان الماء ينبجس بقوة من الصخور ويسقط فوق الأحجار.

«هل نأكل هنا؟ سوف نطلق طوافاتك في الماء من بقعة تقع إلى الأسفل أكثر... كيلا تتحطم هنا فوق الصخور» اقترحت جوليا. أيدت الاقتراح بقوة، وانطلقنا نبحث عن صخرة مستوية، دفأتها الشمس لكي نمد مفرش النزهة فوقها.

كان النبيذ الأبيض شديد الحلاوة والسندويشات لذيذة، وأنا ما زلت لا أصدق أنني خارج منزلي، هنا في وسط أوفيرن، برفقة ابنة صاحبة المنزل السابقة. لم تعد حياتي كما كانت قبل عشرة أشهر. لم أعد أمتُ بصلة إلى الشخص الذي كنتُ قبل عشرة أشهر.

انتابني شعور بشيء من الاضطراب، وآثرَ عدم التفكير بشيء سوى أنني هنا، أستمع إلى جوليا وهي تتحدث عن عملها وشقتها في

كليرمون فيران وعن جارتها المصابة بالاضطراب ثنائي القطب وعن وكيل الملكية المشتركة للشقة، الذي لا يطاق. أغلقنا زجاجة النبيذ ووضعنا المؤن المتبقية في السلة لكي نمضي إلى أسفل النهر ونطلق طوافات الزهور. ساعدت جوليا في طي مفرش والدتها ثم انطلقنا بالتزامن مع وصول أفراد عائلة كبيرة العدد، يحملون سلة مؤن وكرة.

أخذنا ننتقل بحذر من حجر إلى آخر، مع الحرص على عدم الانزلاق بسبب الطحالب. التقطت جوليا قطعة خشبية استخدمتها عكازاً للسير. رفر ف حولنا للحظة زوج من طيور أبي الحناء، يشبه إلى حد غريب ساكني شجرة الصنوبر المقدسة. ثم جاء سؤال جوليا:

«أماندا، هل أستطيع أن أطرح عليك سؤالاً حميمياً؟»

حاولت ألا أبدو مترددة، لكن ذلك كان صعباً. لقد أخذتني على حين غرة.

«نعم»

«حسناً، الموضوع هو... كنت أظن... هل تلتقين بأحد من الناس
سواي؟»

لقد جعلتني أشعر بعدم الارتياح، خاصة أنني لم أعلم حقاً إلى أين أرادت الوصول.

«لا... لا ألتقي إلا بعدد قليل من الناس، ولكنني ألتقي بآخرين بين
الحين والآخر...»

«رجال؟»

عرفت الآن إلى أين تريد الوصول، لكنني هزئت رأسي بشكل
مخادع:

«نعم»

«رجال في عمرك؟»

«ليس تماماً...»

«إذا كنت تقصدين والد زوجك صانع الأرجوحة، فهو لا يُحسب»
لم أعرف حقاً ماذا أقول، لذلك بقيت صامته وأكملنا طريقنا لبضع لحظات.

«كم مضى على وفاته؟»

لم يكن في صوتها أي حكم قيمة، شعرتُ بذلك، ولهذا السبب وافقتُ أن أجيبها:

«خلال شهرين، يكون قد مضى عام»

أومات جوليا بصمت. أضفتُ:

«اسمه بنجامان»

ابتسمت جوليا ورددتُ بهدوء «بنجامان» كأنها تقيّم الطابع الصوتي للاسم.

«يقولون بأن الحداد يجب أن يستمر وسطياً لمدة عام. هل تؤمنين بهذا النوع من الحماقات؟»

هزرتُ كتفي. الحداد. حتى أنني لا أعرف ما تعنيه هذه الكلمة. كيف يُمكن لأحد أن يعلن بأنه بدأ أو أنه انتهى؟ استأنفت جوليا:

«بالنسبة لحدادي على أبي، استغرق الأمر مني ستة أشهر حتى تحسنت حالتي. كان كل شيء مختلفاً طبعاً، لأن أُمي كانت لا تزال على قيد الحياة، وحياتي المهنية قد بدأت للتو، وحياتي الاجتماعية ممثلة بالناس. بالنسبة لأُمي، حزنْتُ لوقت أطول. أعتقد أن الأمر استغرق مني عامين. ربما أكثر... لذلك لا أصدق ولو لحظة واحدة، الهراء الذي يقولونه بشأن طول فترة الحداد»

استدارت بابتسامتها الملائكية:

«كل ما أعرفه، وكل ما أقوله، هو أنك شابة وأن الربيع قادم»
يبدو أنها تلمح إلى شيء يرتبط بسؤالها الحميمي السابق، لكننا
وصلنا إلى جزء من الجدول أكثر سكوناً، حيث نستطيع الانحناء لأداء
مهمتنا، وفضلتُ أن أقول:

«سيكون هذا الموضع مثالياً لدفع الزهور فوق الماء» أخرجتُ
الطوافات بعناية من حقيبتي القماشية. جلست جوليا متربعةً على صخرة
مغطاة بالطحالب.

«هل أستطيع أن أقول بضع كلمات؟»
رفعتُ رأسي متفاجئة.

«بضع كلمات؟»

«نعم. من أجل الإطلاق الرسمي للطوافات في الماء»

«هل تسخرين مني؟»

«لا. لقد فكرت ببضع كلمات»

بقيتُ لا أعلم إن كانت تمزح، لكنني اخترت أن أومئ برأسي.
«إذا شئت»

عندها نهضت جوليا واقفةً فوق صخرتها المغطاة بالطحالب، وبينما
كنت متجهة نحو الماء حاملةً أول طوافة، تنحنحتُ بوقار:

«حسناً يا أماندا... لقد أتيتُ بي اليوم إلى هنا، للاحتفال بقدوم
الربيع. لكن قدوم الربيع هو أيضاً نهاية الشتاء، نهاية مرحلة كاملة
تركن فيها الحيوانات إلى السبات. نحن البشر معتادون على الاختباء

والانطواء على أنفسنا. وهذا ليس بالأمر غير المعتاد... فقد وصفت النصوص الصينية القديمة فصل الشتاء بأنه وقت للتأمل، وقت للتجدد. هل تعرفين ما هي الكلمات التي استخدموها؟»

كانت ترقب ردة فعلي، فهزئت رأسي بالنفي.

«لقد وصفوا الشتاء بأنه وقت لإغلاق الأبواب وحراسة الكنز. قول جميل، أليس كذلك؟»

«نعم، جميل»

«هذا هو. لقد أغلقت الباب لكي تحرسي الكنز، واليوم حان الوقت لكي تفتحيه»

أشارت لي بذقتها بوقار، أن أدفع طوافتي إلى الماء، ففعلت. واجه القارب الخشبي صعوبة في الاستقرار، وأخذ يتأرجح مع التيار ولكنتي تركته يمضي. توارت أزهاره، تيجانها، أجراسها، عطورها وألوانها، توارت في هذا الفرع من جدول الماء. عندها قفزت جوليا من فوق صخرتها، فخورة بنفسها:

«هل يمكنني أن أضيف شيئاً؟»

«نعم، بالتأكيد»

«عبارة تعود لأدبية ومحظية تدعى نينون دي لانكلو. هل تعرفينها؟»

«لا»

ارتعشت شفتاها، وعلى وجهها ظهرت ابتسامة بهيجة، ليعلو صوتها واضحاً ومدوّياً:

«فلنشفق على الحمام التي لا تتزوج إلا في الربيع»

لم أعرف في تلك اللحظة هل كان يجب أن أغضب، أم أندesh،
أم أرفع عيني إلى السماء شاكيةً أمري إليها، أم أشتّم، أم أبتسم فقط.
كل ما أعرفه هو أن جوليا كانت ترقب ضحكتي، وأنني اخترتُها وحدها
صديقةً لي في حياتي الجديدة. لذا، وعلى الرغم من أنني رفعتُ عيني
إلى السماء، إلا أنني لم أنسى أن أبتسم، لتعلن جوليا، بابتهاج:
«سأتولى إطلاق الطوافة التالية»

نعم، بالتأكيد، لقد تغيرت احتفالاتي كثيراً ولكن جوليا على حق:
إغلاق الأبواب وحراسة الكنز، مسألة تنتمي إلى الشتاء. الربيع هنا.
والدليل على ذلك، تلك الكلمة الصغيرة المكتوبة بشكل صريح وواضح
على جدار مطبخي: شاركي.

ورغم جوليا واحتفال الربيع. رغم أزهارى التي تلون الحديقة. رغم شمس أبريل الخجولة، لا مهرب لي من ذلك... لا مهرب لي من التاريخ المشؤوم، عيد ميلاد بنجامان. يوم 13 أبريل. كان يفترض أن يبلغ الثالثة والثلاثين من عمره.

كان بنجامان من برج الحمل. لا أعلم ماذا تقول الأبراج عن شخصيته. لم أؤمن بذلك أبداً، لكنني عرفت أنه من برج الحمل كما عرفتُ بأنه وُلد عند الساعة الثانية عشرة منتصف ذلك النهار بالضبط. يبين لي عند التفكير في الأمر بأنني أعرف الكثير من التفاصيل قليلة الأهمية عن بنجامان. كان عند الوجبة على سبيل المثال، دائماً ما يبدأ بتناول اللحوم، ثم ينتهي بالخضروات. كانت نغمة المنبه صباحاً في هاتفه، هي نغمة القوة والمجد «The Power & The Glory»، التي بقيت ترن في ذهني كل صباح عند وجبة الإفطار. إلا أن أغنية جيمي كليف المفضلة لديه كانت المتمرد بداخلي «Rebel In Me» لكنه لم يخرها كرنه منهُ لأنها بطيئة وعاطفية وستجعله يرغب في البقاء في السرير واحتضاني. رفض أن يقص الضفائر المتبقية في شعره بسبب رمزيته وكونها تذكره بأيام فتوته. كان دائماً يذهب إلى التواليت فجأة في نهاية الأفلام التي تترك في نفسه أثراً عاطفياً قوياً، وكان يظن بأنني لا أفهم لعبته. كان يرتدي فقط ملابس داخلية سوداء أو زرقاء داكنة دون سبب لذلك، على الأقل دون سبب منطقي. كان يفضل القهوة على

الشاي، ومع ذلك كان دائماً يشرب شاي إيرل جراي مع طبق التحلية «حفاظاً على تميزه الإنجليزي». كان يضحك عشر مرات في اليوم على الأقل. كان يفضل تقبيلي على شعري بدلاً من فمي لأنه يجد ذلك أكثر إثارة. كان يحلق ذقنه يومي الأربعاء والسبت فقط. أوه، وكان يحب أن يراني أرتدي جوارب صوفية ضخمة وكنزات كبيرة الحجم يعيرها لي. لم أفهم سبباً لذلك أبداً.

أعتقد أن حبنا لشخص ما، يُقاس على هذا النحو... من خلال العديد من التفاصيل غير المهمة التي نجتمعها عنه بعناية. لقد أحببت بنجامان أكثر مما أحببت نفسي. أعتقد أنني اليوم أصبحت أحبه أكثر. لقد فعل الزمنُ فعله على الألم ليصبح الآن أقل وقعاً، لكنه جعل العاطفة تزداد. لذا، ومع اقتراب عيد ميلاده، عانيت من صعوبة في الحفاظ على ما اكتسبته مؤخراً من خفة وسكينة، وأصبحتُ بانتكاسة حادة. أهملت حديقتي. لم أتصل بـ ريشار وأنا، ولا بـ يان وكاسندرا. ولا شك أنهم أيضاً، يعيشون هذه الشدة. في 11 أبريل، قبل يومين من عيد ميلاده، أقدمتُ على أمر لم يكن مفهوماً بالنسبة لي: أخذت هاتفي المحمول واتصلت بإيليا على رقمها في بيت الشباب والثقافة. كانت في فترة استراحة الغداء وردت على الهاتف بنبرة متفاجئة.

«أماندا؟»

لم أر إيليا منذ جنازة بنجامان. لقد كتبت لي بضع رسائل نصية في البداية، رسائل لا تنتظر أجوبة. أنت ببالي حقاً. وفي مرة أخرى: لك كل الدعم من جانبي. ورسالة أخيرة: أتمنى أن تكوني بخير. كانت رسائلي الجوابية قصيرة ومجردة من الطابع الشخصي، ومتشابهة تماماً في كل مرة. شكراً، قبلاتي. انتهى بها الأمر بالتوقف عن الكتابة لي. لم يكن

هذا ما أردته، لكنني لم أستطع الإبقاء على التواصل معها، أو مع آخرين كثر غيرها.

«هل أنت بخير؟» سألت عندما لم أُجب.

«نعم، بخير. لقد...»

لم أكن أعرف حقاً لماذا أتصل بها اليوم. خرجت كلماتي على نحو آخرق:

«لقد أردتُ معرفة الأخبار...»

غير مفهومة، أنا إنسانة غير مفهومة. هل كان ميكا، هو مَنْ أثر عليّ خلال زيارتي الأخيرة، عندما أخبرني أن إيليا لم تعد كما كانت، وأنها لم تعد تنفجر بالضحك كما في السابق. هل السبب هو ذكرى عيد ميلاد بنجامان، قبل عام؟ عندما التقينا في الصالة الخلفية لمقهى أيرلندي. كان يان وكاساندر هناك، وكذلك إيليا وصديقتها في ذلك الوقت والذي نسيت اسمه، وكذلك فرد، مدير بيت الشباب وزوجته سيلين ويوسف، المدرب الرياضي الذي كان يعمل عدة ساعات في الأسبوع في بيت الشباب، والمتدرب الذي رشحته إيليا، وكان اسمه أنتوني أو أنطونين، لا أتذكر حقاً، وهو شاب قريب إلى القلب وليس خجولاً على الإطلاق. لقد كنا جلوساً طاولاً جيدين، ونشرب البيرة بكثرة. تركوني أجلس على مقعد طويل وكان بطني الكبير يحثك بالطاوله باستمرار. قدّموا لـ بنجامان كنزة كتب عليها أب خارق «Superdad» ومجموعة كاملة من أشياء ذات صلة بميلاد مانون: سدادات أذن وحبوب منومة وزجاجة رضاعة وردية اللون وفنجان للقهوة وفيتامينات وحمّالة أطفال ماركة I love my dad. لم أكن أشرب البيرة بالطبع، لكنني لم أشعر بحاجة لذلك، فقد كنت منتشية أو، ببساطة، كنت سعيدة.

لعبنا لعبة السهام ثم البلياردو، وعندما تبين بأن الجميع شربوا أكثر مما ينبغي، ساعدتني كاسندرا على جر المجموعة بأكملها إلى الخارج، حيث كان محلُّ كباب مفتوح على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع، ينتظر أن تمتلئ بطوننا بجالونات البيرة. وهنا انتهت الأمسية.

نعم، لا شك أن هذه الذكرى هي التي دفعتني إلى الاتصال بإيليا بعد ظهر اليوم.

«أنا بخير»، قالت في الهاتف. أعني أن الأمور هنا تسير وفق الروتين اليومي المعتاد. هناك أولاد ضائعون، وهناك عباقرة، وآخرين مزعجين. إنه روتين متواصل، كما ترين»

شعرتُ من نبرة صوتها بأنها منزعجة من مكالمتي. ولديها الحق في ذلك...

«وأنت؟ سألت.

«لا بأس»

لم أجد شيئاً آخر أقوله. بدأتُ أصلاً أندم لأنني اتصلت. عاد الصمت، وسمعتها تتنحى وتغير وضعية جلوسها في مقعدها. «حسناً، من الجيد أنك اتصلت... نخطط أن نذهب بصحبة الآخرين يوم الأربعاء لتناول كأس»

«الأربعاء؟»

«يوم 13»

حل صمت جديد. فتحتُ فمي، لكن حلقي كان جافاً ولم أقل شيئاً. «لم نرك منذ وقت طويل. سوف تسرنا رؤيتك مجدداً. كثيراً ما نفكر بك، ولكننا لا نجرؤ على الاتصال...»

كنت أعرف أنه سيكون لزاماً عليّ الآن أن أعطيها إجابة مفهومة.
ابتلعتُ الغصة في حلقي وقلتُ بأكثر ما أستطيعه من الوضوح:
«إنني... لَمْ لا، ولكن... أنا أسكن بعيداً كما تعلمين...»
«تستطيعين النوم عند يان وكاسندرا»

من جديد فرض الصمت نفسه وسمعتُ إيليا تغير وضعيتها في مقعدها.

«اسمعي يا أماندا، سنلتقي عند الساعة الثامنة في مقهى جيمس في ليون القديمة. ثم نذهب بعدها لتناول كباب أو بيتزا. إذا لم يستطيع يان وكاسندرا استقبالك، أو إذا لم ترغبي بإحراجهما بسبب الطفلة، تستطيعين البقاء عندي. لدي أريكة يمكن تحويلها إلى سرير، مريحة نسبياً»

«شكراً، سوف... سوف أرى كيف أنظم أموري، اتفقنا؟»
كل ما أردته هو كسب الوقت. كنت عاجزة الآن عن اتخاذ قرار.
«اتصلي بي ثانيةً يوم الثلاثاء لكي تبلغيني موافقتك»
«حسناً»

«سنكون مسرورين برؤيتك...»
علا صراخ خلف إيليا أخفى جوابي.
«يجب أن أغادرك يا أماندا، أظن أن هناك ولدان يتضاربان. اتصلي يوم الثلاثاء»
«حسناً»

أغلقت الخط.

في الأيام التالية، غيرتُ رأيي عشرين مرة تقريباً، واضطرب نومي.
لن أتمكن من إعادة الاتصال بـ إيليا مساء الثلاثاء. لقد تركت لي رسالة

صوتية في وقت متأخر من المساء تخبرني فيها أنه في حالة حدوث أي طارئ، فقد أعدت لي الأريكة القابلة للتحويل إلى سرير. لا أعلم هل كنت متأثرة أم مدعورة.

كان يوم 13 محنة حقيقية بالنسبة لي. لأن مجرد التفكير في تلك الرحلة بالسيارة، والصالة الخلفية للمقهى، ووجوه يوسف، فرد، سيلين، وكل الآخرين، وهم ينظرون إلي بتعاطف، يجعلني أتعرق عرقاً بارداً. لم أكن أستطيع التركيز على أي مهمة ولا على النطق بكلمة واحدة أمام شجرة صنوبر المقدسة. كنت فقط أكشط حרشفة لحائها الوردية بأطراف أصابعي خائبة الأمل. أعرف أن بنجامان كان سيوافق على ذهابي لذلك اللقاء، لكن الأمر سهل بالنسبة له. فليس هو من سيجد نفسه أمام الآخرين مع ظل شبح الحاضر فوق أكواب البيرة.

اتصلت بي جوليا في فترة ما بعد الظهر وكان من البديهي ألا أرد عليها. تركت رسالة صوتية لم أستمع إليها.

متى اتخذت القرار؟ لا أعرف حقاً. لم يحدث شيء من هذا بوعي على أية حال. لكنني في الساعة السادسة، ومن دون أن أعرف كيف حقاً، وجدت نفسي وقد تزيتُ وتعطرتُ وارتديت فستاناً أسود أمام مرآة حمامي. بدت عيناوي شديديتي السواد، واللون الوردي جديداً جداً على شفتي، وشعري نظيف للغاية، وهذا الفستان الذي خصصته للمناسبات الكبرى، لم يكن مناسباً على الإطلاق... أعلم أن علي أن أغادر الآن إذا أردتُ أن أكون في مقهى جيمس في الوقت المحدد. إلا أنني بقيتُ متسمة أمام انعكاسي في المرآة، ويدي على حافة المغسلة. رحلت أحصي مجموعة أسباب تبرر إلغاء هذا الموعد: ستكون هناك

مناسبات أخرى، ولا شيء يلزمني بقبول هذه الدعوة. لم ترجع القطة الرمادية من الصيد، ولا يمكنني أن أذهب وأتركها خارج المنزل. ليلة ذكرى ميلاد بنجامان ليست التاريخ الأمثل للقاء بأصدقائه. لا أحب قيادة السيارة في الليل أبداً.

لا أدري أي سبب هو الذي تقدّم على بقية الأسباب، ولكنني في نهاية المطاف أمسكتُ بقطعة قطن ومزيل المكياج وأزلتُ كل الأصباغ عن وجهي. هذا أكثر حكمة. سأذهب في يوم آخر...

في المساء، استمعت إلى الرسالة الصوتية التي تركتها جوليا في وقت سابق. بدا صوتها أكثر سعادة من المعتاد.

«اتصلي بي يا أماندا، لدي شيء عاجل أريد أن أخبرك به»

هذا كل ما قالته في رسالتها المختصرة. كنت جالسة في مقعدي الرمادي، وشاشة هاتفي الموضوع على مسند الذراع، تُظهر أمامي الكلمات القليلة التي أجابت بها إيليا قبل لحظات: خسارة، إلى مرة قادمة. ربما كان يجدر بي أن أقول لها الحقيقة، بأنني لم أشعر بعد بأنني مستعدة، بدلاً من اختراع هذه الكذبة الرهيبة حول صدام نصفي عنيف. ولكي أهرب من التفكير بذلك، اتصلتُ بجوليا. لم يفقد صوتها شيئاً من الحماسة التي ظهرت في رسالتها الصوتية:

«أهلاً أماندا، هل وصلتك رسالتي؟»

«نعم. للتو»

«أحذرك، لديّ خبر جيد»

«أوه حقاً؟»

«لقد أخبرت إحدى زميلاتي في العمل عن مجوهراتك المصنوعة من الأزهار. إنها مثلي تعمل مندوبة لوكالة سفر، في منطقة باكا، ولكن ليس هذا هو موضوعنا... الشيء المهم هو أنها ستزوج الشهر المقبل وأنها مهتمة بشدة بمفهوم الحلي الزائلة والطبيعية...»

توقفت جوليا مترقبة رد فعلي بلهفة شديدة، لكنني خيبت أملها إلى حد ما، مع شعوري بأنني أخذت مبالغته.

«أماندا؟ هل أنت هنا؟»

«نعم. نعم...»

«هل سمعت؟»

«سمعت»

«إنها تريد منك أن تقدمي لها عرضاً يتضمن نموذجين أو ثلاثة نماذج من اقتراحك. تريد الحصول على سوار لمعصمها وتاج من الزهور لشعرها»

ابتلعت لعابي. ما الذي تحاول جوليا توريطي فيه؟

«أنت لست مضطرة للذهاب إليها. يمكنني استلام النماذج في نهاية هذا الأسبوع، إذا كنت موافقة، لكي أحملها لها إلى المكتب يوم الاثنين. هل تعتقدين أن هذا سيكون ممكناً؟»

«الاثنين...»

«هذا يعطيك ثلاثة أيام»

صمتت حتى أتمكن من التفكير.

«أنا... لم يسبق أن صنعت أشياء مشابهة حقاً، تعلمين أن النماذج التي رأيته كانت مجرد مسودات أولية، لا شيء جدي... لقد فعلت ذلك لتمضية الوقت»

«لديك موهبة في الجمع بين الألوان والأشكال، وهذا هو الأهم يا أماندا، العين وليس الجانب التقني. ستجدين كل ما تحتاجينه لهذا الغرض في متجر الأدوات الفنية. المشابك، الغراء، ما أدراني! أنت مبدعة، سوف تتمكنين من ذلك»

«يا إلهي، جوليا...»

نهضت من مقعدي وبدأت أتحرك في المطبخ بعصبية.

«لم يسبق لي في حياتي...»

«لا أنوي الضغط عليك يا أماندا، هذا مجرد عرض. لكنها كانت متحمسة حقاً. الأمر يقتصر على سوارين أو ثلاثة وتاج، بحيث تُربها عملك»

«قلت ثلاثة أيام؟»

«نعم. يمكنتي المرور لاستلامها يوم الأحد في فترة الصباح»

توقفت قرب النافذة. لم يسمح لي عثم الليل برؤية حديقتي بوضوح، لكنني أعرف أنني اكتشفت هذا الصباح أولى أزهار الفراولة. بتلات بيضاء رقيقة تحيط بقلب أصفر. أعرف أن هذا القلب سيكبر فيما بعد لكي يتحول إلى ثمرة فراولة، خضراء ثم حمراء. لم تتفتح زهور التوليب بعد. إنها مسألة أيام. حاولت أن أتخيل الأساور والتيجان، وفكرت أن أزهار الفراولة سوف تتناسب بشكل رائع مع زهور اللحلاح والجاسنت...

«أكرر لك بأنني لا أريد أن أمارس ضغطاً عليك، يا أماندا. هذه فرصة أقدمها لك. إذا نجح الأمر، يمكننا أن نطلق هذا المفهوم لحفلات زفاف أخرى... وإذا لم تعجبها المصوغات، ننسى الموضوع. الأمر بهذه البساطة. سأعيد لك أساورك ولن نقول المزيد عن هذا الأمر»

«فهمت...»

«هل تريدان أن تجربني؟»

«نعم. لن أعديك بشيء. لكنني سأجربكما»

«رائع، سأمر يوم الأحد لاستلام هذا كله. اتفقنا؟»

«اتفقنا»

«أقبلك»

«وأنا بالمقابل»

«إلى يوم الأحد»

أغلقتنا الخط. لم أكن أعرف حقاً ما الذي أقدمتُ نفسي فيه، لكن هناك أمراً واحداً أكيداً هو أن جوليا قد انتشلتني لتوها من قاع الموجة وأنقذتني من انتكاسة عابرة.

بدأتُ برسم الأساور والتيجان على قطعة من الورق، على نحو يساعدنني على تصورهما. رسمت جريسات الجاسنت خبازية اللون، وأبواق النرجس، المميّزة، وبتلات اللحلاح ذات اللون الأرجواني العميق، واللبلاب المتشابك مع الزهور، مضيئاً عليها لمسة خضراء، والأقحوان الحي والبسيط، لإضفاء لمسة من البياض النقي. تخيلتُ نماذج مختلفة. أحدها كثير الألوان، بظلال من اللون الأزرق والخبازي والبنفسجي، يختلط فيه اللحلاح والجاسنت والبنفسج البري. إنه نموذج مليء بالطاقة والحيوية. رسمت نموذجاً أبسط وأكثر صفاء، يميل إلى البياض، مكون من زهور أقحوان ونرجس وزهور فراولة، متشابكة مع اللبالب. المشكلة تأتي من زهور الفراولة التي لا أستطيع حمل نفسي على قطفها وقتل الثمرة التي ستولد منها. فكرتُ بحل آخر: صنف آخر سأشتره أو سأزرعه في حديقتي. في هذه الأثناء، تخيلت نموذجاً ثالثاً

وحيد الزهرة: غصن من اللبلاب يحيط بالمعصم مع زهرة النرجس كزينة وحيدة، كما هو الحال في حفلات النجاح الأمريكية. صنعتُ التيجان وفق النماذج نفسها: كثيرة الألوان، مائلة إلى البياض، ووحيدة الزهرة.

في اليوم التالي، ذهبت إلى مركز التسوق للتزود بالمواد التي أحتاجها لصنع مجوهراتي: غراء للزهور، وشريط، وخيوط الجوت. على طريق العودة، توقفت عند متجر أدوات البستنة. أحتاج إلى أصل إلى حل نهائي لمسألة إيجاد بديل لأزهار الفراولة.

«تريدين نباتاً له زهور بيضاء؟ وتريدين أن يكون النبات مزهراً؟»
يبدو أن طلبي فاجأ الموظفة، لكنها سعت بجدية لتلبية.

« ما هو حجم الزهور المطلوبة؟»

«صغيرة. رقيقة إذا كان ذلك ممكناً»

التمعت عيناها بشكل عابر. لقد خطرت لها فكرة.

«هل تعرفين شجرة الأميلانكير؟»

«أميلانكير؟ لا...»

«إنها شجرة مدهشة. شجيرة بالأحرى. وهي حالياً مزهرة. زهورها صغيرة وبيضاء على شكل نجوم، تنمو في عناقيد كثيفة تعطي الانطباع بأنها تغلف الشجرة بالبياض. إنها شجرة قوية، تستطيع تحمل درجات حرارة تصل إلى 30 درجة تحت الصفر»

وأثناء حديثها معي، أشارت لي بأن أتبعها إلى داخل المتجر. اتجهنا نحو الدفيئة الخارجية. وأثناء استماعي إليها تشكّل لدي انطباع أخذ يتضح أكثر فأكثر بأن الأميلانكير هو النبات الذي أبحث عنه بالضبط. آلاف من النجوم البيضاء...

«إنها شجرة سوف تدهشك في كل موسم. في الربيع من أجل أزهارها النجمية، وفي الصيف من أجل ثمارها الصغيرة الحلوة والمليئة بعصارة سكرية، توت الأميلانكير، الأحمر في البداية، والذي يتحول إلى اللون الأرجواني الداكن، يشبه توت العليق الصغير، ويصلح للأكل، وهو ممتاز حين يُخبز في الفطائر أو يصنع منه مربى»
كنت مقتنعة قبل الوصول إلى تلك المرحلة، لكنها أضافت موجهة لي الضربة القاضية:

«وفي الخريف، تتلون أوراق الشجرة بالأخضر البرونزي، ثم تصبح خضراء داكنة قبل أن تتحول إلى الأحمر النحاسي السمراخ»
دخلنا إلى الدفيئة. توقفت لفترة وجيزة.
«لدي بعض منها هناك...»

تبعته في طريق جانبي وتوقفنا أمام ثلاث شجيرات أميلانكير مزروعة في أصص، تزدان بآلاف النجوم البيضاء. التمتعت عيناى.

كنت أجد صعوبة في إبعاد ناظري عن شجيرتي أثناء قيادة السيارة على طريق العودة. سوف أنقلها إلى التربة اليوم بالذات فور وصولي إلى المنزل. أريد أن أراها تسكن حديقتي، وتختلط مع خضرة أشجار الصنوبر وألوان زهوري الزرقاء والخبازية. أين سأغرسها؟ أريد وضعها في مكان جيد. شمس ولكن ليس كثيراً. أريدها في مكان أستطيع أن أشاهدها فيه من خلال غرفة معيشتي، أن أدهش كل صباح عند اكتشافها. ثم فكرت... بول لديه شجرة صفصافه، والسيدة هيوغ لديها حديقته وشجرتا تفاحها، وبنجامان لديه شجرة صنوبر مقدسة. سأخصص شجيرة الأميلانكير لـ مانون. مانون الجميلة والرائعة. وابل من النجوم، وفاكهة حلوة، ويريق ألف ياقوتة...

ستأتي ماي إلى منزلي في الأول من مايو، يوم عيد العمال، في وقت واحد مع تفتح زنبق الوادي. هذا ما قالته لي كاسندرا على الهاتف، في صباح يوم جميل، أواخر شهر أبريل. كنت أعمل على الأساور والتيجان التي طلبتها زميلة جوليا. يبدو أن النماذج التي أرسلتها إليها، بواسطة جوليا، قد حازت على إعجابها، وقررت أن تعتمد لنفسها النموذج المائل إلى البياض، وتزين وصيفاتها الأربع بأساور وتيجان من النموذج الأزرق الخبازي. تلقيت طلباً غير متوقع إطلاقاً، لعشر قطع من مجوهرات زهرية، وضعني موضع المباغلة ولكنه أجب حماساً جوليا، ودفعها للقول بأنها ستشئ لي موقعاً على الويب. ومنذ ذلك الحين وأنا أمضي أيامي منهمكة بتصميم هذه المجوهرات، لأن حفل الزفاف سيكون بعد أيام قليلة، وغرس أزهار جديدة - الأضاليا، والليلك الكاليفورني، والظيان ذو الأزهار الكبيرة - لأنه إذا وردت طلبات جديدة كما تتنبأ جوليا، يجدر بي أن أكون قادرة على تلبيةها.

في هذا اليوم الجميل من أواخر شهر أبريل، أخبرتني كاسندرا بالهاتف أنها تنوي أن تعهد إلي بصغيرتها ميني بوس.

«ربما تأتي في 30 أبريل مساءً ونمضي الليل في منزلك. قال ريشار بأن لديك أريكة تصلح للنوم... هذا سيسمح لـ ماي أن تمضي عندك ليلة بحضورنا...»

«بالطبع. سأعد لكم عشاء»

«حبيبتي، سوف نغادر في صباح الأول من مايو، فقد حجزت لينا يومين في منتجع حمامات ساخنة. سنعود لأخذ ميني بوس في نهاية يوم 2 مايو، إذا كان هذا مناسباً لك. هل توجد مشكلة لديك في ذلك؟»
«بالطبع لا»

توالت النصائح والتوصيات، شعرت بأن كاسندرا قلقة بعض الشيء لأنها ستفارق ماي ثمان وأربعين ساعة. أعتقد بأن هذا عادي تماماً، وأنني لو كنت في مكانها لشعرت بالقلق نفسه.
«حسناً، لن أزعجك أكثر»، اختتمت كاسندرا حديثها في الهاتف «سأترك لك لائحة بالتعليمات، وبعد ذلك ستحدث في الأمر أثناء العشاء...»

«بالطبع»
«لا تشغلي نفسك بالتحلية، سنمر بمتجر بان دور ونشتري كعكة الفراولة.»

«حسناً. بكل سرور. إنها أفضل كعكات الفراولة في ليون...»
تهياتُ بعناية استعداداً لمجيء ماي، فقمت بتطهير تام لكل جزء من منزلي. قطفت الزهور وصنعت العديد من الباقات ووضعتها في كل مكان.

«هل ستزورك ملكة إنجلترا؟ تفاجأت جوليا عند وصولها صباح اليوم التاسع والعشرين من الشهر»
«لا، ستزورني ابنة نسيبي»

أطلقت صَفرة إعجاب معلنة بأنها لم ترَ المنزل براقاً بهذا الشكل من قبل. جاءت جوليا لاستلام الأساور والتيجان. ستكون هي من يتولى

توصيل الطلب إلى العروس ووصيفاتها مقابل عمولة صغيرة، كما اتفقنا.
أبقيت مجوهراتي في الثلاجة للحفاظ عليها طازجة.
«لقد أحضرت لك هذا» قالت جوليا وهي تخرج من حقيبتها قطعة
جميلة من ورق الحرير الرمادي بلون اللؤلؤ.

قمنا بتغليف الأساور والتيجان بعناية فائقة، كل منها على حدة.
بدت النتيجة احترافية جداً، كما أكدت جوليا عشر مرات متتالية،
بحماس متزايد.

أوصيتها: «شغلي مكيف الهواء في سيارتك لكي تبقى باردة حتى
آخر لحظة»
«حسناً»

عند عتبة الباب، سلمتني جوليا شيكاً أعدت قراءته عدة مرات لكي
أتأكد من أنني لم أخطئ القراءة. مبلغ مكون من ثلاثة أرقام، لم أكن
أتوقعه.

«هل أنت واثقة؟»

«واثقة تماماً»

«المادة الأولية ليست غالية إلى هذا الحد...»

«أما عين الفنان فهي كذلك»

تركنتني محتارةً عند عتبة بابي، واختفت حاملةً مجوهراتي الزهرية،
خلف مقود سيارتها الزرقاء. شيك من ثلاثة أرقام... أول أجرٍ أستلمه
منذ شهور طويلة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

أصبح طبق المسقعة جاهزاً على طاولة المطبخ والبخار يتصاعد منه، ولكن لدينا مشاغل أهم: أن نُدْهَش من التقدم الذي أحرزته ماي، وأن نراقبها وهي تلتقط كل شيء في متناول يدها وتضعه في فمها، ثم تتدحرج، وتتفجر ضاحكةً عند ظهور يان من خلف الأريكة. شيء جنوني كم تغيرت خلال بضعة أسابيع فقط.

«احملها ريشما أريك ألعابها»

خيل لي أنها تفعل ذلك لكي تختبرني، وتؤكد من أنني لن أوقع طفلتها عندما يديران ظهرهما. نجحتُ في الاختبار بلا مشاكل.

على أرضية مطبخي، أخذت كاسندرا تفتح كيساً كبيراً مليئاً بالألعاب. حيوانات طرية، بعضها كانت لـ مانون، كتب متنوعة اللمس، صندوق موسيقى تصدر عنه ترانيم المهد، خشخيشات من جميع الألوان ولعبة ماي المفضلة...

«دمي الماريونيت، إنها تعشقها»

«حقاً!» سألتُ بتشكك وأنا أهدق إلى الجوارب الملونة التي يفترض أنها تمثل أسداً وكلباً وفتاة صغيرة.

«نعم. يان ماهر في ذلك. يعزف لها مقطوعة قصيرة كل مساء، مستخدماً عدة أصوات، فتفجر ضاحكةً، سوف ترين»

الحقيقية الثانية التي فتحتها كاسندرا أمامي كانت تضم حوضاً بلاستيكيّاً لحمام ماي مع مستلزمات الاستحمام الأساسية: صابون مناسب للأطفال، قفاز من الألياف الدقيقة، ضفدع عائم ينفث الماء، وسجادة مانعة للانزلاق.

«هل تريد أن نحممها معاً؟ ستكونين هكذا قد تمرّست في الأمر من أجل مساء الغد»

«أجلستنا ماي داخل حوض استحمامها، الذي أنزلناه بدوره داخل حوض استحمامي»

«سوف تببلين في جميع الأحوال، أخبرتي كاسندرا. أنا أرتدي مايوه السباحة مباشرة في بعض الأحيان»

حسناً. ها قد اكتسبت علماً. غسلنا الجسد الصغير الممتلئ والطري، الذي كان ينتفض عند ملامسة قدميه ويحرك رأسه عندما نفرك وجهه بالقفاز.

أظن أنني في المحصلة أبلت بلاءً حسناً، لأن كاسندرا تركتني أجفها وأنظف أذنيها، وأضع لها حَفُوضَتَهَا وألبسها بيجامة مبطنة بالصوف. عندما خرجنا إلى الردهة، كان يان قد انتهى للتو من تركيب سرير السفر الذي أحضروه ووضَعُوهُ في غرفة نومي، حيث سينام ثلاثتهم هذه الليلة. «يمكنك أن تضعيه لاحقاً في الصالون، إذا كنت تفضلين ذلك. الأمر عائد لك»

بعد أن علمتُ بأن ميني بوس سوف تنام معي، انتابني خوف شديد من أن يحدث لها شيء.

«حسناً، قالت كاسندرا. سأضعها في السرير، ويعد ذلك يمكننا نحن الكبار أن نتناول العشاء بسلام»

عزلت نفسها في غرفتي لكي تُرضِعها رضعة المساء بينما ذهبنا أنا ويان إلى الصالون.

«هل تريد الجلوس؟» اقترحتُ عليه وأنا أسحب له كرسيّاً.

جلس على الكرسي. أخرجت زجاجة نبيذ من خزانتي وبقية من النبيذ الأبيض الحلو من الثلاجة.

«ماذا بشأن عملك في الشركة؟» سألتُه وأنا أضع أكواب المشروب على الطاولة.

«أعتقد أنهم سيخفضون راتبي»

«سيخفضون راتبك؟»

«إنهم لا يحبون الأشخاص الذين ينصرفون في تمام الساعة الخامسة يومياً»

«ولكنك تنجز عملك، أليس كذلك؟»

«طبعاً. أنجزه بالجودة نفسها التي ينجز بها الآخرون عملهم. ولكن ليست هذه هي المشكلة. في هذه الشركات الضخمة، يتعلق الأمر بمن يبقى حتى الساعة الثامنة في بهو الموظفين»

تنهدت بمرارة لكي أظهر له تعاطفي، لكنه تابع:

«لا يهمني، أعتقد أنهم سيخرجوني من المشروع الجديد ويعيدوني إلى البحث والتطوير في أحد تلك المشاريع التي لم تتحرك إلى الأمام منذ سنوات»

«هل سيضعونك جانباً؟»

«حتماً. ولكن هذا سيسمح لي بالانصراف في ساعة أبكر أكثر كل

يوم»

أخذ يتسّم. لقد تغير. ربما يكون هو الشخص الذي تغير أكثر من بيننا نحن الخمسة. أعتقد بأن بنجامان كان سيفخر به. لقد ولت أيام الجندي الصغير الذي يتقاضى أجراً من صناعة الأدوية ولا يحقق نجاحاً كبيراً.

«وهل عادت كاسندرا للعمل في المستشفى؟»

«في الأسبوع الماضي»

«وكيف كانت العودة؟»

«جيدة. بل ممتازة. صحيح أنها ظلت تُرَدَّد بأنها سعيدة بإجازة الأمومة، إلا أنني أعتقد بأنها كانت تفتقد لأحاديث الأطباء والمرضات»
«وكيف حال ريشار؟»

«إنه أفضل. أصبح يخرج أكثر من ذي قبل، ويذهب إلى بيت الشباب والثقافة لحضور تدريبات شاب من تلاميذ بنجامان، يدعى ميكا على ما أظن»

«ملأتُ كأسينا بالمشروب وأنا متفاجئة بالخبر ولكنتي سعيدة. تناول يان كأسه قبل أن يسألني بدوره:

«وأنتِ؟ إلى أي تاريخ تمتد إجازتكِ غير المدفوعة؟»

«قبل الإجابة آثرتُ أن أتناول جرعة من النبيذ، فهذا يساعد على مواجهة الأسئلة الصعبة.

«نظرياً حتى شهر يوليو»

«آها...»

«نعم»

«شعرتُ من خلال ردة فعله أنه يطلب مزيداً من الإيضاحات، ولكنها لم تكن متوفرة لدي. لم أتصل أبداً بمديرتي في الموارد البشرية رغم الرسالة الصوتية التي تركتها لي قبل أسبوعين. أرادت فيها أن تعرف أين أنا، وإذا كنت أخطط للعودة، وإذا وجدت شيئاً آخر... لكنني حاولت كسب الوقت. تظاهرتُ بأنني غير موجودة..

«هل تتدبرين أمرك؟ أعني... من الناحية المالية؟»

رشفة أخرى من الخمر. اقتربت من إفراغ كأسِي.

«نعم. لا يزال لدي ما يكفي لبضعة أشهر. الإيجار ليس باهظاً وأنا لست مسرفة حقاً. وأعتقد بأنني وجدت طريقة لكسب بعض المال»
ارتفع حاجباه عالياً. لقد أثرت فضوله.

«أصوغ مجوهرات من زهور حديقتي. مجوهرات مؤقتة تدوم مدة حَدَث»

«شيء مبتكر»

حاولت أن أستقرئ على وجه يان تشيكياً ما، لكنني لم أر شيئاً.
شرب رشفة من النبيذ وقطب حاجبيه مجدداً:

«وماذا عن المصوغات الدائمة؟»

«عفواً؟»

«هل فكرتِ بابتكار مجوهرات زهرية دائمة؟»

«في الحقيقة، لا... من خصائص النبات أنه لا يدوم...»

«طبعاً. طبعاً. ولكن لا بد من وجود تقنية لتجميد الزهور في الزمن»
كان من يتكلم الآن هو المهندس.

سألته: «مثل تقنية صنع الورود الأبدية؟»

«أشكّ بإمكانية اللجوء هنا إلى طريقة تجفيف النباتات عن طريق التجميد، ولكن لا بد من وجود تقنيات أخرى...»

في تلك اللحظة ظهرت كاسندرا مجدداً، وهي تغلق أزرار بلوزتها بهدوء.

«لم تكن ميني بوس جائعة»

تركت ثقلها يهوي أماننا فوق أحد الكراسي. نهضت لكي أقدم لها مشروباً فاتحاً للشهية خالياً من الكحول - لضرورات الرضاعة الطبيعية - وسمعتها تسأل:

«ما هذا الحديث عن التجفيف عن طريق التجميد؟»

كم هو جميل أن يتواجد كلاهما هنا في مطبخي. كاسندرا، التي تطوي ركبتيها إلى صدرها، وتغرف من طبق المسقعة، بملعقة صغيرة، لأنها «تتضور جوعاً»، ويان الذي يحرك مكعبات الثلج في كأس نبيذ البورتو، متكئاً إلى ظهر مقعده، وأنا، التي أجلس في مقعدي مرتبة الساقين، أداعب قطتي الرمادية التي لاذت بحضني.

كان غياب بنجامان لايزال يخيم فوق رؤوسنا، لكننا كنا في غاية الهدوء والاسترخاء. هذه هي المرة الأولى التي نقرب فيها إلى هذا الحد مما كنا عليه قبل الحادث: كنا نشعر بالارتياح، بالسعادة لتواجدنا معاً، نبسم ونتصرف بتلقائية.

عندما بدأنا نتناول المسقعة من الطبق مباشرةً تخلطُ عن فكرنا إخراج الأطباق - تحدثنا عن بنجامان، عن هزيمته الساحقة في لعبة السهام، عن مهرجان Sun Ska Reggae⁽¹⁾ الذي أخذنا إليه قبل عامين.

بقينا جالسين حول الطاولة حتى الواحدة صباحاً، نتذكر بنجامان، ونتحدث عن ماي. قامت كاسندرا التي تتضور من الجوع، بالتهام المسقعة.

«إنها الرضاعة الطبيعية» كما برّرت.

(1) مهرجان موسيقي ضمن نهج يحافظ على البيئة.

أتينا على كعكة الفراولة والنبيد. وفي حوالي الساعة الواحدة، أعلن
يان أخيراً، وقد غلب عليه التعقُّل:

«يجدر بنا أن نذهب إلى النوم. أمامنا طريق طويل غداً»

نهض الاثنان وهما يتشاءمان قليلاً. لفَّ يان ذراعه حول وسط كاسندرا
التي استسلمت له. ورغم أنهما أعاداني إلى زمن الثنائي المقتول، الذي
كنت أشكِّله مع زوجي، كنت أشعر بالسعادة لوجودهما في منزلي.

«إلى الغد، أتمنى لكما أحلاماً سعيدة»

«تصبحين بخير»

شاهدتهما يختفيان في غرفتي في آخر الممر. كنت لا أزال في حالة
سُكر طفيف وذهبتُ للنوم بكامل ملابسي فوق أريكتي التي لم تُفتح
بعد.

في بداية شهر مايو، يتضح من التقاويم العشرة على جدران غرفة
معيشتي بأن لوسي هيوغ كانت لا تزال منهمكة جداً بمهام زراعة بصيالات
الصيف، وأخذ العُقل من الزهور، وتوضيب مساكب للجيرانيوم، ونثر
بذور الجزر، وزراعة الطماطم، وتقليم شجرتي التفاح... أنا أيضاً مشغولة
خلال هذين اليومين الأولين من شهر مايو، لكن مهامني تندرج ضمن
نوع مختلف. إرضاع الطفلة من زجاجات الحليب. تغيير حفاضاتها،
هز الخشخيشات لها، ولعب الغميضة معها بإخفاء وجهي بين يديّ،
ومشاهدتها وهي تنفجر بالضحك، تعريفها على القطة، ومراقبة الفضول
في عينيها.

«هذه قطتي، يا ميني بوس. هي التي تبْتَنِّي وليس العكس. القطط
تفعل هذا أحياناً. تعالي يا ميني بوس لأريك الآلاف من النجوم
البيضاء»

حملتُ ماي بين ذراعي حتى شجيرة الأميلانكير. رحت أنظر إليها وهي تقتلع النجوم البيضاء بأصابعها الصغيرة، وحين أنفخ عليها تطير النجوم في سحابة متناثرة، فتتألق عيناها. أخذتها إلى شجرة الصنوبر المقدسة، وبصوتٍ ممتلئ بالتأثر، قدمتها إلى بنجامان.

«بن، إنها ميني بوس،... إنها هي، ابنة أخيك. انظر كم هي جميلة»
لم تكن ميني بوس، المحشورة بين ذراعي، تفهم الكثير عن شجرة الصنوبر المقدسة، وراحت تأكل يديها.

«إنه أمر غريب بالنسبة لك، أليس كذلك، أن تراني أحمل طفلة بين ذراعي... هو كذلك بالنسبة لي أنا أيضاً... إنني سعيدة جداً لأن كاسندرا وأخيك تركاها معي... أنا أعنتي بها جيداً، كما أعتقد. أبذل قصارى جهدي على أية حال. الآن حان وقت قيلولتها، ولكنني بعد ذلك سأصنع لها الدمي... إنها تعشق الدمي»

عندما نامت ماي، لم أجرؤ على الخروج خشية ألا أسمع صوت بكائها. بقيتُ في غرفة معيشتي ولكنني كنت آتي وألصق أذني على باب غرفة نومها كل عشر دقائق.

اخترعتُ لها عروضاً لدمي على شكل أسود تريد اصطياد الفتيات الصغيرات، وكلاب تنقذ الفتيات الصغيرات عن طريق تخويف الأسود وجعلها تهرب بعيداً. في الحمام، اخترعتُ لها قصة الضفدع الذي يخاف من الماء، لكنه مضطر أن ينظف نفسه. لم تكن تفهم شيئاً ولكنها تضحك. كانت تضحك من أعماقها ضحكة خلابة، ضحكة طفولية تجعلني أتلوى بدوري من الضحك حتى يسيل الدمع من عيني. لقد أحببتها فعلاً. وبالكاد أستطيع أن أتخيل كم سأحبها عندما يصبح عمرها سنتين، ثم خمس سنين ثم ثماني سنوات، عندما ستأتي في

أوقات العطلة إلى المنزل وتساعدني في زراعة أبصال زهوري، عندما سأعدُّ لها فطائر تاتين، ثم نذهب للنزهة عند شلالات سيه.

أود لو أن يان وكاسندرا لا يعودان أبداً. ذهبنا إلى الأرجوحة، جلسْتُ على المقعد، وهي في حضني. أخذت تصرخ مبهجةً، وعندما أتوقف، تصفق بيديها لكي أواصل. وأثناء تناول رُضْعَتِها من الزجاج، وهي تخرخر من الرضى، بعينيها نصف المغمضتين، كنت أقبّل شعرها الطفولي وأحسب الساعات المتبقية لنا معاً.

في بعض الأحيان كانت صورتاهما تمتزجان معاً فلا أعود أعرف إذا ما كنت أستنشق رائحةً ماي الطفولية أم رائحة مانون؛ عندها، كان يكفي أن أنظر إلى عينيها الزرقاوين الداكنتين، عيني كاسندرا، لكي تتلاشى صورة مانون.

نعم، أود لو أن يان وكاسندرا لا يعودان أبداً، ومع ذلك كنت سعيدة برؤيتهما، في مساء الثاني من مايو، على عتبة منزلي، ببشرة مرتاحة، وعيون مشرقة. أعتقد أن فترة الاستراحة هذه كانت مفيدة لهما. أخذا يقبلان ماي بقوة، ويحضنانها، وأنا أجاهد كي أكون عقلانية. لكن الأمر بقي مؤلماً...

«كيف كانت التجربة؟» سألتني كاسندرا وهي تقبّل يديها الصغيرتين الممتلئتين.

«كانت ممتازة... حقاً...»

أعتقد بأنها شعرت بتأثري لأنها مرت بيدها فوق خدي وأعلنت: «لقد نجحت في الاختبار. يمكنك الآن أن تصبحي جليسةً رسمية لطفلتنا. وستكون لك الأولوية المطلقة من بين كل أفراد عائلتنا. هذا وعد»

ابتسمت لها بتأثر وأنا أحاول ابتلاع دموعي.

«ونريد أن نراك أكثر» أضاف يان.

«والأ سنسحب منك اللقب» أكدت كاسندرا.

كان هذا هو مطلبي بطبيعة الحال. لذلك عاهدتهما بصوت مرتعش.

«حسناً... أعدكما بذلك... سوف تريانني مرات أكثر»

«لا تبك يا أماندا» قال لي يان محدراً.

«لا، لا، لن أفعل»

ضحك وشدني إليه، وعند ذلك أخذت أبكي بحق على كتفه، وهو

يربت فوق شعري.

خلال شهر مايو، خرجتُ من منزلي أكثر مما فعلتُ في عام كامل. قمتُ بزيارة العديد من محلات بيع الخضروات لشراء الشتلات والبصيلات. ذهبتُ إلى الطبيب البيطري لفحص قطتي. ذهبت بعد ذلك إلى الصيدلية لكي أشتري لها أدوية مضادة للديدان وأخرى وقائية ضد البراغيث. وينبغي في وقت آخر أن أذهب إلى متجر أدوات البستنة، فقد أحرزتُ تقدماً كبيراً في هذا المجال لدرجة أنني أصبحتُ الآن بحاجة إلى أدوات أكثر تطوراً. قمتُ أيضاً بتجديد خزانة ملابسِي. علي أن أواجه الحقائق: الوزن الذي فقدته بعد حادث بنجامان لن يعود. على الأرجح أنني لن أستعيد على الإطلاق قوامي، ولم أعد أريد أن أطفو في بنطلونات أكبر بكثير من مقاسي الجديد.

رغم كل شيء ما زلت أقتصر على نزعات منخفضة المخاطر، مع القليل من التفاعل الاجتماعي، ولكنها خطوة أولى.

عادت جوليا في منتصف الشهر، وكانت كل نوافذ سيارتها توينجو الزرقاء مفتوحة، والريح تعبث بشعرها. كنت في الحديقة وأقبلتُ مسرعةً مثل إعصار.

«أماندا، لم أستطع المجيء قبل اليوم، لقد أرسلوني إلى جهات مارسيليا للبحث عن زبائن جدد، إجازة مبكرة، ولكن على الورق فقط، لأنني في الحقيقة ركضت لمدة أسبوعين دون توقف. لعلمك، أهل مارسيليا متشددون في مجال الأعمال»

توقفت أخيراً عن تقبيلي وعن إمعان النظر إلي.

«كيف الحال؟»

«لا بأس»

«لديك أدوات جديدة؟»

«نعم»

«حسناً. عندي طلبات جديدة لك»

«ماذا؟»

تركْتُ مجرفتي جانباً ومسحتُ يدي المليئتين بالتراب، فوق بنطالي الجديد.

«آسفة، لم أجد وقتاً كافياً لتقديم ملاحظاتي لك بشأن مجوهرات الزهور الخاصة بالزفاف. لكن نالت إعجاب وصيفات العروس بقدر ما نالت إعجاب العروس نفسها. كانت ابنة عم العروس موجودة بالطبع، وهي ستتزوج في يونيو، وهي تريد أن يكون لها التاج نفسه. أما بشأن السوار، فهي تريد فيه أطيافاً من اللون الوردى. هل لديك شيء من هذا القبيل؟»

لقد باغتتني، كما هو الحال في معظم الأحيان.

«وردي؟»

«نعم، وردي»

«لا. أقصى ما لدي هو أزهار توليب... حمراء وصفراء... وليس بينها لون وردي. يتعين انتظار تفتح الأضاليا. لقد زرعْتُها منذ أقل من شهر...»

«سنجد حلاً، لا تشغلي بالك»

رحت أبتم من حجم أنخراطها في هذا المشروع.

«نستطيع إحضار أصص ورود مزهرة. وبهذه الطريقة تكملين مجموعتك وتضيفين التنوع على عروضك. لأننا لن نتوقف عند هذا الحد.

«حقاً؟»

أخرجت هاتفها المحمول من الجيب الخلفي لبنطالها الجيتز، فتحتة، وأخذت تستعرض بعض الصور.

«سمحتُ لنفسي بالتقاط صور لمجوهراتك ونشرتها على وسائل التواصل الاجتماعي لجس النبض»
«ماذا؟»

يجب عدم التقليل أبداً من شأن الإصرار الذي تتحلى به جوليا. سيكون هذا درس اليوم.

«لا تخنقي نفسك يا أماندا. الناس يسألونني إذا كان لديك متجر للبيع على الأنترنت لكي يطلبوا مصوغاتك من خلاله»
لم تستطع عيناى المذهولتان قادرتين على الحلقة لفترة أطول. كانت جوليا في قمة السعادة.

«هذا مؤشر إيجابي جداً، إنه يعني أن هناك طلبات»
كنت مذعورة قليلاً، على ما أعتقد. حماسة جوليا. المفاجأة. عام بلا عمل، منظوية على نفسي في هذا البيت القديم.

«سوف نوسع الحديقة، ونقيم بيتاً زجاجياً. سوف نشترى نباتات مزروعة في أصص، سيكون بمقدورك أيضاً أن تُكثري منها داخل المنزل خلال فصل الشتاء»

أظن أن الأمور بدأت تسير بسرعة صاعدة، حتى كدتُ أختنق وسط حديقتي. لاحظت جوليا ذلك ولفَّت ذراعها حول ذراعي.

«تعالى، دعينا نشرب شيئاً بارداً، الجو حار جداً»

وما أن أصبحنا في الداخل، أمام كأسين من عصير البرتقال، حتى هدأت جوليا وتباطأ إيقاعها.

«أردتُ أن أنقل لك خبراً آخر، لكن الانفعال الذي أصابك اليوم كافٍ. لا أريد أن أسبب لك جلطة»

كانت بالطبع توجه لي سخرية لطيفة.
أكدت: «إنها حماسك الشديدة. هجمتِ علي مثلما يقفز جرو صغير فوق صاحبه»

«إنه طابع الجدة فيك» ردت جوليا.

«جدة؟»

«نعم. جدة تخاف من أي تغيير في عاداتها. وعندما يكون هناك شيء جديد، تضيق في الحال»

شعرتُ بالاستياء لكنني حاولت ألا أظهر ذلك.

«لم يسبق لي أن أسستُ أي مشروع»

«ولا أطلب منك أن تفعل ذلك. أنا سأتولى الجانب الإداري. وليس

عليك أنت سوى أن تبديعي»

«ما الخبر الآخر إذن؟»

استسلمتُ هذه المرة، راضيةً بانتصارها:

«سيقام معرض للفنون والحرف اليدوية في كليرمون فيران في يومي العاشر والحادي عشر من يونيو. خطر لي أن بإمكاننا أن نعرض

مصوغاتك فيه»

«نعرض فيه؟»

«أن يكون لنا منصة نعرض إبداعاتك عن طريقها. ستكون فرصة فريدة للتعريف بنشاطك»

«ولكن...»

رفعت عينيها نحو السماء بغیظٍ زائف:

«ولكن؟»

«حالياً، ليس لدي ما يسمى نشاط بالمعنى الحرفي للكلمة... إنها بضع طلبات فردية»

«وهو ما أقصده بالضبط»

«هو ما تقصدينه؟»

«سيكون ذلك فرصة لخلق منظومة اقتصادية لك، وإعطائها اسم، حجة قانونية، فرصة لإنشاء موقع إلكتروني لك...»

«أنا لا أ...»

«سأتكفل بذلك، كما أخبرتك. إذا كنتِ موافقة طبعاً»

لزمْتُ الصمت للحظة، فيما راحت جوليا تنظر إلي، بانتظار جوابي. كنتُ أراقب عبر النافذة شرائط القماش المتطايرة فوق شجرة بول. فكرتُ بالمكالمة التي تلقيتها من مديرة الموارد البشرية، وبقيتُ دون رد من جانبي، وفكرتُ بما قلتهُ لـ يان في تلك الليلة، حول اقتراحه في جعل أزهارى دائمة لتحسين عروضي، ثم فكرتُ بـ لوسي هيوغ التي كانت تقوم، هنا بالذات، في منزل سعادتها، بتصميم فساتينها وساترها وأغطية أسرّتها. كانت تغادر إلى المدينة مرة في الأسبوع لكي تودع إبداعاتها في المتاجر. وأعتقد أن هذه الفكرة الأخيرة هي التي جعلتني في النهاية أحسم أمري.

«حسنًا. أنا موافقة»

بدت جوليا راضية. خمننا هذا الاتفاق بمصافحة رسمية.
«يجب أن أحذرك، يا عزيزتي أماندا، سيكون هناك أناس في هذا
الصالون. الكثير منهم. مئات من الزوار. لا داع للذعر»
فضّلتُ أن أتجاهل الأمر ونهضتُ لملء كُوب جديد من عصير
البرتقال.

«لا تتجهمي. أساساً أنا نسيت أن أخبرك بذلك في خضم
المستجدات... تبدين رائعة بأدواتك الجديدة»
هذه هي جوليا. إنها مثال للرعاية التامة.

كان الراديو المحمول يبيث أغنية «أنت فقط» لـ فرقة Platters،
وهي واحدة من أغنياتي المفضلة. لقد كان لدي دائماً ضعف تجاه
أغاني الزمن القديم. لا بد أن جوليا كانت على حق بشأن طابع الجَدّة في
شخصيتي... ولكنني لم أهتم، ورحت أغني بأعلى صوتي في حديقتي
من فوق كلمات الأغنية. أخذ الطقس يتحول ببطء وهدوء إلى طقس
صيفي. بدأت نباتات الطماطم تنمو بلمح البصر. سوف تزهر نباتات
الأضاليا قبل الموعد المتوقع. وأولى أزهار الفراولة تحولت أخيراً
وشكلت ثمار فراولة خضراء صغيرة، ستمتلئ مع الأيام بأشعة الشمس
وتتحول إلى لون أحمر جميل. سوف أضطر إلى الانتظار لفترة أطول
قليلاً، ولكن ما الذي تعنيه بضعة أسابيع مقارنة بما أنجزته في الحديقة؟
لقد أسعدني الخبر وبدأت أغني من جديد، وأغطي الصوت القادم من
الراديو.

ثمار الفراولة والشمس والقمر المكتمل الليلة وأيضاً المجوهرات التي صممتها والتي تنتظر اللحظة الأخيرة لكي تُشكّل، ملأنتني بالفرح. اللون الوردي لم يعد مشكلة. بناء على نصيحة جوليا، اشترت بعض بصيلات اللحاح التي كانت مزهرة وغرستها في التربة. لقد أضفت البهجة على حديقتي وسيبدو مظهرها مثالياً في سوار العروس. قررت جوليا الآن التركيز على صالون الفن الذي سيقام في العاشر والحادي عشر من يونيو. إنها تلاحقني عند كل منعطف، وتطلب مني كل أنواع الوثائق الداعمة لإنشاء شركتنا. وتؤكد لي أن كل شيء بسيط للغاية:

«هذا من أجل تسجيل شركتنا»

تركناها تتولى الأمر. لدي ما يكفي للقيام به هنا بعد الانتهاء من أعمال البستنة، سيتعين عليّ الاهتمام بطقوس اكتمال القمر هذه الليلة، وبالشموع المعطرة التي سأنشرها لأجل ذلك، عند جذع شجيرة الأميلانكير.

أردت الذهاب آخر النهار إلى شجرة الصنوبر المقدسة قبل المباشرة بالشموع المعطرة. وجددتني واقفة فوق الكرسي الصغير، أمدّ عنقي إلى أقصى ما أستطيع، وعيني مليئتان بالدهشة. «يا إلهي، لا أصدق ما أراه يا بن...»

كنت أعلم أن شيئاً ما يحدث داخل التجويف... لقد اختفى الذكر، وراحت أنثى طائر أبي الحناء تراقبني على نحو غريب، وتطلق صرخات غير عادية عندما رأتني قادمة

«أليس هذا أمراً لا يصدق يا بن! يوجد هنا...»

ضيقْتُ عينيّ وحاولتُ عدّها.

«خمس. يوجد خمس»

خمس بيوض يميل لونها إلى الأزرق المرقط ببقع حمراء، مختبئة في العش، أسفل التجويف. خمس بيوض في شجرة صنوبر المقدس. تأمل هذه البيوض يعادل بجماله تأمل تفتح أزهارى أو تشكل ثمار الفراولة الخضراء. الحياة هي التي تختبئ في كل مكان حول منزلى القديم.

لم أكن مرتاحة في وقتى، لكنني بقيت على هذه الوضعية لعدة ثوانٍ، أمام النظرة الحذرة للأُم.

«أنتِ من أنتجتِ لنا كل هذا؟ بمفردك؟»

كانت عيناها المدورتان السوداوان، تنظران إلي.

«أحسنيتِ. عملٌ جميل. خمسة فراخ دفعة واحدة...»

أخذ رأسها يهتز قليلاً، وكان يطيب لي الاعتقاد بأنها تفهم كلماتي وتتفاعل معها، ولكنني تخيلت بأنها كانت تغير زاوية مراقبتها لي لكي تتمكن بالدرجة الأولى من رؤيتي بشكل أفضل.

«لا تقلقي. لن أؤذي صغارك. أنا أعلم ما هو الأمر... سأنزل أساساً.

اتفقنا؟»

قفزتُ عن الكرسي وأعدته إلى مكانه السابق، مع وضع الوسادة الزرقاء الصغيرة عليه.

«جئتُ لكي أكلّم بن فقط، لا لكي أزعجك...»

كان الليل قد خيم تقريباً حين عدتُ إلى المنزل، ولكن وقتاً طويلاً كان قد مر منذ أن تحدثت آخر مرة إلى بنجامان. أعددتُ وجبة عشاء أثناء قيامي بإذابة كمية متبقية من الشمع لصنع شموعي. لكنني تسببتُ بإحراق أصابعي فانقلب وعاء الشمع فوق البلاط. صببتُ سيلاً من

اللغات والشتائم. لكنني تمكنت من صنع حوالي عشر شموع داخل أغطية زجاجات بلاستيكية قديمة. هذه الليلة، أريد أن أضع شموعاً حول جذع شجرة الأميلانكير، ليس تكريماً للموتى، بل ستكون بمثابة شكر لجميع الأشخاص الذين عرفتهم الذين أناروا حياتي في الأشهر الأخيرة، والذين يستحقون اهتماماً خاصاً. كل الأشخاص الذين أريد أن يرعاهم القمر، كما يرعاني...

هكذا، تناولت طعامي بسرعة وأنا أشاهد القمر يرتفع ببطء في السماء المظلمة. كانت القطة تجلس على حافة النافذة، وتنتظره أيضاً.

عندما خرجتُ كان في قلب السماء. كانت حديقتي ساكنة. وحدها أشجار الصنوبر تهتز قليلاً في نسيم المساء الخفيف، فيما تجمدت أغصان الصفصاف وعادت أوراقه تغطي الشجرة. وبهذه الطريقة بدت شجرة بول أقل كآبة، وأشد نضارة، وأكثر بهجة. بشكل عام، بدت المنطقة المحيطة بمنزلي مختلفة الآن بعد أن جاء الربيع.

كان العشب الطويل يكتم صوت خطواتي. تسلفت القطة الرمادية في ظلي، على نحو خاطف وصامت.

ها قد وصلنا. ها هي شجيرة الأميلانكير. كانت نجومها البيضاء تعكس ضوء القمر الفضي. كانت جميلة هكذا، أكثر منها في وضوح النهار، وهي تسبح في هالة غامضة. أمسكت ببعض النجوم الصغيرة بين أصابعي، ورحت أتخليلها خاتماً في إصبعي، أو قرطاً في أذني، أو سواراً في معصمي أو طوقاً حول عنقي. يجب أن أجد طريقة لجعلها أبدية. مهما كلف الثمن. سأهتم بهذه المسألة لاحقاً. أما حالياً فعليّ أن أشعل شموعي. شمعة لكل شخص أفكر به.

الشمعة الأولى ستكون مخصصة لـ ريشار. لماذا؟ لا أدري. حتماً من أجل لحظات ولادتي. أعتقد أن تلك اللحظات قد أوجدت بيننا شيئاً هو أقوى من مجرد الامتتان الذي أدين به إليه. هكذا أشعلت شمعة أولى لأجل ريشار، لكي يتعافى ويصبح تعافيه مستداماً، بل نهائياً. الشمعة الثانية لأجل آنا. آنا التي يقترب موعد دروسها على شاطئ البحر، وتبحث عن شعلتها في عيون أبناء الآخرين، وهي التي فقدت ابنها. شمعتان أخريان لكاسندرا ويان. أتمنى أن يبقيا أفضل والذين عرفتهما، وأن يستمر أحدهما في حب الآخر، وأن يفيا بما وعداني به. أريد أن أحافظ على أولويتي القصوى.

شمعة لأجل ماي. ميني بوس. إنها هي التي سيتعين على القمر أن يرهاها بأقصى قدر من الحرص. جثوثُ بضع ثوانٍ لكي أتأمل شمعاتي الخمس المتوهجة في الليل.

مازال هناك أشخاص يجب أن أشعل لهم الشموع. الآن شمعة لأجل جوليا، إعصار الحياة الذي هبط في منزلي دون دعوة، الحريصة على هذا الكوخ القديم حرصها على بؤبؤ عينها، والتي لم تجد حرجاً على الإطلاق في استخدام الملقاط لإخراجي من منطقة راحتي. « فلنشفق على الحماثم التي لا تتزواج إلا في الربيع ». شكراً لك جوليا. آمين.

شمعتان أخريان أشعلتهما وأنا أبتسم. لأجل ميكا، بالطبع، ميكا ولولا. لكي يدوم الحب بينهما لسنوات عديدة قادمة، لكي يتذكراني من وقت لآخر، أو، على الأقل، لكي يتذكرا المرج المعشب في حديقتي. كيف ستبدو الحياة بدون تلقائيتهما؟

بقي لي شمعتان. أشعلت الشمعة التاسعة، على مضض إلى حد ما، لأجل والدتي. لم نستطع التفاهم أبداً، ولكنها أحضرت لي الراديو

المحمول... عندما نريد التصالح مع أنفسنا، سنعثر دوماً على سبب مقبول. والراديو المحمول سبب مثل غيره من الأسباب. انضمت أُمِّي إذن إلى دائرة الكائنات التي عهدت إلى القمر برعايتها. الشمعة العاشرة، كان بإمكانني أن أهديها إلى دانييل. ليس من أجل وصفة طبق نقانق روغاي الذي يعدّه، بل لكي يعتني بها. لكي تتمكن أخيراً من الوصول إلى الحب الحقيقي.

إلا أنني لم أستطع أن أشعلها لأجله. بقيت إيليا، التي كانت ذات مرة منافستي. لم أخصص لها شعلتي العاشرة بسبب رسائل الدعم التي تلقيتها منها بعد وفاة بنجامان، ولا بسبب دعوتها لي إلى مقهى جيمس، بل خصصتها لها قبل كل شيء بسبب المكانة التي شغلتها بجانبه كل هذه السنين. لم يكونا مجرد زميلين. بل كانا صديقين. جمعت بينهما صداقة متينة وصداقة. إنها تستحق شمعتها. عساها تنفجر مجدداً بالضحك بأعلى صوتها.

أمضيتُ نصف ساعة كاملة في مراقبة لهب الشموع العشر، الذي يرتعش في الليل، وشجيرة الأميلانكير السابحة في ضوء القمر. عشر شعلات. عشرة وجوه. أعتقد أنني لم أدرك حتى تلك اللحظة وجود كل تلك الشعلات المتوهجة من حولي...

لم أسمع سيارتها قادمة، فقد كنت في الغابة، بالقرب من شجرة الصنوبر المقدسة. لقد فقت البيوض في عش أبي الحناء. لم أرها. بل سمعتُ زقزقة صغارٍ حادة للغاية. لم أجروا أن أقف متطاولاً فوق الكرسي الصغير لكي أراقب عن كثب. لأن من المحتمل أن يسبب هذا بصدمة للأُم وللصغار.

«بحثتُ عنكِ في الأرجاء»

بدت جوليا مستعجلة وقلقة، لكن ابتسامتها كانت حاضرة بطبيعة الحال. قبلتني واستدارت على عقيها وهي تشير لي باتجاه سيارتها.
«أحضرتُ المواد اللازمة لأجل صالون الفنون»
«مواد؟»

«ركائز. صندوق زجاجي جميل لعرض مجوهراتك. مفرش الطاولة ومنصة العرض. اخترت لوناً وردياً باهتاً. ما رأيك؟»
تبعثها بصعوبة إلى سيارتها، وهي تهولول رغم حداثتها ذي الكعب العالي. فتحت صندوق السيارة. كانت هناك المنصة ومفرش الطاولة، بلون وردي جميل وأنيق للغاية. وافقت بشدة.

«سنستخدم اللون نفسه من أجل الهوية البصرية، لمشروعنا، أضافت. سنستخدمه في المطبوعات، والموقع الإلكتروني، وبطاقات التعريف. لا نستطيع الانتظار لفترة أطول أساساً. نحن بحاجة ماسة إلى اسم للكيان الذي سنعمل في إطاره، لك مطلق الحرية في الاختيار. هل فكرت في شيء ما؟»

ابتلعتُ لعابي. بالطبع فكرت في شيء ما، وكنت أتوقع مقدماً أسئلة جوليا.

«نعم، لدي... لدي فكرة»

«جميل! أخبريني!»

إذا تصرفْتُ بأكبر قدر أستطيعه من التلقائية، فمن المحتمل أن يمر الاقتراح وألاً تفكر بالاستفسار...

«أزهار مانون. أتمنى أن يكون هذا هو اسمنا»

ارتفع حاجباها من الدهشة. لم ينجح مسعاي، ولا مفر من أسئلتها. كان استغرابها منطقياً تماماً. مَنْ هو الشخص الذي لن يستغرب؟

«أزهار مانون؟»

ابتلعتُ لعابي محافظةً على هيئة حيادية تماماً.

«نعم»

«لماذا مانون؟»

كنت أفضل لو أنها سألتني من هي مانون؟ ولكن السؤال في نهاية المطاف، يصب في الغاية نفسها.

«لأن... هل... هل ترغيبين بفنجان قهوة؟»

لا بد أنها لمستُ بأن سؤالها سبب لي الاضطراب، لأنها أومات بالموافقة دون نقاش، وعدنا إلى داخل المنزل. فضلتُ أن أعترف لها أثناء سيرنا.

«أخبرتكَ عن تعرض بنجامان لحادث في شهر يونيو الماضي... هل تذكرين؟»

لم ألتفت. كانت تسير خلفي وأجابت في النهاية:

«نعم»

«حسناً... أنا كنت أنتظر مولوداً... بنت صغيرة»

استطعتُ أن ألتقط بوضوح أنها توقفت عن السير، لكنني رفضتُ الالتفات، ودخلتُ إلى مطبخي كي أنشغل، على نحو قهري، بإعداد القهوة.

«لم تخبريني بذلك أبداً...»

انضمت إليّ لكنني بقيت منهمكة أمام آلة القهوة، دون أن أستدير نحوها.

«أدت الصدمة إلى حدوث انقباضات مبكرة»

لم تجد في البداية ما تجيب به، ثم سألت، رغم عدم جدوى السؤال،
لأنها أصبحت تعرف الجواب:

«وكان اسمها مانون؟»

«نعم»

لم نصف شيئاً إلى أن ملأْتُ الفلتر وشغَلْتُ الآلة. عندما اضطررتُ
للالتهفات وجدتها جالسة إلى طاولتي، تسطر شيئاً ما في دفتر ملاحظاتها.

«ماذا تفعلين؟»

«أتخيل مطبوعاتنا، أزهار مانون بحروف كبيرة، بيضاء، مائلة،
وطباعة جميلة على نمط دفاتر المدرسة، وزهرة داخل حرف O من
Manon⁽¹⁾. ما رأيك؟»

انحنيتُ لأنظر إلى دفتر ملاحظاتها. أسعدني أنها قررت عدم طرح
المزيد من الأسئلة حول هذا الموضوع.

«نعم... هذا جميل...»

«هنا، سأضع صورة جميلة لإحدى إبداعاتك. وهنا في الأسفل
سأضع رابط موقعنا الإلكتروني...»

كانت تسطر كل شيء وتتوقف من حين إلى آخر عاصّة على طرف
قلمها. لزمْتُ الصمت. لقد تبَنَّت جوليا الاسم، وهذا هو الشيء الوحيد
الذي يهم.

(1) Manon. مانون

لقد حذرّني بأنه سيكون هناك أعداد من الناس، لكنني لم أدرك الأمر حقاً. كانت الساعة السابعة والنصف فقط، ولا يوجد في قصر الرياضة الضخم سوى العارضين، ومع ذلك انتابني شعور بالضيق التام. لا أدري إن كانت جوليا تدرك الجهود التي بذلتها في هذه الأيام الأخيرة... لقد جعلتني أصنع خمسة عشر قطعة: أساور وخواتم وأطواق وتيجان وعصابات رأس، كل هذا يُضاف إلى طلب جديد لحفل زفاف - لإحدى معارف جوليا - كم لديها من المعارف؟

توقفتُ تقريباً عن الاهتمام بالحديقة، وعن زيارة شجرة الصنوبر المقدسة وفراخ أبي الحناء، لأنني رأيتهُم!

ثم إنني عملت كثيراً على مشروع السري. مشروع «نجوم خالدة لشجرة الأميلانكير». حاولت تجفيف زهورها النجمية بين صفحات رواية. كانت البتلات تتفتت. فكرت أن أحبسها تحت لوح من زجاج، أو في قلادة، أو خاتم. لم تعجبني الفكرة. لأن وضع النبات تحت الزجاج يفقده نضارته. كنت على وشك الاتصال بـ يان لكي يأتي لمساعدتي، عندما غفوت في المقعد الرمادي القديم.

رأيت حلماً غريباً يتعلق بمومياءات بقيت سليمة طوال قرون، موضوعة داخل تابوت، ومغطاة بشرائط ضمادات. عندما استيقظت، لم أربط في الحال بين تقنيات التحنيط المستخدمة في ذلك الوقت، وبين طريقة حفظ أزهارى. استغرق مني الأمر ساعات لكي تلمع

الفكرة في رأسي. كان الأمر مباغثاً إذ لم يكن لدي أي فكرة عن كيفية قيام المصريين بالحفاظ على الجثث. ما المواد التي استخدموها؟ ما الإجراءات التي اتخذوها؟ ولكن من الواضح أن حلاً أخذ يتشكل في ذهني. كان يجب تغطية أزهارى بمادة شفافة من شأنها أن تجمدها إلى الأبد. خطرت ببالي أشغالي اليدوية في المدرسة الابتدائية، وورق المناديل الملونة التي كنا نلصقها فوق علب مختلفة بمناسبة عيد الأم. استخدمنا غراء الورنيش، المادة اللزجة والشفافة التي تبقي المناديل ثابتة في مكانها لفترة طويلة بعد أن تجف. سنين انقضت.

في اليوم التالي، تزودتُ بعلبة غراء الورنيش من المركز التجاري وبدأت تجربتي. بعد عدة محاولات، جاءت النتيجة مطابقة لما تخيلته. ابتسمتُ، فقد نجحتُ أخيراً. وضعتُ أول سوار من زهور الأميلانكير الأبدية، في صندوق صغير داخل حقيبتى اليدوية. هذا ما سأفاجئ به جوليا الليلة عندما ينتهي المعرض ونُخلي منصة العرض وقد أصابنا الإرهاق.

إذا أعجبتها النتيجة، يمكنني تكرار التجربة مع زهور أكبر: أجراس الزنبق، وبتلات اللحلاح وغيرها الكثير، من يدري؟

لم أشهد من قبل يوماً كهذا توالى فيه الأسئلة الواحد بعد الآخر.

«ما هي الألوان التي تفكرين في استخدامها لموسم الخريف؟»

«هل تنوين توسيع نسق أزهارك؟»

«طبعاً» أعلنت جوليا وقد هبت لنجدتي «نحن نعتزم توسيع الحديقة

وتركيب دفيئة لفصل الشتاء»

كانت مليئة بالثقة والطاقة، وهو ما كان يتناقض بشدة مع حياتي وخرقي، لكنني أعتقد أننا، هي وأنا، حظينا بمحبة الناس لنا. هي على الصورة الديناميكية التي أعطتها عن مؤسستنا الصغيرة، وأنا على براعة يدي وعلى إبداعاتي.

تفرق الحشد حوالي الساعة السادسة وقدمت لي جوليا كرسياً وقالت: «أستحقُّ كأساً من الريزلينغ⁽¹⁾ الجيد مع نكهة الفاكهة...» قمت بعد مطبوعاتنا عدداً إجمالياً. لقد نفذت مثلما تنفذ قطع كعك ساخن. سيكون من الضروري إعادة طباعتها على وجه السرعة. سجلت جوليا في دفتر ملاحظاتها الطلبات التي تحتاج إلى تأكيد من قبل طالبيها بعد إرسال عرض الأسعار إليهم. كنت مرهقة، مرهقة ولكنني سعيدة. من كان يظن قبل بضعة أسابيع أن الأمور سوف تأخذ هذا المنحى؟ كل الفضل يعود إلى لولا وأساورها الزهرية، يعود بشكل خاص إلى جوليا.

«ها تعالي، دعينا نترك كل شيء على حاله»، قالت جوليا راجيةً «وفي صباح الغد ننتهي من التوضيب. ها نتناول كأس النبيذ» «حسناً»

تجنبْتُ التفكير بأن هذه ستكون أول مرة أخرج فيها خلال عام، وأنها ستثير قدراً من المشاعر أكثر مما يمكن تحمله في يوم واحد. لحسن الحظ، فإن البار الذي اختارته جوليا هو متجر صغير يقع أسفل منزلها، فيه عدد قليل من الطاولات الفارغة بالداخل، وعدد قليل آخر في الفناء الداخلي للمقهى، وسط كم كثيف من النباتات الخضراء.

(1) نبيذ أبيض يصنع من عنب ريزلينغ المعروف في عدة بلدان أوروبية.

جلسنا بجوار نبات شجرة الحب، المورقة بغزارة، وبينما راحت جوليا تستعرض قائمة النبيذ، كنت أفكر بشيء وحيد هو أن أعود إلى منزلي الذي افتقدته بالفعل وأسقي الفراولة وأطعم قطتي وأزور فراخ طير أبي الحناء. كنت أرغب بالجلوس على درجات عتبة منزلي والاستمتاع بآخر خيوط الشمس وأنا أشرب شراباً مثلجاً من نعناع حديقتي. لكنني الآن في الفناء الداخلي لهذا البار وعليّ الاعتراف بأن جلستنا هذه حول هذه الطاولة ليست سيئة أيضاً. أعتقد بأنني قد أتمكن في المستقبل، من الحلول في جسد أماندا الأخرى، التي تتجول مع صديقتها جوليا وتغامر بالخروج من منزلها القديم، وتحاول الاندماج مع الحشد وتعيد تواصلها مع العالم. من الممكن أن يحدث هذا مرةً من حين إلى آخر، أليس كذلك؟

جاء النادل لأخذ طلبنا، وبعد حين، رحنا نرشف كأسينا من النبيذ الأبيض الحلو. سألتني جوليا عن سبب الغرابة التي تبدو على وجهي. عندها أخرجت اللعبة من حقيقتي اليدوية. زهور شجيرة مانون.

«انظري، لقد جعلتها خالدة»

«خالدة؟»

«لقد طليتها باللورنيش... بهذه الطريقة لن تذبل.»

أعتقد أن شراكتي لـ جوليا، كانت تسعدها في بعض الأحيان، وليس عندما أصاب بالذعر أو عندما أتلعشم أو عندما ينتابني شكٌ بكل شيء. لكنها في لحظات مثل هذه، فإنها تكون سعيدة بأنها اختارتني. اختارتني أو فرضت نفسها علي، لا يهم كثيراً. أخذت تردد مراراً:

«أنت عبقرية يا أماندا»

طلبتُ كأسين آخرين من نبيذ جورانسون. أظن بأننا سنعاني من
أوجاع رأس، في صباح الغد عند وصول الزوار...

كان هذا اليوم الثاني من المعرض مرهقاً مثل اليوم الأول. شعرت
أن الحشد أصبح أكثر كثافة. وعلى الرغم من الصداع الطفيف الذي
شعرت به هذا الصباح، فقد سارت الأمور اليوم بالنسبة لي، على نحوٍ
أقل صعوبة. أصبح التواصل مع الناس أسهل وأكثر طبيعية. لقد دوت
الطلبات بنفسني - لديّ اليوم طلبان زيادة عن الأمس - والعناوين
لإرسال عروض الأسعار إليها، وقمت بتوزيع بطاقات التعريف.
«إنك تتعلمين المهنة» قالت جولي.

كان الوقت متأخراً عند وصولي إلى سيارتي في موقف السيارات،
وبدأت الشمس تغيب في الأفق. كان علينا أن نفكك منصة العرض،
ونحمل كل شيء في سيارة جوليا، ونودّع المنظمين ونشكرهم، ونعيد
إليهم شارتينا. كان كل جسدي يؤلمني، وكنت أرغب بأخذ حمام والتمتع
بليلة نوم جيدة، ولكن بقي أمامي أن أقود سيارتي لمدة نصف ساعة
عائدة إلى المنزل.

قمت بتشغيل راديو سيارتي، وفتحت نوافذها. أخذ هواء يونيو
الدافئ يلفح وجهي. يا لها من نهاية يوم حارة، شيء لا يصدق...
عندما وصلت، جاءت القطة الرمادية لاستقبالي. انحنيتُ لأداعبها.
«هل كل شيء على ما يرام؟ هل حرسَ المنزل؟ هل من جديد؟»
اتجهتُ عند ذلك نحو الحديقة لكي تحك نفسها بنبات الطماطم
الخضراء، واكتشفتُ عندما لحقتُ بها، أولى ثمار الفراولة.

لم أتوقع أكثر من ذلك. جلستُ متربعةً فوق التراب الذي لا يزال حارقاً في نهاية بعد الظهيرة، وضعتُ في فمي ثمرة فراولة حمراء. أغمضت عيني، متلذذة. كان اللب الطري ينهرس تحت أسناني، والعصارة السكرية تسيل على لساني. كان طعمها لا يُضاهى. طعم الشمس، طعم السقاية المتكررة، والرعاية المقدّمة في الشتاء، والآمال المعلقة عليها، والاهتمام الخاص بها. كان لها طعم تراب لوسي هيوغ، وطعم يديّ. التهمتُ الثمرتين الأخريين باستمتاع. لم يسبق أن تذوقت في حياتي فراولة بهذا الطعم اللذيذ...

المفاجأة الثانية كانت بانتظاري في شجرة الصنوبر المقدسة. كان عليّ أن أتحرك بسرعة، إذا أردتُ أن ألقى التحية على فراخ أبي الحناء وعلى بنجامان، لأن النهار قد اقترب من نهايته.

عندما وصلتُ إلى المكان، أربكني الصمت للحظة: لقد اختفت أصوات الفراخ. قمت على الفور بوضع المقعد الصغير أسفل جذع الشجرة وصعدتُ فوقه. كان العش فارغاً، ولا أثر للصغار ولا للأم. ولا حتى ريشة. شعرت بالقلق. حل الليل وبقيت هناك، أرقب أشجار الصنوبر الأخرى بعناية، على أمل رؤية عائلة أبي الحناء الصغيرة، وقد اتخذت من شجرة أخرى مقراً لها. لكن شيئاً لم يحدث. اضطررت أن أعود مكتئبة بعض الشيء.

عندما استيقظت في اليوم التالي، اكتشفتُ رسالة صوتية من قسم الموارد البشرية في بلدية الدائرة الثامنة في ليون.

«نهارك سعيد سيدة لوزان، من جديد معك السيدة أومون من إدارة الموارد البشرية. سمحتُ لنفسني بمعاودة الاتصال بك بعد أن بقي اتصالي الأول دون رد منك... وكما أخبرتك في رسالتي السابقة، لقد

وصلت إلى الحد الأقصى من إجازتك غير مدفوعة الأجر... كنا قد اتفقنا على مدة قصوى تصل إلى عام، غير قابلة للتجديد. نحتاج إلى جواب عاجل من قبلك، لأننا، كما يمكنك أن تتخيلي، قمنا بتعيين شاب ليحل محلك مؤقتاً أثناء غيابك، ونحن بحاجة إما إلى اتخاذ إجراءات تثبيته في الوظيفة، أو إعادتك إليها... سأعطيك فرصة حتى موعد أقصاه نهاية الأسبوع، للاتصال بي مجدداً من فضلك.»

أخذ قلبي يدق بسرعة وكأنني قطعْتُ مسافة عشرة كيلومترات، لتوي. في خضم ذلك ذهبت إلى شجرة الصنوبر المقدسة، للتحدث مع بنجامان، وسؤاله عن رأيه، وبساطة تامة، للعثور على قدر من السلام والهدوء. جلست على الكرسي وحاولت أن أتنفس بعمق. بدا كل شيء مختلطاً في ذهني. شذرات أفكار بشأن البلدية، وأزهار مانون، والطلبات الخمسة التي لم يتم حتى تأكيدها، حماسة جوليا مخاوفي، شكوكي، والدتي، الميراث، المنزل القديم، نبات الفراولة. وفي تلك اللحظة رأيتها. ضئيلة الحجم، ممتلئة. الكرطان السوداوان تنظران إلي. كانت تقف على حافة التجويف، وحيدة في عش فارغ... كنت قادرة على تمييزها من بين ألف طير. إنها طائر أبي الحناء الأم. نهضتُ، وعيني مثبتة عليها.

«ها قد عدتِ؟»

أخذ رأسها ينحني ويدور إلى اليمين واليسار، بحركات سريعة.

«أين صغارك؟»

راحت تنطنط في مكانها، تغير وضعيتها.

«لقد... لقد تعلمَ الفراخُ الطيران، أليس كذلك؟»

ما كل هذا الارتجاف في صوتي. إنني أثير السخرية.

«لقد تركتِ صغارك ترحل بعيداً»

كنتُ على وشك البكاء. لقد سار كل شيء بسرعة شديدة... قبل بضعة أسابيع، لم تكن الفراخ سوى بيوض، وها قد رحلت اليوم لتطير تحت سموات أخرى. كفاكِ يا بوبيت، إنها الحياة. هذا هو مسارها عند جميع الحيوانات.

«لا. اصمت يا بن. لا أريد سماع شيء هذا الصباح»

لم أكن بحاجة لتذكيري بكيفية سير الأمور في الحياة، وبدورها الطبيعية. أريد أن أترك حزيناً بقدر ما أشاء.

«نعم، دعني أنساك قليلاً، يا بن...»

سأضطر إلى الانتظار حتى المساء لكي أتشجع وأنتزع الورقة التي ألصقتها بحائطي، وحملت كلمة: شاركي، ثم أقلبها على وجهها الأبيض وأتناول القلم. سطرْتُ بضع كلمات، بالغضب نفسه الذي ألمَّ بي هذا الصباح قرب شجرة الصنوبر المقدسة، في مواجهة طير أبي الحناء الأم التي باتت وحيدة، وتعليقات بنجامان. ثم سلَّمتُ بالأمر، فقد كان الطائر الأم، وبنجامان، على حق. وضعت قلمي جانباً، والتقطت قطعة الشريط اللاصق التي لا تزال صالحة للاستخدام وألصقت الورقة على الحائط. يجب أن أراجع بضع خطوات إلى الوراء حتى أتمكن من تقييم أهمية الكلمات الظاهرة، تقييماً كاملاً...

دعني الأشياء تمضي

بدأتُ بالأسهل: الاتصال بمديرة الموارد البشرية في بلدية الدائرة الثامنة.

«السيدة أماندا لوزان؟»

«مرحباً. آسفة على الاتصال في وقت متأخر...»

تلا ذلك صمتٌ كنتُ خلاله أعدّ الشرائط المعلقة على شجرة صفصاف بول، بانتظار أن تقول شيئاً.

«هل أنت بخير؟»

لم أتوقع هذا السؤال، لكنني أجبتُ بأكبر قدر من التلقائية:

«نعم... أنا بخير»

ردت: «حسناً، يسعدنا سماع ذلك. هل اتخذتِ قراراً بشأن عودتك إلى البلدية؟»

«نعم»

«ها أنذا أصغي إليك...»

ابتسمتُ بارتياح متأكدة أخيراً من قراري...

«قررتُ التخلي عن وظيفتي. سأرسل لكم رسالة استقالتي في أقرب فرصة. هل يجب إرسالها بالبريد المسجل مع رقم الإيصال؟»

لم أعرف ما إذا كانت مديرة الموارد قد تفاجأت، فهي لم تُظهر ذلك.

«سوف نرسل لك تصفية حسابك في النصف الأول من شهر يوليو. هل غيرت البنك الذي تتعاملين معه؟ هل لا يزال حسابك المصرفي هو نفسه؟»

«نعم، ولكن لدي عنواناً جديداً. هل يمكنك تدوينه؟»
«لحظة واحدة»

انتظرتُ أن تُخرج شيئاً للكتابة، ووقفتُ أمام نافذتي مع شعور بالتخفف.

«أنا جاهزة يا أماندا، تفضلني؟»
«عنواني: طريق لاندومان، سان بيير لي شاستيل»
«طريق لاندومان، سان بيير لو شاستيل» رددتُ وهي تسطر على الورقة. «هل يجب إضافة أي رقم؟»
«لا، منزلي هو الوحيد في المكان»
«حسناً»

سمعتها تحرك أشياء فوق مكتبها، وتعيد ترتيب أوراقها.
«بالنسبة لأشيانك الشخصية، هل تريدين أن نرسلها لك؟»
لم أكن أذكر ما الأشياء التي تركتها في المكتب. لا بد أنها فئجان وإبريق شاي وعلبة من شاي الأعشاب وبلسم للشفاة.
«لا. تستطيعين التخلص منها، أو إعطاءها لأحد... لا فرق»
«حسناً»

أسمعتني عبارات مجاملة، وكلمات شكر، على سنواتٍ تعاوني مع البلدية، وأمنيات للأيام القادمة، لكنني لم أكن أستمع، بل كنت أنظر إلى الشرائط وهي تتطاير في شجرة صفصاف بول.

كنت أريد أن أمنح نفسي بعض الوقت قبل أن أضطر إلى القيادة في منتصف الأسبوع المقبل، لكي أترك كل شيء على ما يرام، قبل مغادرة منزلي لمدة يومين. هكذا اتصلت في اليوم التالي به أنا خلال استراحة غداها.

«أماندا، كيف حالك؟»

«بخير. وأنت؟»

كانت قد عادت من درسها على شاطئ البحر، وتعمل على فرز الصور الفوتوغرافية على حاسوبها المحمول، وتتعرف على الأنترنت لإنشاء ألبوم ورقي جميل.

«أي ربح ساقتي؟ هل تريد أن تكلمي ريشار؟»

«لا»

بدت متفاجئة، لكن مفاجآت أخرى كانت تنتظرها.

«هل يمكنك إعطائي اسم الزوجين اللذين يستأجران الشقة، ورقم

هاتفهما؟»

«الشقة؟»

أصرت أن تكرر لكي تأكد مما سمعته، لكنني كنت بالفعل أتكلم عن شقتنا، الشقة التي شغلناها أنا وبنجامان بضع سنين، في ضواحي ليون.

«نعم، نعم، بالطبع»

أخبرتها دون أن تسأل:

«سأجعل عقد الإيجار باسمهما بالكامل»

تلا ذلك صمت. هل كان لدى آنا أمل بأن أعود للسكن فيها باعتبارها قريبة من بيتهم، وقريبة من المقبرة؟ لن أعرف ذلك أبداً، وربما يكون هذا أفضل.

«هل أرسل لك هذه المعلومات في رسالة نصية؟» سألت بصوت متأثر قليلاً.

«نعم. سأتصل عاجلاً بالوكالة وأبلغهم بالأمر»

«حسناً»

لم تُصف شيئاً، وأنا أيضاً لم أفعل. كنت أتوق لإقفال الخط.

انتهيت من ترتيب المنزل. ملأت وعاء قطني الرمادية حتى حافته. لا يجوز أن ينقصها شيء أثناء غيابي.

«سغادر ليومين فقط»، ذكرّني جوليا.

أعرف ذلك، لكنني منذ وقت طويل جداً لم أمضي الليل خارج بيتي. كنت مضطربة ومنزعجة قليلاً، ولولا تأنيب جوليا اللطيف لأصبحت مهمة الترتيب شبه مستحيلة.

كنت أعرف مسبقاً أنني سأشتاق للمنزل.

أصدرت مصاريع النوافذ صريراً عندما أغلقتها. وكنت أعرف مسبقاً بأن الباب سيصدر الصرير نفسه لاحقاً عندما أقفله، وأن القفل سوف يتعبني. كل شيء كان كما في اليوم الأول. لم يتغير شيء. وهناك شيء مطمئن في معرفة أن منزلي بقي على ثباته ورسوخه هذه السنة مثلما بقي عليهما طوال الزمن السابق لمنجيني.

«هل انتهيت؟» هتفت جوليا وهي تنهض دفعة واحدة.

كانت جوليا تترين بالأقراط الأولى من مجموعتنا «نجوم الثلج». زهور الأميلانكير الأبدية التي بدت حية كما في وقت تفتّحها. أرادت جوليا أن تكون أول من يرتديها.

أما أنا، فقد زينت معصمي بنجوم مانون. سواران رفيعان من خيط الجوت، وارتديت فستاناً خفيفاً. فستان صيفي أبيض أخرجته من صناديقي.

«حسناً، هل نذهب» قالت جوليا بنفاد صبر «إذا بقيت هكذا ستصلين متأخرة على موعدك...»

رفعت عيني نحو السماء وفتحت قفل سيارتي.

«كنتُ أظن أنه إذا كان الموعد معه، فلا يهم إذا وصلتُ متأخرة...»

«هل أنا التي قلتُ ذلك؟»

لم يكن لدي وقت للرد عليها، لأنها فور جلوسها في مقعد الراكب، شغلت الراديو. ومن هذا الراديو القديم الطراز، علت أصواتٌ مختلطة لفرقة أعرفها جيداً، وأغنية غنيتهُا قبل بضعة أسابيع في حديقتي خلف المنزل، وأنا أفكر بـ بنجامان. رفعت جوليا صوت الراديو وراحت تغني بأعلى صوتها:

Only youuuuuu can make this world seem right

Only youuuuuu can make the darkness bright

(أنت فقط من يمكنه جعل العالم بخير)

(أنت فقط من يمكنه إحالة الظلام نوراً)

انطلقت سيارتي على طول طريق لاندومان الضيق، مبتعدةً عن منزلي، على صوت جوليا الذي يحلّق بالغناء. رأيتُ انعكاس صورتي في مرآة الرؤية الخلفية. لقد وضعت صباغاً وردياً فوق شفتي، وزهرة نرجس في شعري وكنت أبتسم.

هذا المساء، خرجنا أنا وجوليا. هذا المساء، غادرتُ منزلي القديم بقلب خفيف، أخف مما كان عليه منذ زمن طويل. هذا المساء، قلت لـ بنجامان بضع كلمات عند سفح شجرة الصنوبر المقدسة، بينما كانت جوليا تتزيّن. كلمات همستُ بها بسرعة كبيرة، كيلا أسمع للعاطفة بأن تتدخل فتجعل صوتي يرتجف. كلمات بخصوص موعد فائت، قبل عام.

هذا المساء، نحن في يوم 21 يونيو. في غضون ساعات قليلة، سندخل إلى ليون على صوت الألعاب النارية والفرق الموسيقية، سيكون ريشار واقفاً عند عتبة البيت، مرتدياً قميصاً صيفياً جميلاً - أراهن أنه سيكون القميص الرمادي الفاتح، لن يفاجأ برؤيتي مع جوليا، فقد أخبرته، لكنه سوف يفاجأ برؤيتي أركن سيارتي في موقف سيارات بيت الشباب والثقافة، بالطابق الثامن تحت الأرض، بعد أن أذنت لي إيليا باستخدامه. لقد أخفيت عنه هدف دعوتي له. سيفهم عندما نتجه نحو قاعة الرقص، حيث سيقف ميكا وعصام ولولا وناثان والياس والآخرين بشكل مستقيم على المسرح، بملامح متجمدة من التركيز. سوف يتردد صدى صوت لولا، الأكثر نعومة من صوت دولوريس أوربوردان، وسوف ينقبض قلبي عند التفكير في أنك كان ينبغي أن تكون حاضراً بجانبني، تمسك بيدي، بينما تتلملعل مانون في عربة الأطفال. ولكنني أعددك أنني لن أهتم بألم قلبي. سأتناول البيرة التي تُقدِّمها لي جوليا، وأدعها تسكرني قليلاً، ثم سأجعل ريشار يرقص على حلبة رقص مرتجلة. سسرقص معاً بأقدام خرقاء وقلبين متألمين، لكننا لن نكون حزينين تماماً، يا بن، لأننا لن نكون وحدنا. سوف نكون كلانا ومعنا حبُّنا لك، حبٌّ حتى الموت، ولكنه قبل كل شيء حب للحياة، للمزيد والمزيد منها، تمجيداً للنور الذي تركته خلفك...

مكتبة

t.me/soramnqraa

شكر

- شكراً لك جدتي، تيتا العزيزة: لأجل حديقتك، خضرواتك، أزهارك، تقاويمك ومفكراتك المليئة بالحواشي. لقد أوحيت لي بشخصية لوسي هيوغ. لوسي على اسم أمك، جدتي الكبرى. لا، إنها ليست مصادفة...
- شكراً لأبوي اللذين يؤمنان بي بقوة. أمي، وهي من أول القارئات، التي تأثرت إلى درجة البكاء، بقصة أماندا.
- شكراً لعائلتي.
- شكراً لقطتي على دعمها لي ودفنها خلال تلك الساعات الطويلة من الكتابة وإعادة الكتابة.
- أخيراً، شكراً لك أنت. كنتَ جزءاً صغيراً من إميل. وأنت جزء كبير من بنجامان. كنتَ معي فوق ذلك الجسر، نتأمل مئات الطوافات المضيئة على نهر بينغ في تايلاند، عندما فرضت أماندا، ولوسي، وبول، والمنزل، أنفسهم علي.

ميليسا دا كوستا

الأيام التي ستأتي

تلجأ أماندا إلى منزل معزول في الريف؛ لتختبر حزنها بالكامل، ولم تكن تعتقد أن أي شخص يمكن أن يعاني من هذا القدر من الألم.

تمر الأيام وتشرق الشمس في الخارج، لكنها تظل منعزلة وترفض أن تراها، لكنها عندما تصادف التقويمات البستانية للمالكة السابقة للمنزل السيدة هيوغ، تقرر المحاولة بإعادة الحياة إلى الحديقة القديمة المهجورة، مسترشدة بالملاحظات المكتوبة بخط يد السيدة هيوغ. وعلى مدار الفصول، تستمد أماندا من هذا الاتصال بالأرض القوة اللازمة لإعادة إحياء الأرض وفتح نفسها للقاءات فريدة من نوعها حتى يصبح كل غد في النهاية وعدا بالمستقبل.

رواية رقيقة ومؤثرة، تدعونا إلى فتح أعيننا وحواسنا وقلوبنا، وهي لوحة رائعة الجمال الطبيعية، تصالحننا مع الحياة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

